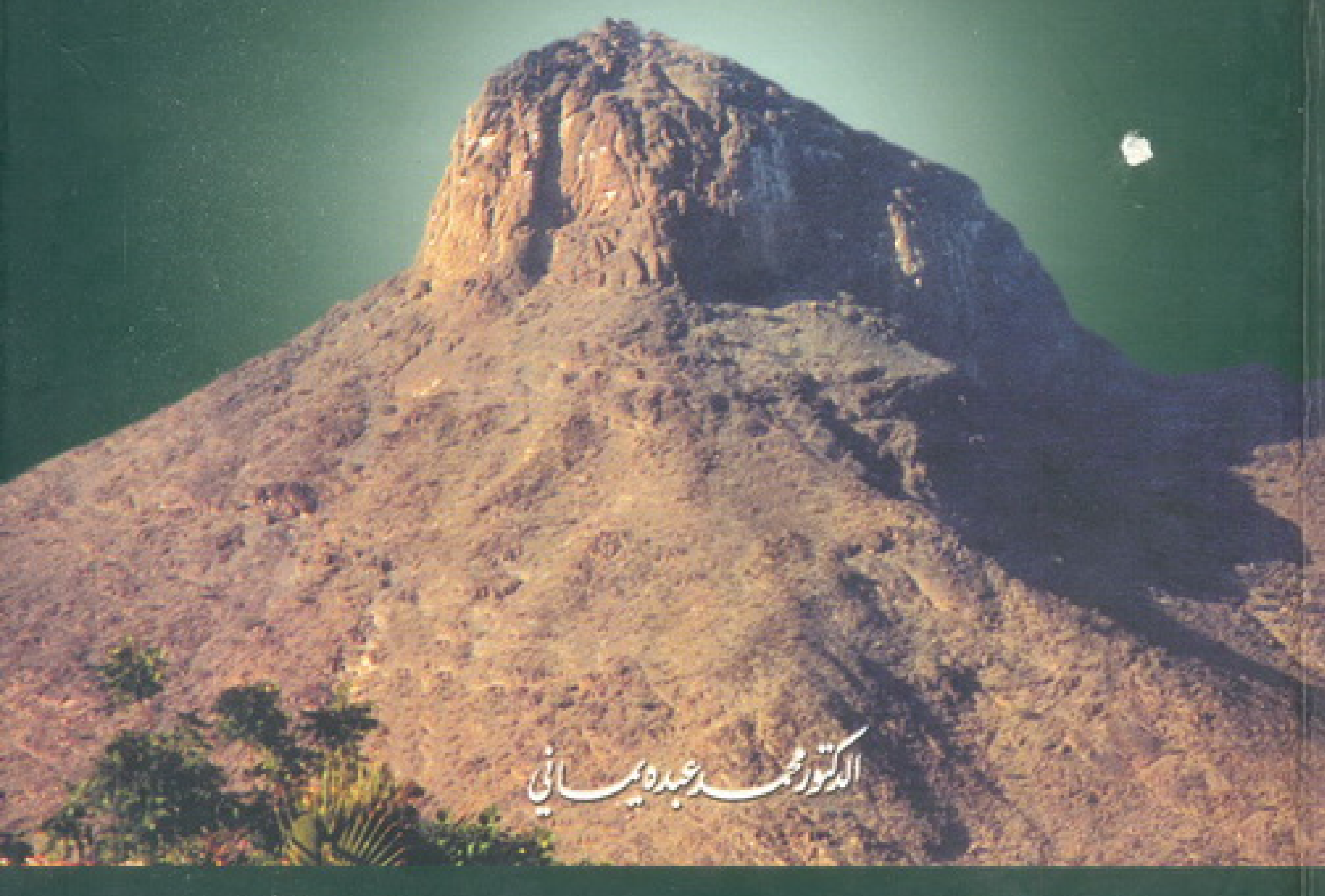
أُمُّ المؤمنين

خديجة بنت خويلد

سيدةٌ في قلبِ المصطفى ﷺ



الدكتور محمد عبده يماني

منار للنشر والتوزيع

مؤسسة علوم القرآن

مؤسسة الريان

أُمُّ المُؤمِنِين

خديجة بنت خويلد رضي الله عنها

سيدةٌ في قلبِ المُصطفى ﷺ

الدكتور محمد عبده يماني

مؤسسة علوم القرآن
منار للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى
1421هـ - 2000م

مؤسسة علوم القرآن
دمشق - هاتف 2224999 فاكس 2114168 ص.ب: 13277



منار للنشر والتوزيع
E-mail: manarest@mail.sy



الإهداء

إليك يا أماه.. إليك زوج المصطفى وحبه وسنده وعضده من الله.. فقد أكرمه الله بك زوجاً وكرمك لتكوني أول المسلمين.. إليك اهدي كتابي هذا عن سيرتك العطرة

« سيدة في قلب المصطفى صلى الله عليه وسلم »

وإليك فاطمة الزهراء أيتها البضعة الطاهرة من أصل طاهر وفي رحم طاهر.. إليك يا أصل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.. إليك وقد شاء الله أن ينحصر فيك نسب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإليكن بنات المصطفى زينب ورقية وأم كلثوم وإليك عبد الله أيها الطيب الطاهر وإليك أيها العزيز القاسم وإليك إبراهيم آخر أولاد المصطفى رضي الله عنكم أجمعين.

إليكم آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن جدتكم الأولى الطاهرة الطيبة زوج المصطفى وأم الزهراء.

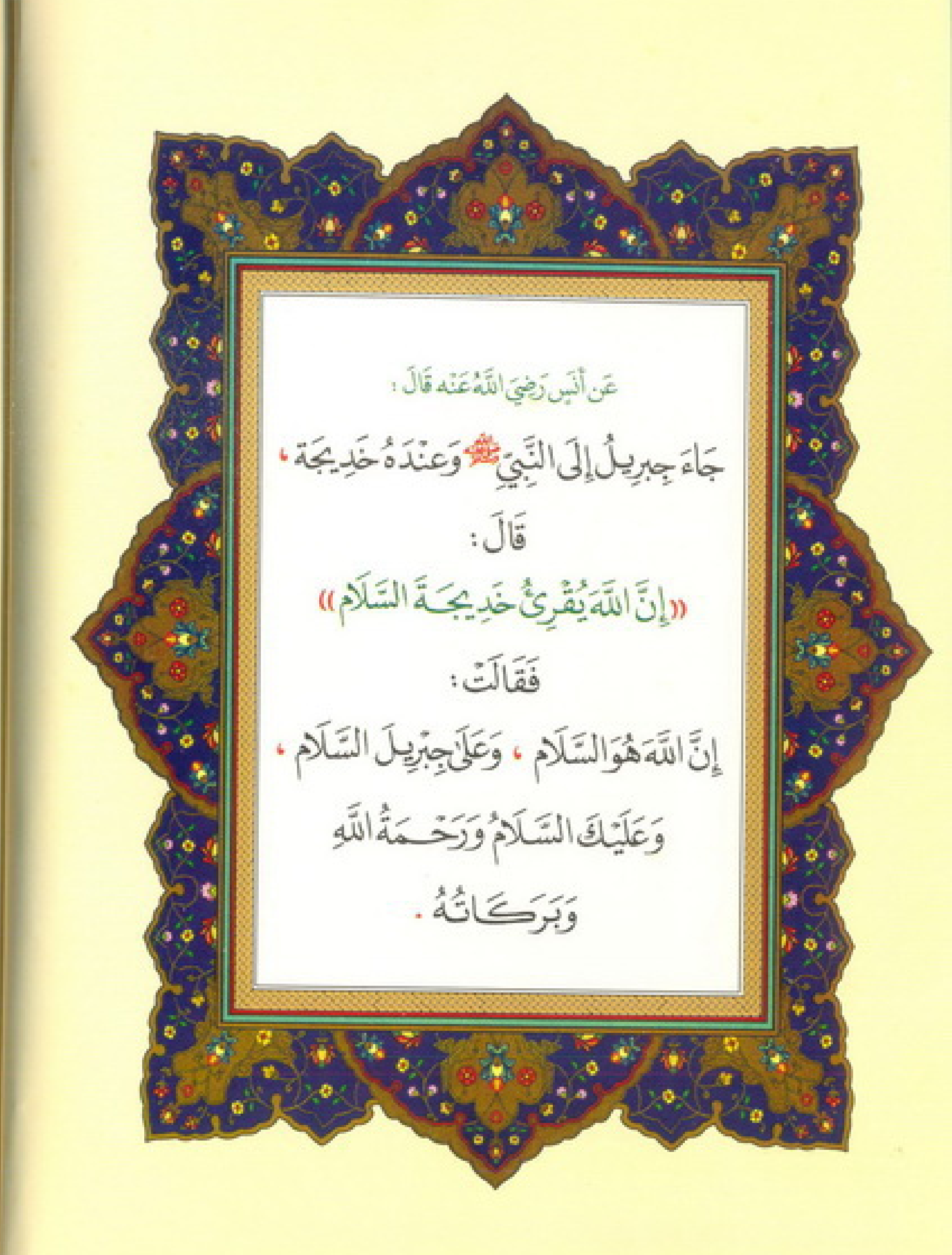
وإلى كل محب ومحبة لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وإلى كل من يحب أن يتعلم عن هذه السيدة الكريمة.. وآل بيتها.. آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

محمد عبده يماني


بسم الله الرحمن الرحيم


قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :
((مَا أَبْدَلَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ خَيْرًا مِنْهَا ،
قَدْ آمَنَتْ بِي إِذْ كَفَرَ بِيَ النَّاسُ ،
وَصَدَّقَتْنِي إِذْ كَذَّبَنِي النَّاسُ ،
وَوَاسَتْنِي بِمَالِهَا إِذْ حَرَمَنِي النَّاسُ ،
وَرَزَقَنِي اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَدَهَا
إِذْ حَرَمَنِي أَوْلَادَ النِّسَاءِ)).



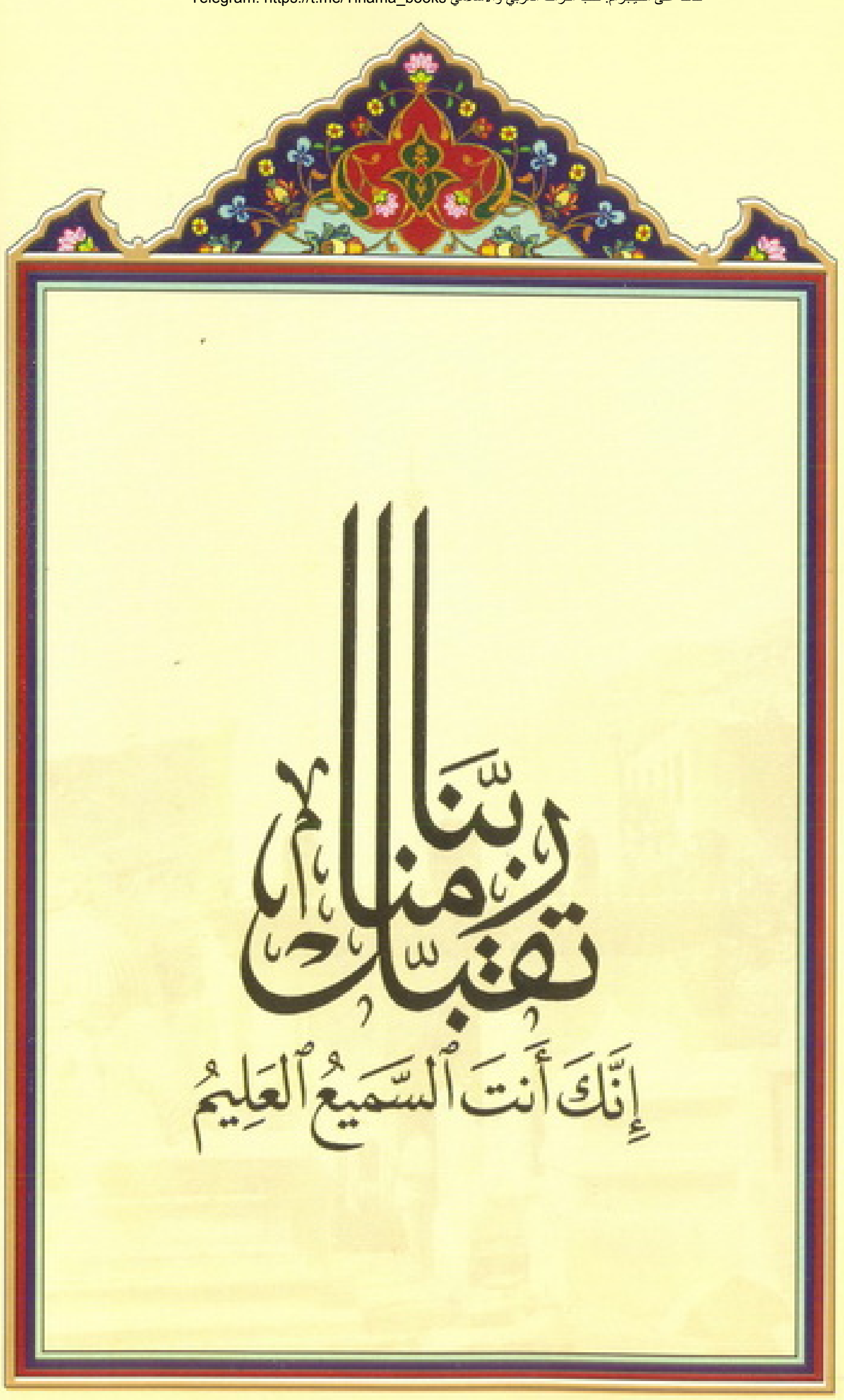
عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ:

جَاءَ جِبرِيلُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَعِنْدَهُ خَدِيجَةُ، قَالَ:

«إِنَّ اللَّهَ يُقْرِئُ خَدِيجَةَ السَّلَامَ»

فَقَالَتْ:

إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّلَامُ، وَعَلَى جِبرِيلَ السَّلَامُ، وَعَلَيْكَ السَّلَامُ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ.


رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا
إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلعَلِيمُ

مقدمـــة

لله في خلقه شئون يبديها ولا يبتديها، يرفع أقواماً ويخفض آخرين، وله اجتباء واصطفاء من بين ما خلق، فبارك بقعاً من الأرض، وقطعاً منها، وحرم أشهراً، واصطفى رسلاً، وكرم عباداً: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحٗا وَءَالَ إِبۡرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمۡرَٰنَ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[1].

وهو في اجتبائه واصطفاءه يهب ما يشاء لمن يشاء، عطاء غير ممنون. يختار عن علم سابق، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾[2] فإذا قضى لبعض خلقه بالفضل، وكتب له من الحسنى ما قدر له، فذلك هو العز الذي لا يهون، والشرف الذي يعلو على كل شرف، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن هذا المقام ماصح عن الرسول الكريم ﷺ «إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار من خيار».

ونتلو في هذا المقام قوله تعالى:

﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾[3].

وقد أراد سبحانه أن يجعل في خضم تيار البشرية معالم يهتدي بها الناس، بها تقاس الكمالات، وتلتمس فيها القدوة والأسوة، ويبقى

---

(١) سورة آل عمران ـ الآية: ٣٣.

(٢) سورة الملك ـ الآية: ١٤.

(٣) سورة آل عمران ـ الآية: ٢٦.

على مدى الدهر سيل الهدى والنور يتدفق منها، يتطلع إليها كل جيل، أفقاً مشرقاً، وأنجما ثواقب يتعلم منها ما يعرف به معاني الكمال والجلال، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾(١).

وضرب الله لذلك أمثالا كثيرة في القرآن الكريم من قصص الأنبياء والمرسلين، والرواد والصديقين، والأمم والأفراد: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾(٢).

فاختار آدم عليه الصلاة والسلام وجعله خليفة في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾(٣) وجعل ذريته خلفاء في الأرض.

واختار منهم الرسل والأنبياء ليكونوا شموس هداية ودعاة خير: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾(٤).

واختار أمة سيدنا محمد ﷺ، لتكون خير الأمم. ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾(٥).

﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾(٦).

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾(٧).

واختار من القرون جميعاً قرن الرسول ﷺ «خير القرون قرني»

---

(١) سورة الأحزاب ـ الآية: ٢١
(٢) سورة يوسف ـ الآية: ١١١
(٣) سورة البقرة ـ الآية: ٣٠
(٤) سورة النساء ـ الآية: ١٦٥
(٥) سورة آل عمران ـ الآية: ١١٠
(٦) سورة الحج ـ الآية: ٧٨
(٧) سورة البقرة ـ الآية: ١٤٣

والمراد به قرن الصحابة رضي الله تعالى عنهم .

«إن الله اختار أصحابي على العالمين بعد النبيين والمرسلين» .

واختار من بين أصحابه العشرة المبشرين بالجنة، واختار من العشرة أبابكر وعمر وعثمان وعلياً. ثم بعد العشرة أهل بدر، ثم أهل أحد، ثم أهل بيعة الرضوان. قال ﷺ: «أنتم خير أهل الأرض» .

واختار أهل بيته وطهرهم تطهيرا

﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾[1]

﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾[2] .

- «تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي» .

- واختار نساءه على نساء العالمين .

- ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِىِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ ﴾[3] .

- واختار من بين نسائه حورية الدنيا التي فاقت حور الجنة .

- «خير نسائها خديجة» .

- «والله ما أبدلني الله خيراً منها» .

فمن تكون خديجة؟

إنها أصل الشرف، ومحتد الكرم، وطيب العنصر وطهر علو النسب فلا امرأة تسبق خديجة .

الشريفة الكريمة . . الطاهرة . . الطيبة .

الحسيبة النسيبة . . الجيدة (أم هاشم) كما يسميها جيرانها أهل مكة المكرمة . فالسيدة خديجة رضي الله عنها يجمعها مع رسول الله ﷺ

---

(١) سورة الأحزاب ـ الآية: ٣٣

(٢) سورة الشورى ـ الآية: ٢٣

(٣) سورة الأحزاب ـ الآية: ٣٢

النسب في جده قصي من جهة أبيها وفي لؤي من جهة أمها وفي عبد مناف بن قصي من جهة جدتها لأمها.

لقد اختار الله هذه السيدة لتقف بجوار المصطفى، وأكرمها وكرمها، ورزقها رجاحة العقل.. وحسن الخلق.. وآتاها حزماً وعزماً.. وصموداً وإخلاصاً ووفاء وسعة رزق، سخرها لخدمة سيدنا محمد.. وعونه على إبلاغ الرسالة فصمدت.. وضَحَت.. شدت أزره وأيدته، وأحاطته بالرعاية والحب والحنان، فكانت عظيمة بوفائها وعطائها لرسول الله ﷺ.

بيتها بيت مجد وشرف، ومكانها في قومها معقد الآمال، ومنتهى المنى، يتمناها منهم كل سيد وشريف، ويسعى إلى خطبتها كل من ينشد الأصالة والنجابة والكمال والجمال.

لا تدانيها في ذلك امرأة فضلاً عن أن تسبقها.

لقبها في الجاهلية بين قومها «الطاهرة» أما مالها وغناها، فما عرفت لها قرينة في الغنى والثراء بين قومها.. حازمة لبيبة، ذكية أريبة، حصان رزان، سيدة الكاملات، وأجمل الجميلات خَلْقاً وخُلُقاً.

سبقت إرادة الله فاختارها عرساً لنبيه ووزيراً، ومعيناً ومشيراً، وسنداً ونصيراً، واختصها وحدها من بين نسائه بحضور أول الوحي، وأول الاصطفاء، وأول نزول القرآن، وكانت أول المجاهدات، وأول الصابرات، وأول الباذلات.

ثم جعل ابنتها فاطمة من بعدها أم عترته وأصل ذريته، وكانت السيدة خديجة رفيقة شبابه وكهولته.

أفرده لها وأفردها له زوجاً عروباً، وقلباً حبيباً، ودفئاً خصيباً جمع له فيها حب الزوجة وسكنها، ورأفتها ورحمتها، وعطف الأم وحنانها،

ووفاء الحبيبة وصدقها، وفداء المؤمنة به وعونها، مع صدق المشورة وطهر السريرة، ودأب الوزيرة، وحلم حازم، وبر دائم، وحنان موصول، ومال مبذول، وحب لا يحول.

واسأل أيام تحنثه في الغار، كيف كانت له معيناً، وسل ليالي الشعب حينما قاطعت قريش النبي وأهل بيته، كيف كانت صبوراً جسوراً، على رغم سنها، ووهن جسمها، وكيف بذلت مالها في إطعام المحاصرين، ومواساة المعذبين، وسل عن كل ذلك وفاء خير الناس لها حبيبها المصطفى من بعد رحيلها، ذكراً لمناقبها، وتعدادا لمواهبها، وبقاء على عهدها وصلة لأحبائها.

«إني لأحب حبيبها».

«اللهم هالة».

«أرسلوا هذا إلى أحباء خديجة».

«كانت تأتينا أيام خديجة».

إنها أم المؤمنين الأولى،

وزوج الحبيب الأولى،

والمسلمة الأولى،

والصديقة الأولى،

والحبيبة الأولى،

والمجاهدة الأولى.. والوزيرة الأولى التي هيأتها العناية الإلهية له ﷺ.

سيدة نساء العالمين،

وأم فاطمة سيدة نساء أهل الجنة[١]،

---

(١) رواه البخاري.

رضي الله عنها وأرضاها .

فبين يديك أم المؤمنين . . أقدم كتابي هذا . . باقة حب ووفاء . فهذا كتاب . . أكتبه بقلبي وعقلي قبل قلمي وحبي لك يا أم هاشم . . أيتها الطاهرة . . أكتبه من وحي الحب والإيمان والجوار ، فقد جاورناك عمرنا كله وكنا ننعم ولا نزال والحمد لله . . بنعمة جوارك في مكة المكرمة، فقد شاء الله أن يتوفاك قبل الهجرة وأهل مكة يعتزون بهذا الجوار ويفاخرون به . . ويسمونك «الجيدة» لما لمسوا منك من وفاء . . وحب . . لهذا النبي الكريم بل ولكل من أحبك . . وآل بيتك الطيبين الطاهرين .

فإليك . . أيتها الصديقة الأولى . . والحبيبه التي أحبها المصطفى . . وتزوجها . . فكانت خير سند وخير عضد . . إليك أيتها السيدة الكريمة . . أقدم كتابي . . وأضعه بين يديك . . واسأل الله القبول .

وإن المتتبع لسيرتك العطرة يحار من أين يبدأ! وبم يبدأ! وماذا يكتب في ذكرك، وفضلك، وسبقك، وجهدك، وجهادك!

وكم يحار العقل إذا نظر في شأنك وتتبع سيرتك!

وكم يعتز التاريخ عندما يستعرض حياتك! ويقف إجلالا لهذه السيرة العطرة، والسيدة الفاضلة .

وكم نطأطىء الهام احتراماً إذا قيل خديجة بنت خويلد .

فماذا أبقيت لأهل النبل وقد كنت سيدة النبلاء .

وماذا تركت لأهل الشرف وقد كنت قمة الشرفاء .

وماذا فاتك من الكرم حتى يذكر معك الكرماء .

وماذا نقصك من الفراسة! وقد سبقت إلى معرفة مكانة سيد الأنبياء .

وماذا عند الحكماء لم تبلغي فيه الذروة العلياء!

عقيلة قريش وسيدة مكة

وأمنية ذوي الشرف والهمة

الرفيعة المنيعة

الودود الولود

الطاهرة المطهرة . . الكريمة المعطاء

تغضى العيون إجلالاً لمقامها

وتهتز القلوب فرحا عند ذكرها

كانت الزوجة الرؤوم كأنها أم زوجها

والمحبة العروب كأنها العروس كل يوم في ودادها وجمالها وبهائها

والسيدة الحصان التي تهتف جوانب مكة بعفافها وحيائها

والوزيرة المؤازرة عند الشدائد لزوجها ونبيها

سألت التاريخ عن نظيرها فقال : هيهات . . هيهات !!

وسألته عن يوم زفافها فقال: أهديت ذروة النساء لسيد الأولين والآخرين .

وسألته عن نسلها فقال: حسبك انهم أشرف العالمين، فرض الله على عباده حبهم والصلاة عليهم في الصلاة .

أماه يا أم الزهراء البتول ، أشبه اهل بيته به ، وأولهم لحوقا به .

أماه ياجدة آل الرسول .

والفريدة التي ملأت حياته أنساً وتزوجته بكراً، فلم يعرف النساء قبلها .

فظل يذكرها كل حين ولا ينسى .

ولم يقترن بسواها حياتها كلها .

وبشرها ببيت في الجنة ، لاصخب فيه ولا نصب .

وحفظ عهدها من بعدها في أهل ودها

أماه . .

يا خيرة الله لنبيه .

وهديته إلى صفيه .

يا أم القاسم والطاهر . . وزينب ورقية وأم كلثوم . . وأم أبيها البتول .

وناظمة عقد السلالة الطاهر الباهر .

شغلت بكمالك وفعالك أهل السماء .

وبالسلام عليك من الله جبريل جاء .

أماه . .

ماذا أقول والبيان - مهما سما وعلا - يعجز عن إظهارقدرك .

والشعر يحار أمام جلالك وطهرك .

وماذا يبلغ بيان الناس كلهم أمام دمعة الحبيب عند ذكرك .

دمعة هى أغلى وأعلى من كل بيان .

وماذا يملكون من المدح أمام قوله : «والله ما أبدلني الله خيراً منها» .

وأصدق من كل ما ينطق به لسان .

فسلام عليك يا أول وأكمل أمهات المؤمنين اقتراناً به، وأكملهن وفاء له، وأكثرهن تضحية لأجله، ومعذرة منكن أيتها الأمهات الطاهرات الكاملات المكملات .

وسلام عليكن مجتمعات .

من كل أبنائكن المؤمنين .

إلى يوم الدين . . ورضي الله عنكم آل بيت رسول الله أجمعين .

بين يدي السيدة خديجـة

إن حياة أم المؤمنين خديجة تاريخ مشرف ومشرق لسيدة.. طاهرة.. شريفة فاضلة، أكرمها الله عز وجل فاختارها زوجاً لهذا النبي الكريم والرسول العظيم، وأكرمها عز وجل بسمعة، عطرة وسيرة فاضلة في الجاهلية والاسلام.. وعقل راجح، وهمة عاليه، فكانت أول من أسلم وصدق وآمن برسول الله ﷺ، حتى إنها بشرته وهدّأت من روعه حين جاءه الوحي أول مرة، وعاد الى بيته مشفقا على نفسه مما سمع ورأى وهو يقول: زملوني.. زملوني.

خديجة بنت خويلد التي لها حق في رقبة كل مسلم ومسلمة بما قدمته لسيدنا محمد ﷺ وهي أول أمهات المؤمنين.. وقفت معه وأيدته، وشجعته ونصرته، وأعطته وأعانته على المضي.. ودعمته بكل ما تملك. هذه السيدة التي صبرت مع رسول الله على إيذاء قريش وعنتهم وظلمهم.. ودخلت معه الشعب، تقف الى جانبه، وتتحمل معه أعباء تلك المحنة مع أنها رضي الله عنها لم تكن معنية بالمقاطعة.. لأنها ليست من بني هاشم، ولكنها آثرت الدخول مع النبي ﷺ إلى الشعب وتحملت الجوع.. والحرمان في سبيل نصرة زوجها الأمين.. شهامة ومودة ومشاركة صادقة.. وإيماناً حقيقياً بالرسالة والرسول.

فقد خرجت عن بيتها الرفيع ومقامها المنيع، ودخلت معه الشعب، فكانت من جملة المحاصرين، ولم تبال بسنها التي قاربت على الستين رغبة في نصرة سيد المرسلين، ومتابعته فرضيت بالحياة الخشنة القاسية وزهدت بحياة العز والرفاهية، وذاقت مرارة الجوع والعطش

فكيف لايقف التاريخ إجلالاً لمقامها الرفيع.

والسيدة خديجة رضي الله عنها.. كانت ذات شأن وفضل في قومها فعرفت بالطاهرة.. وقد حفظها الله من أرجاس الجاهلية فكانت تشعر بقلق وعدم قناعة بعبادة الأصنام ولهذا كانت تلجأ الى ابن عمها ورقة بن نوفل تسأله وتبثه قلقها وحيرتها.

نشأت السيدة خديجة في بيت طيب وبيئة كريمة، فبيت أهلها من أعرق بيوت قريش وأعلاهم نسباً، وثراء، ووجاهة.

وقد ولدت رضي الله عنها قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة.

أبوها خويلد بن أسد بن عبد العزى أخ لعبد مناف.. وأمها فاطمة بنت زائدة وأم فاطمة هى هالة بنت عبد مناف الجد الثالث للنبي ﷺ.

تزوجت هذه السيدة الجليلة برسول الله وهى ابنة أربعين سنة، بينما كان هو في الخامسة والعشرين، وكانت قد رغبت في الزواج به بعد ما علمت من أخبار فضله وأمانته وبركته، وما أخبرها به غلامها ميسرة مما شاهده في رحلته معه في تجارتها الى الشام.. ورعاية الله سبحانه وتعالى له، وكان قد تقدم لخطبتها كثيرون من أشراف قريش، فرفضت ذلك بإباء وشمم، وأراد الله لها الخير والفضل.. فكان ذلك الزواج المبارك الميمون.

عاشت هذه السيدة حياة هنيئة رغدة في جوار رسول الله قبل أن يوحى اليه، فلما أتته النبوة، وتحمل في سبيل الدعوة الأذى والآلام والحرمان، وقفت الى جانبه، وصبرت معه، وضحت في سبيله.

كانت وزيرة صدق.. صدقته، وصدقت معه، وكانت خير عون وسند ونصر بتوفيق الله عز وجل وكانت الصديقة الأولى.

فما أن نزل الوحي على رسول الله ﷺ حتى كانت أول من صدق وآزر

ووقف مع سيدنا محمد، تشد من أزره، وتعينه، وتبذل كل غال ونفيس في سبيل راحته، وعندما كان يذهب إلى غار حراء قبل نزول الوحي، ويظل هناك متبتلا لأيام طويلة، كانت تسأل عنه، وترسل رسلها ليطمئنوها عليه، وكانت تحمل إليه الطعام والشراب، لاتكل ولاتمل، ثم تصعد إلى الجبل الذي يبلغ ارتفاعه ثمانمائة وستة وستين متراً فوق سطح البحر. كل ذلك لتطمئن عليه، وتعينه على ماهو فيه، وتفعل ذلك وهي فرحة سعيدة.

وقدر لها تلك المواقف الصابرة الشجاعة، فلما ماتت، أحس بآلام فراقها، وظل وفيا لها، يثني عليها، ويذكر مواقفها الصادقة، وتضحياتها الكبيرة، فبنى لها بذلك مكانة مرموقة في قلوب المؤمنين والمؤمنات حتى قيام الساعة، وخصها الله عز وجل، فجعل ذرية النبي ﷺ محصورة فيها، فلم يرزق الولد من غيرها.

إنها خديجة..

إنها الصديقة..

إنها الوفية..

الإنسانة التي اختارها الله لهذا الدور..

وهيأها لهذا الشرف..

وأكرمها.. وكرّمها.. فكانت لها تلك السيرة العطرة، والصحبة الكريمة لسيدنا رسول الله ﷺ.

وقد ماتت ودفنت بمكة.. فكسبنا جوارها في البلد الحرام حيث دفنت بمقابر المعلاة في الحجون وهى في الخامسة والستين قبل الهجرة بثلاث سنوات.

ماتت رضي الله عنها قبل الإسراء والمعراج..

وقبل أن تفرض الصلوات الخمس . .

في رمضان . . في الحادي عشر منه . .

وبعد خروج بني هاشم من الشعب . .

بعد أن أدت واجبها كاملا . . ووقفت مع رسول الله ﷺ تؤيده، وتثبته وتنصره تدثره وتزمله وتصدقه، وتبذل كل ما تملك في سبيل نصرته وراحته حتى انها كانت رضي الله عنها تقطع ثلاثة أميال على رجليها من بيتها الى جبل النور ثم تصعد الى غار حراء تطمئن على رسول الله ﷺ وتحمل له الماء والزاد وتثبته . . وكانت في بعض الليالي تلقاه في موضع مسجد الإجابة في المعابدة وتبيت معه هناك ثم يعود إلى الغار للتعبد، وتعود هى إلى بيتها . . وفي كل الأحوال كانت تحرص على راحته، وتطمئن على سلامته، وتعمل كل ما في وسعها لسعادته .

وما أن وافق أبو طالب على أن يكون علي رضي الله عنه في كنف سيدنا محمد . . يرعاه ويربيه، حتى قامت برعايته، وفرحت بمقدمه . . وأعطته من حنان الأمومة ما جعله يشعر بالحب الكبير لها ولرسول الله ﷺ . . ونشأ في ذلك البيت الطيب الطاهر .

هي امرأة فاضلة كريمة حنون . . حنت ورقت لمرضعة رسول الله ﷺ حين جاءت تسأل عنه فزارته في منزل السيدة خديجة التي فرحت بها وأكرمتها . . أكرمت وفادتها، وأعطتها من المال ما يساعدها على حياتها في الباديه، فقدمت لها قطيعاً من الغنم وبعض الإبل هدية لها .

ولهذا فقد كان يوم وفاتها يوم حزن . . وألم وسمي ذلك العام بعام الحزن . . فقد توفيت فيه الزوج الطاهرة الصديقة الأولى . . وتوفي فيه أبو طالب عم رسول الله ﷺ الذي وقف معه يؤازره ويعضده . . ويحميه

ويمنعه ولهذا ما نالت قريش من رسول الله ﷺ إلا بعد وفاة عمه أبي طالب . .

ولا شعر بالوحدة . . إلا بعد وفاة الحبيبة خديجة . . فخلّف غيابها حزناً وألماً فقد كانت الزوجة . . والرفيقة . . والعضد . . والسند . . والأم . . رضي الله عنها وأرضاها .

لماذا السيدة خديجـة؟

سؤال يتردد في الأذهان عبر الزمان!! لماذا كانت خديجة هي الزوجة الأولى؟.. والجواب في رأيي هو أن هذه سيدة اختارها الله لسيدنا محمد في مرحلة دقيقة.. اختارها الله سبحانه على علم وهو العليم الحكيم، لتكون بجواره ﷺ في مرحلة مهمة من حياته.. وحياة الرسالة، فكانت الأمينة.. وكانت الرزينة.. وكانت الصِّدِّيقة والصَّدِيقة والصادقة.. إنها سيدتنا خديجة الطاهرة أم المؤمنين وأول المؤمنين رضي الله عنها وأرضاها. لا تسبقه ولكنها من حوله كالهالة حين ترنو إلى البدر، إنها أولى نساء النبي اللواتي منحهن الوحي وسام التميز والفخار: ﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسۡتُنَّ كَأَحَدٖ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ﴾. وسجل الحديث عن المصطفى خطابه لأكثرهن عنده بعدها قرباً ودلالاً ـ وهي أمنا عائشة رضي الله عنها، ولكنه قال عن حبيبته ووزيرته الأولى خديجة الكبرى: «ما أبدلني الله بها خيراً منها، صدَّقتني إذ كذَّبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد إذ لم يرزقني من غيرها»[1]. فشهد لها حتى على نسائه جميعاً بالخيرية المطلقة، وأكمل القرآن دائرة الكمال، التي تضم كل الآل، حيث يقول ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾[2] وكيف لايثب إلى الذهن أول ما يتأمل، هذا البيت الكريم الذى عماده خاتم النبيين، وحرمه سيدة نساء أهل الجنة، وسراجه الزهراء البتول،

---

(١) المعجم الكبير للطبراني.

(٢) سورة الأحزاب ـ الآية: ٣٣

سيدة نساء العالمين، بضعة الرسول فلذة كبده زوجها أبو عترته، وحامل لوائه، علي بن أبي طالب، وريحانتاه سيدا شباب أهل الجنة الحسن والحسين، ودرتاه عقيلتا بيت النبوة، زينب الطاهرة، وأم كلثوم الفاخرة وصنوهما رقية الصابرة المهاجرة، ذرية بعضها من بعض والله سميع عليم.

أما لماذا السيدة خديجة؟ فقد كشفت عنه في حياتها الأقدار فيما شهدت به الأحداث، وفسرته الإرهاصات، ونطق به الوحي على لسان الصادق المصدوق الذي لا ينطق عن الهوى. فهي الصحابية الأولى قبل كل الصحابة ـ والنبي الكريم ﷺ ـ قال في شأن الصحابة «إن الله اختار لي أصحابي» وهي رضي الله عنها بدون ريب أول هؤلاء اختيارا من الله، وأولهم إيمانا وأولهم بذلاً، وأولهم نصراً، وأولهم جهاداً، وأولهم حباً لله ورسوله، وكل أيامها، وأحوالها، وخطراتها، وسعيها منذ عرف في مكة الصادق الأمين قبل الرسالة ـ ﷺ ـ وحتى وفاتها صفحات مشرقة، ولهذا كانت خديجة، وكانت لها كل تلك المكانة باختيار الله عز وجل لتكون بجوار حبيبه تعضده وتقف معه.

والصحائف التالية التي سنعطرها بما ييسره الله لنا في شأن درة نساء الوجود هذه إنما هي عرض بالوقائع والتحليلات والأحداث للإجابة على هذا السؤال من جانبه العام.

نحن نؤمن إيمانا مطلقا لا يعرض له شك، أن كل شيء في هذا الوجود إنما يجري بإرادة الله وتدبيره، وقدره وعلى مقادير معلومة قبل وجوده، مرتبة قبل ظهوره، محددة المقدار والخصائص، والهدف والنتائج لأنها من تقدير العزيز العليم.

نعم.. ليس هناك احتمال للمصادفةفيما يقع، ولا للعشوائية فيما يجري.

فإذا تساءلنا عن ظهور هذه السيدة الجليلة فى حياة هذا الإنسان الكامل وفي هذا الظرف المحدد من عمرها، وما مر بها من شؤون وأحداث، وما عرف به رسول الله ﷺ من تطلعه إلى الحقيقة ـ وتعطشه إلى الهدى، وموقفه من ثوابت عصره، وسلوكيات بيئته في جدها وهزلها، وعلمها وجهلها، وحربها وسلمها.. لو تساءلنا عن ذلك كله بعد أن أصبح تاريخاً مدوناً، وواقعاً مدهشاً، وحديثاً معجباً، يشغل الناس منذ أربعة عشر قرناً. فسنجد استحالة مطلقة أن يحل محل هذين الانسانين العظيمين ـ محمدبن عبدالله الصادق الأمين وخديجةبنت خويلد الكاملة الطاهرة ـ أى رجل وامرأة ممن سبقهما فى الوجود، أو عاصرهما في الحياة، أو جاءت به القرون من بعدهما. وهذا ليس قولاً متزيداً، ولا تجاوزا للحقيقة، وإنما ينطق به الواقع المشهود، والنظر الوئيد. وهو قدر الله وتقديره سبحانه.

وسيدة النساء خديجة نشأت في بيئة مكة الحرام، التي تدور معاني السيادة فيها حول قيم تكاد ترتبط كلها بمعنى القداسة الموروثة لبيت الله الحرام، والبلد الحرام، والأشهر الحرم، فسدانة البيت العتيق شرف يتباهى به القائمون عليه، ويتوارثونه كابراً عن كابر، ويقاتل من أجله قصي بن كلاب الجد الرابع لخديجة، ولمحمد بن عبد الله.

والرفادة والسقاية وغيرها تقوم بها بيوت تراها عماد مجدها، وآية شرفها. ورعاية قداسة المكان والزمان أمر تلتزم به كل بطون مكة، وأخلاق البداوة الفطرية من شجاعة وكرم، وحماية الجار، وإغاثة المستجير، وإباء الضيم، لم يطفئها استقرار المدنية، ولا ترف التحضر.

وقد يقول قائل: هذه أمور يشارك خديجة فيها كثيرات ممن عاصرنها من نساء مكة ولكنا نقول: إن الذروة في كل شيء لاتتاح إلا لآحاد، وإن المواريث والاستعداد الفطرى لا يتساويان أبدا فى سكان البيئة الواحدة ويعرف ذلك، بالسلوك الفردى والاختيار الشخصي بين المتاحات المتماثلة والمتباينة. فيتميز بهذا شخص عن آخر.

ومن ينظر بعمق في حياة هذه السيدة ويلاحظ ما أكرمها الله به من نور وبصر وبصيرة، وما أحاطها به من رؤى، وما ألهمها من تدبر وتفكر، وتريث حماها من الاندفاع في المستنقعات الوثنية وعبادة الأصنام، فتأففت، وترفعت، ونفرت منها. وعندما جاءتها تلك الرؤيا العظيمة وأحست بذلك النور في هذه الرؤيا يهبط في دارها ويغمر كل شيء، ويبهر الأبصار، هبت خديجة من نومها وهي تعيش هذا الحلم، الذي ملأ عليها حياتها، ونور ليلتها فما أن استيقظت حتى حرصت على أن تستعيد تلك الرؤيا بين رهبة وأمل، وأخذت تتساءل عن هذه الشمس التي رأتها تهبط في دارها، وتضيء لها الدنيا حتى أصبح البيت كله نوراً وهرعت إلى ورقة بن نوفل كعادتها دائماً ورآها متلهفة وأخذ يسألها عن سبب مجيئها، فروت له تلك الرؤيا تماماً كما شاهدتها، وإذا بوجهه يتهلل وتبدو السعادة على ملامحه. ويبشرها كعادته: البشرى البشرى يابنة العم فإن هذه الرؤيا إنما تعني أن الله سيكرمك بنور يدخل إلى منزلك وأحسب والله أعلم أنه نور النبوة[1].

الله أكبر يا خديجة هذه بشرى عظيمة!!

وخرجت شاردةً بذهنها بعيداً بعيداً، تتخيل هذا النور وتسترجع كل ما كانت تفكر فيه، وتحس به في نفسها ووجدانها وأخذت تسأل ورقة،

---

(١) كما جاء في كتب السيرة، وكما جاء في كتاب «السيدة خديجة» لحسن الملطاوي ص٤٤

ماذا تعني بنور النبوة فقال لها: إنه نور من نور الله، ورسالته إلى الأرض، وأحسب أنه نور خاتم النبيين ياخديجة.

وهكذا عاشت خديجة على هذا الأمل، تسترجع هذا الحلم العذب، وتتمنى أن تتحقق الرؤيا.. ولهذا فقد راحت تتفرس وتدقق في كل من يتقدم لها، وتقيسه بمقياس ذلك الحلم وذلك النور الذي هبط في بيتها، فردت الكثير ممن تقدموا لخطبتها، وظلت تنتظر أمر الله، وفتح الله، وكرم الله، ليحقق لها ذلك الحلم.

وجلست في يوم مع نساء قريش عند الحرم، وطافت بالبيت العتيق، وراحت تدعو الله أن يحقق حلمها، وعادت إلى النساء تجلس معهن يتجاذبن أطراف الحديث. وهنا جاء صوت يجلجل بجوارهن من حبر من أحبار اليهود وقف بجوار النسوة وأخذ ينادي: يا معشر نساء قريش.. يا معشر نساء قريش!! فالتفتت النسوة، وأخذن يصغين السمع فقال: يا معشر نساء قريش إنه يوشك أن يظهر نبي فأيتكن استطاعت أن تكون فراشاً له فلتفعل!! فضحكت النسوة وحسبن اليهودي يهرف بما لا يعرف، ورمينه بالحصباء، واستهزأ به جمع آخر منهن، وقبحه بعضهن وأغلظن له القول، كل هذا وخديجة بنت خويلد صامتة تنظر بعمق، وتفكر في مقولة اليهودي الذي هيج ما بنفسها من مشاعر، وأعاد إليها ذكرياتها وتذكرت الحلم، وتذكرت الحديث مع ابن عمها ورقة حول النبي القادم، وحول خاتم الأنبياء، وأحست أن هذا اليهودي لا يهرف بما لا يعرف وليس برجل مجنون بل إنه يعي ما يقول[1].

لقد تذكرت حلمها يوم أن رأت الشمس تهبط في سماء مكة لتستقر

---

(١) كما جاء في كتب السيرة.

في منزلها، وأدركت أهمية هذه الرؤيا، وأنها رؤية صادقة وأنها رمز لأحداث قادمة، فتذكرت بشارات ابن عمها ورقة بن نوفل، وما ذكر لها مما جاء في التوراة والإنجيل، وأحست أن هناك أمراً يعلمه الله قادم لا محالة وأن لها نصيباً في هذا النور القادم[1] وتذكرت ترددها على ابن عمها ورقة تأخذ عنه علمه، وتسأله عن خواطرها ورؤاها، وهو الهاجر للاوثان، الباحث فى الأديان مع رفقة له، يسعون فى ذلك سعيهم، ويرتحلون من أجل ذلك إلى مشارق الأرض ومغاربها، يطلبون الدين، ويبحثون عن سمات النبي المنتظر، وزمانه، ومكان خروجه، وترتحل معهم خديجة بروحها، ووعيها، وتطلعها وتساؤلها، وجمعها لحصاد بلغوه من سمات وأخبار.

تفعل هذا ولا حاجة لمثيلاتها إليه، وهي الشريفة فلا تسعى بهذا إلى شرف، وهي الثرية فلا تطلب بهذا مالا ولا ثراء، وهي المرغوبة المطلوبة، فلا ترجو بهذا التعرض للأنظار، ولا استرعاء الانتباه.

وإذا هي سيدة أكرمها الله.. وكرمها.. واختارها لتكون بجوار سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام في تلك المرحلة الحاسمة من حياته.. إنها اختيار الله.. هو أدبها.. وفضلها.. وأكرمها بهذا الفضل.. فكانت. زوج خاتم النبيين، وأم المؤمنين، وأم الذرية الطاهرين..

وأول من وقف معه..

وأول من صدقه..

وأول من تزوجه..

---

(١) انظر كتاب رجال مبشرون بالجنة ترجمة سيدنا مالك بن سنان (رضي الله عنه) وكتاب أهل البيت تأليف الأستاذ أحمد خليل جمعة، نشر اليمامة للطبع والنشر والتوزيع دمشق.

وأول من شهد له . .

ولهذا كانت خديجة . . ولم يكن أحد غيرها ! !

نسب السيدة الطاهرة خديجة

لقد اختار الله سبحانه السيدة الكريمة لتكون زوجة لأعظم البشر سيدنا محمد ﷺ، وقد اختار لها الآباء والأمهات من أكرم العناصر، واختار لها البيئة التي نمت فيها وترعرعت.. فهي عطاء وراثة وبيئة، كريمة وأصل عريق وحسب ونسب كريم، اختارها الله وهيأها له، ورفدتها العوامل التي تركت طابعها المميز في كل ما أحاط بها من ظروف الزمان على امتداده، والمكان على تنوعه واتساعه.

ولا شك أن العرب هم أشد الناس عناية بالأنساب، وأكثر الناس حرصا على حفظها وتذاكرها، اعتزازا بالأصالة، ومباهاة بالخؤولة، ثم العناية الفائقة بنسب الأمهات مهما ترتفع الأصول وتبتعد.. وكان النسب عندهم علما يعنى به الحفاظ، وكان من أشهر علماء الأنساب في عصر الرسالة في مكة أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وجبير بن مطعم بن عدي، ولو كان التدوين فاشيا قبل الإسلام لقرأنا من مآثر القوم وقصصهم ما يملأ مجلدات يزهو بها التاريخ، لكن عصر التدوين تأخر، وبقي علم الرواية فأثبت لنا ما رواه لنا عن الحفاظ الثقات من نسب صحيح.. وأشار الى الأنساب التي فيها شك أو ارتياب.. وبما أن قريشا أشرف القبائل العربية فنسبها محفوظ بشكل دقيق لا نظير له.

وقد روي أن رسول الله ﷺ كان ينتسب الى عدنان، ويتوقف عنده ويقول عما بعد عدنان: «كذب النسابون»[1].

---

(١) رواه ابن سعد في الطبقات عن ابن عباس

ويروى في هذا الصدد حديث لا ترفعوني فوق عدنان أو لا تجاوزوا معد بن عدنان . . وقرىء وقروناً بين ذلك كثيراً .

وإذا نظرنا إلى الشجرة الزكية التي كانت السيدة الطاهرة فرعاً منها، وجدناها تضم الخيار ممن عرفوا بكرم المنبت، ونقاء السيرة والسريرة، فسلسلة نسبها كما ذكرته كل المصادر: خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي بن كلاب . .

إذن تلتقي هذه السيدة العظيمة مع رسول الله ﷺ في جدهما قصي ابن كلاب .

وقصي يعد من أعظم قادة مكة على مر عصورها قبل الإسلام .

لقد توفي أبوه (كلاب بن مرة) وتركه فطيما مع أخيه زهرة بن كلاب، وتزوجت أمهما (فاطمة بنت سعد الأزدية) من ربيعة بن حرام العذري، فاحتملها إلى بلاده، وأخذت معها (قصيا) وبقي زهرة في مكة، لأنه بلغ مبلغ الرجال حين وفاة أبيه .

وشب قصي في (بني عذرة) غريباً لا يعرف إلا أنه ابن (ربيعة) زوج أمه، حتى استب مع رجل من قضاعة فعيره بأنه ملصق فيهم، وليس من صميمهم، ودخل قصي على أمه يستطلعها الخبر فقالت له: صدق، إنك لست منهم ولكن رهطك خير من رهطه، وآباؤك أشرف من آبائه، وأنت قرشي، وأخوك زهرة، وبنو عمك بمكة، وهم جيران بيت الله الحرام .

وعاد إلى مكة رجلاً ذا همة عالية، فوجد قبيلتي خزاعة وبكر تليان أمر البيت، وكانت خدمة الكعبة وولاية شئونها ولازالت شرفا يتنافس فيه المتنافسون . ورأى قصي أنه أولى بالكعبة ورعايتها من خزاعة وبكر لأنه قرشي، وقريش سليل إسماعيل وصريح ولده .

ونشبت حرب شديدة بين قريش وحلفائها بقيادة قصي من جهة، وبين خزاعة وبكر من جهة أخرى، ثم لجأوا الى الصلح والتحكيم، وحكّموا «يعمر بن عوف» فقضى أن قصياً أولى بالكعبة وأمر مكة من خزاعة.

وبدأت قريش بل مكة كلها بقصي عهداً جديداً، تضاءلت معه أمجاد خزاعة وجرهم.

وأحدث قصي وظائف دينية إضافة إلى ما كان من قبل، وجمع بيده الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، وأسس دار الندوة، وجعل بابها إلى الكعبة، وفيها كانت تجتمع قريش وتقضي أمورها وتتشاور.. وكان اللواء يعقد في هذه الدار، وكانت لا تزف عروس إلا فيها، وكذلك تدريع الصبية الصغيرة، وهي سن تستحق فيها أن تلبس لباساً يسمى الدرع، وسموه مجمعا لأنه جمع أمور قريش، ودانت له مكة وأيدته قريش بقوة، واعترفت به سيدا لا ينافس، وبعد وفاته قسمت تلك الوظائف الدينية بين أولاده، وظلت إلى ظهور الإسلام.

أما أبوها ـ رضي الله عنها ـ خويلد بن أسد، فهو في الذروة من قريش نسبا وشرفا ومكانة، سريا من سراتهم، وسيدا من ساداتهم، مقدماً فيهم لشرفه وسنه ومواقفه، ومما يذكر له انه واجه آخر التبابعة ملوك اليمن، وحال بينه وبين ما أراده من أخذ الحجر الأسود معه الى اليمن. وهو من أقران عبد المطلب جد الرسول ﷺ، ويذكر المؤرخون أنه كان ضمن الوفد الذي ذهب بقيادة عبد المطلب الى اليمن لتهنئة سيف بن ذي يزن، لانتصاره على الحبشة وطردهم من بلاده.

وأم السيدة خديجة هي فاطمة بنت زائدة، وينتهي نسبها إلى عامر بن لؤي، وجدتها هي هالة بنت عبد مناف الذي يصل إلى لؤي بن غالب، فكلا أبويها من أعرق البيوت في قريش نسبا وأعلاهم حسباً.

وهي تلتقي مع النبي ﷺ في الجد الثالث عبد مناف. فهي كما قال الحافظ ابن حجر: من أقرب نسائه ﷺ في النسب، ولم يتزوج غيرها من ذرية قصي إلا أم حبيبة.

وعمها: عمرو بن أسد، كان بعد وفاة أبيها يوم الفجار زعيم قومه ومقدمهم.

وأختها: هالة بنت خويلد. زوجها الربيع بن عبد العزى بن عبد شمس بن عبد مناف.

وابن أختها: أبو العاص بن الربيع، الذي تزوج ابنتها زينب بنت رسول الله ﷺ، والذي كان يلقب بالأمين، وقد اختلفوا في اسمه فقيل لقيط، وقيل الزبير، وقيل غير ذلك، وكان من رجال مكة المعدودين.

وابن اخيها: حكيم بن حزام بن خويلد، وأمه صفية، وقيل فاختة، وقيل زينب بنت زهير بن الحارث بن أسد بن عبد العزى. قتل أبوه حزام يوم الفجار مع جده خويلد، ويقال عنه انه ولد في جوف الكعبة. كان من سادات قريش، وصديقاً للنبي ﷺ قبل المبعث، وكان عالماً بالأنساب والأخبار، عاقلاً سرياً فاضلاً نقياً، ثم أسلم ونال شرف الصحبة والرواية عن النبي ﷺ وحصل على الرفادة، ومن المعلوم أن حكيم بن حزام الأسدي قد أخذ هذه الرفادة بواسطة قصي عندما رأى قصي أن عبد الدار وهو أكبر أبنائه غير مؤهل وهمته دون همم إخوته ورأى فيه ضعفاً أكرمه فقلد حزام المكرمات الخمس وهي الحجابة والسقاية والرفادة واللواء والندوة ليبلغ بها، وثبت أخوته ولكن عندما سادت بنو عبد مناف أرادوا أخذ هذه المكرمات من بني عبد الدار قهراً وحالفهم على ذلك أربعة بطون من قريش هم: تيم، زهرة، بنو أسد، بنو الحارث، ويعرفون بالمطيبين، وحالف بنو عبد الدار بطون مماثلة

هم: هصيص، مخزوم، بنو عدي، وبنو عامر بن لؤي، وأما حكيم بن حزام فقد آلت إليه دار الندوة بالشراء من بني عبد الدار، وباعها على معاوية.[(1)] ويكفيه شرفاً أن الرسول ﷺ قال له «أسلمت على ما أسلفت من خير».

وابن عمها: ورقة بن نوفل، بن أسد بن عبد العزى بن قصي، وكان قد كره عبادة الأوثان، وطلب الدين في الآفاق، وقرأ الكتب، وكانت خديجة رضي الله عنها تسأله عن أمر النبي ﷺ، فيقول لها: ما أراه إلا نبي هذه الأمة الذي بشر به موسى وعيسى، ويحكى أنه قال في ذلك شعراً منه:

هذي خديجة تأتيني لأخبرها ... وما لنا بخفي الغيب من خبر
بأن أحمد يأتيه فيخبره ... جبريل أنك مبعوث إلى البشر
فقلت علَّ الذي ترجين ينجزه ... له الإله فرجّي الخير و انتظري

وأخرج ابن عدي في الكامل من طريق إسماعيل بن مجالد عن أبيه عن الشعبي عن جابر عن النبي ﷺ: رأيت ورقة في بطنان الجنة عليه السندس.

وابن أخيها: الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي. حواري رسول الله ﷺ، وأمه عمة النبي ﷺ، صفية بنت عبد المطلب، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، وأحد الستة أصحاب

---

(1) «انظر تحفة الألباب في شرح الأنساب ص:٧٦-١/٧٩». وسمي قصياً لأن أمه تزوجت بعد أبيه فسافر بها إلى بلاده وابنها صغير، فسمي قصياً لذلك، ثم عاد إلى مكة وهو كبير ولمَّ شعث قريش وجمعها من متفرقات البلاد، وأزاح يد خزاعة عن البيت وأجلاهم عن مكة ورجع الحق إلى نصابه، وصار رئيس قريش على الإطلاق وكانت له الرفادة والسقاية وهو سنها والسدانة والحجابة واللواء وداره دار الندوة. من كتاب «محمد رسول الله» للشيخ أسعد صاغرجي، ص ١٠٨.

الشورى في وصية عمر، أسلم وله اثنتا عشرة سنة، هاجر الهجرتين، وهو أول رجل سل سيفه في سبيل الله[1]، وكان يوم بدر معتجراً بعمامة صفراء[2]، فقال النبي ﷺ: إن الملائكة نزلت على سيماء الزبير، وفيه قال النبي يوم بني قريظة، «إن لكل نبي حوارياً وإنّ حواريّ الزبير»[3].

هذه خديجة بنت خويلد.. وهذا نسبها الطاهر الكريم.. وأصلها الأصيل.. وقد التقت برسول الله ﷺ في أكرم عصب.. وأجل نسب.. فكانوا ذرية بعضها من بعض.. فكانوا فروعاً طاهرة لشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء.. رضي الله عنهم جميعاً.

---

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» ٣:٣٦٠-٣٦١ وسكت الحاكم هو والذهبي، وفي إسناده ابن لهيعة، وعزاه الحافظ في «الإصابة» إلى الزبير بن بكار.

(٢) رواه ابن سعد ٣:١٠٣ بإسناد صحيح.

(٣) رواه البخاري من حديث جابر (٣٧١٩)، وابن سعد ١:١٠٥ من حديث عليّ.

مسكن السيدة خديجة رضي الله عنها

كانت دار أسد بن عبد العزى جد خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ مواجهة للكعبة من شقها الغربي، بينها وبين الكعبة تسعة أذرع، فكان ظل الكعبة يقع على دار أسد بن عبد العزى في الصباح، وظل دار أسد يقع على الكعبة في العشي حتى إن دار أسد هذه تسمى «رضيعة الكعبة» لشدة قربها منها، وكانت الشجرة التي في فنائها تمتد أغصانها ناحية الكعبة فتتعلّق بها بعض أثواب الطائفين حول الكعبة، فقطعها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وفداها ببقرة.

وقد رأى عمر ـ رضي الله عنه ـ أن هذه الدار قد ضيقت كثيراً على الكعبة، وآذت الطائفين حولها، فهدمها، وأدخل أرضها في المسجد الحرام، وأعطى أهلها مالاً عوضاً عنها، بيد أنهم رفضوا أخذه، ثم أخذوه بعد أن طُعن عمر رضي الله عنه، ومات، وقيل لهم: لمن تتركونه؟

وحين تزوجت خديجة رضي الله عنها قبل الإسلام زواجها الأول قبل رسول الله ﷺ سكنت بفوة أجياد الكبير، أسفل «جبل خليفة» الذي يسميه الناس اليوم «جبل القلعة» في موقع مدخل النفق المواجه لباب الملك عبد العزيز، ولما تزوجها رسول الله ﷺ نقلها الى البيت الذي ابتنى بها فيه، والذي كان قبل ذلك لحكيم بن حزام، فاشتراه منه رسول الله ﷺ. ويقع شرقي المسعى، أمام باب النبي ﷺ الحالي، مع ميل قليل إلى الشمال، وعلى بعد خطوات ليست كثيرة من الباب. وفيه انجبت خديجة رضي الله عنها جميع أولاده ﷺ، وفيه توفيت رضي الله

عنها، ومنه هاجر رسول الله ﷺ، ثم باعه عقيل بن أبي طالب بعد هجرة رسول الله ﷺ. وهذا البيت هو الذي أشرق فيه نور الإسلام، وأضاء الخافقين، وهو البيت الذي شهد انطلاق الرسالة التي حملها محمد ﷺ، وهو البيت الذي تردد فيه جبريل الأمين على طه الأمين، وأوحى إليه فيه بالسبع المثاني والقرآن العظيم[1]. وهو البيت الذي مكث فيه ﷺ ثلاث عشرة سنة يدعو الناس منه إلى التوحيد، وترك عبادة الأوثان، ومن هذا البيت قدَّم رسول الله نفسه لقريش وللناس، أنه مرسل من رب العالمين، ومنه استنهض رسول الله ﷺ لتبليغ الرسالة لقريش وللناس كافة فنزل عليه فيه ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ..﴾ و ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ ۝ قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا..﴾ وأنزل عليه ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ..﴾ و ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ وقوله تعالى ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ ثم إنه نزل في هذا البيت أكثر من ثلثي سور القرآن الكريم. وخلاصة أقوال العلماء هنا هي أن الذي نزل من القرآن بمكة اثنتان وثمانون سورة والذي نزل بالمدينة المنورة عشرون، وهذا بدون خلاف، وأن الذي اختلف فيه اثنا عشرة سورة[2].

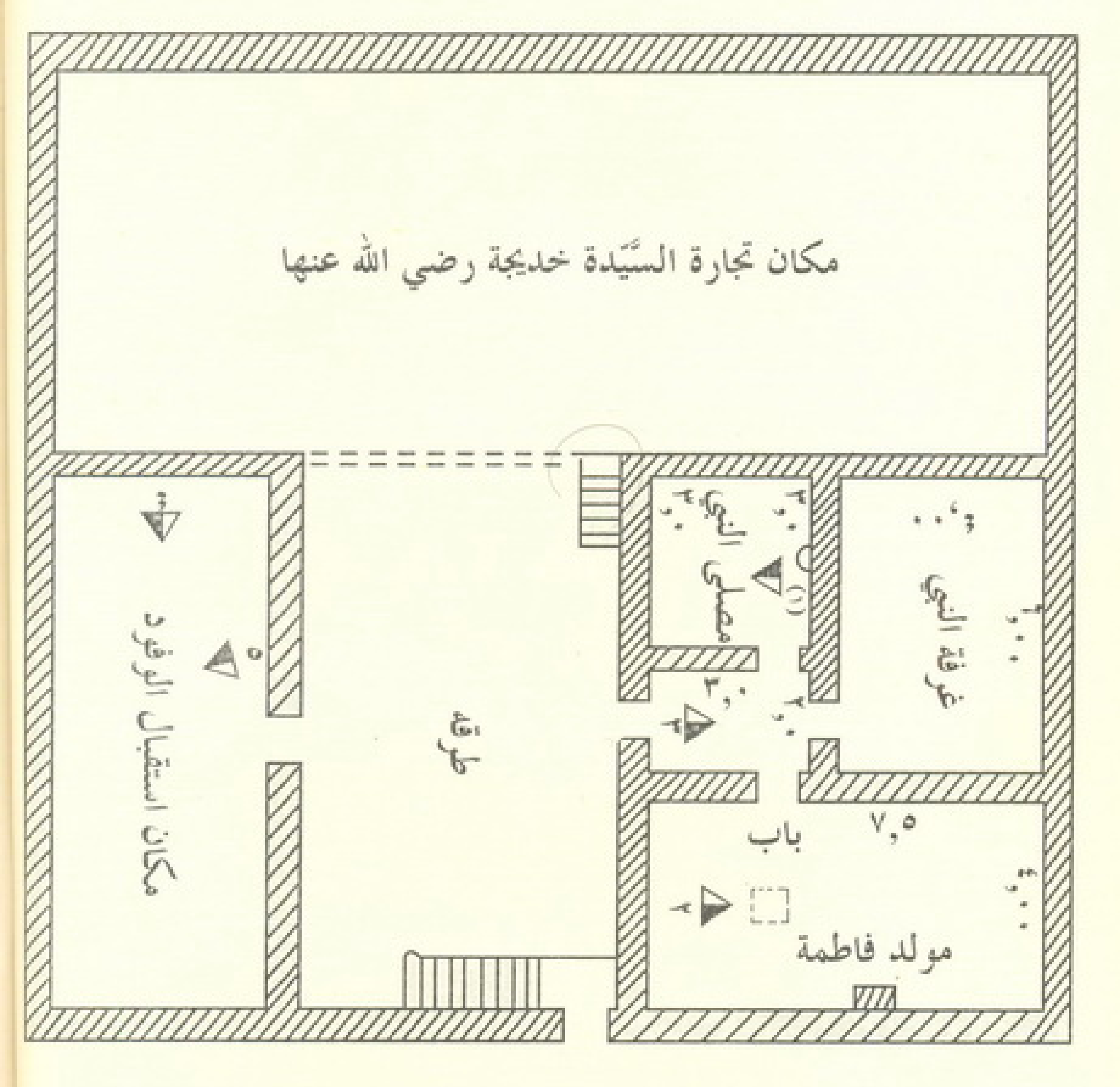
وذكر أهل السير أن كبار كفار قريش مثل: أبي جهل، وأبي سفيان بن حرب، والأخنس بن شريق، كانوا يستمعون خفية حول هذا البيت لقراءة رسول الله ﷺ، طوال الليل حتى الفجر[3].

وقد أهدت خديجة رضي الله عنها بيتها الذي كان لها في أجياد إلى

---

(١) في موكب السيرة النبوية ص: ٢٤ للشنقيطي.
(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم ص: ٢٠٣ لمحمد محمد أبي شهبة.
(٣) السيرة النبوية لابن هشام.

ابنتها من رسول الله ﷺ «زينب» حين تزوجها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى، وفيه ولدت له ابنته أمامة، ومنه هاجر أبو العاص ابن الربيع رضي الله عنه، فأخذه بعد هجرته بنو عمه مع ما أخذوا من رباع المهاجرين.



رسم تقريبي لبيت السيدة خديجة المشهور بمولد السيدة فاطمة (بمكة)

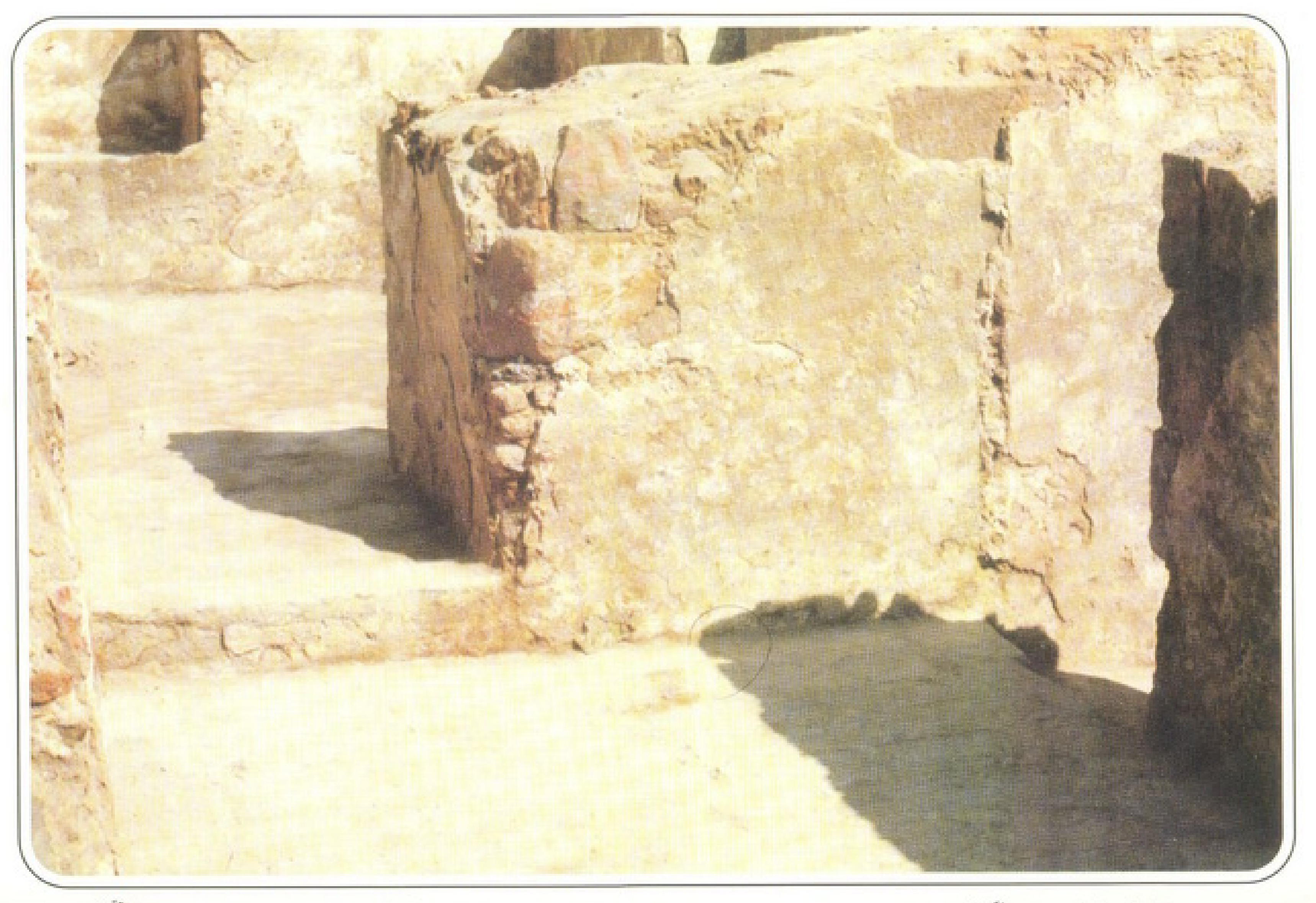
انظر الصورة أسفل الصفحة ٤١ ←

رسم تقريبي للكعبة المشرفة وللدور التي كانت تحيط بها كما وصفت في الكتب القديمة
ومنها دار أسد بن عبد العزى جد السيدة خديجة وهي الدار التي سكنتها قبل زواجها

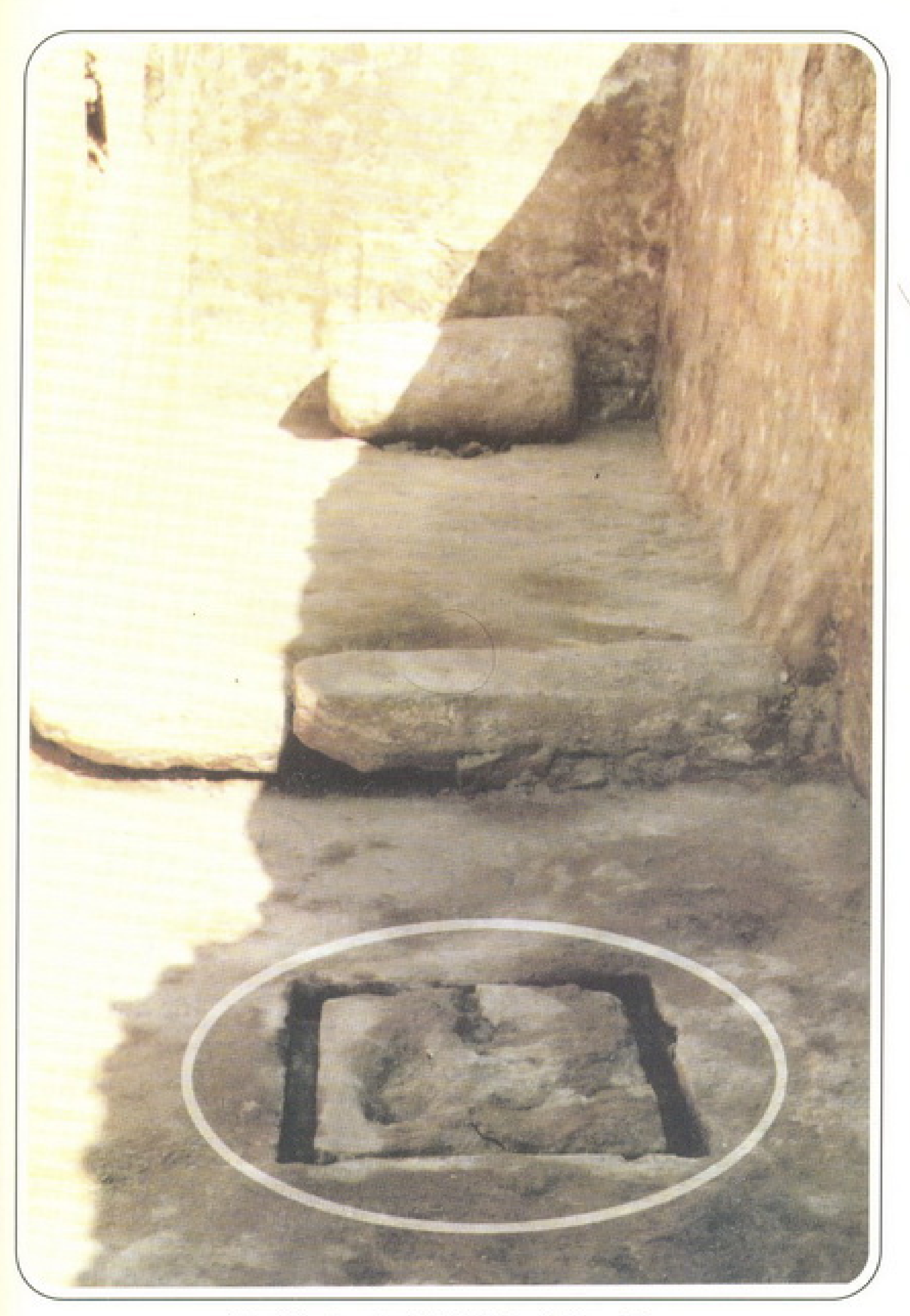
منظر عام لبيت السيدة خديجة رضي الله عنها كما كشفت عنه حفريات التوسعة
وتظهر فيه غرف المنزل وساحاته كما وصفت في الكتب القديمة



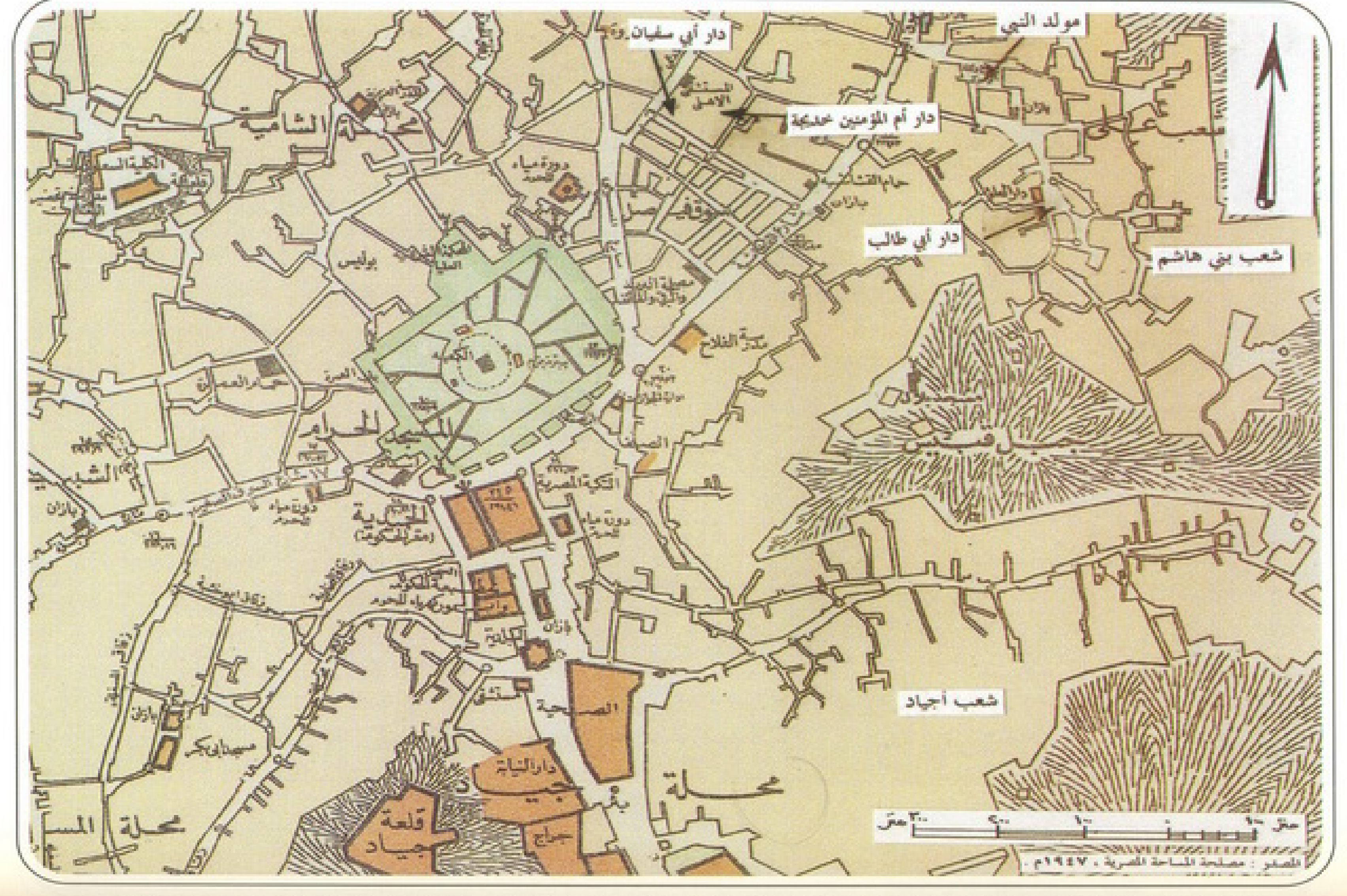
صورة مكبرة للمحراب الموجود بمكان استقبال الوفود في منزل السيدة خديجة وكان يصلي فيه الرسول ﷺ



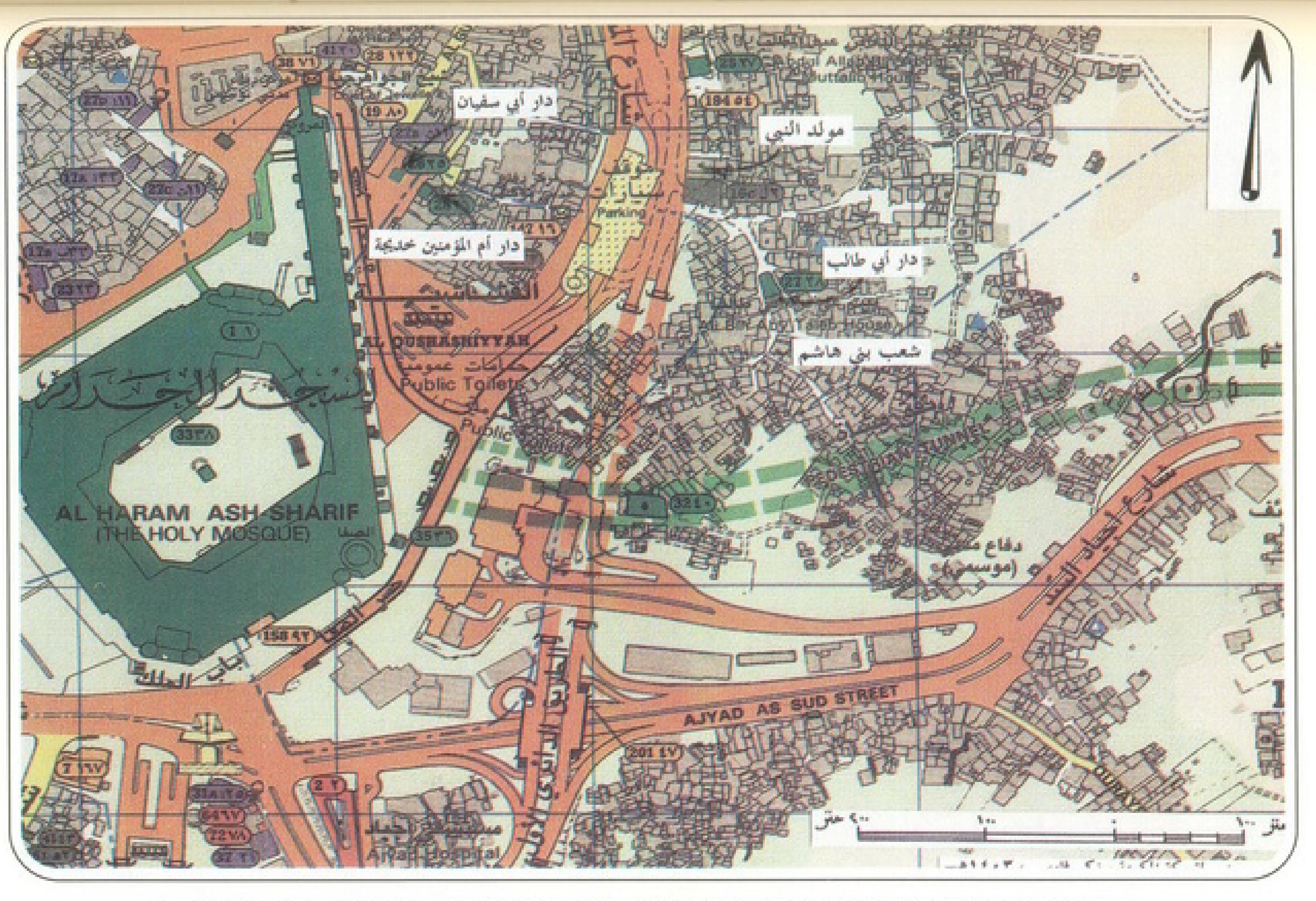
مدخل غرفة الرسول ﷺ في منزل السيدة خديجة رضي الله عنها وقد كانت هذه الغرفة من الأماكن التي يتعبد فيها رسول الله ﷺ



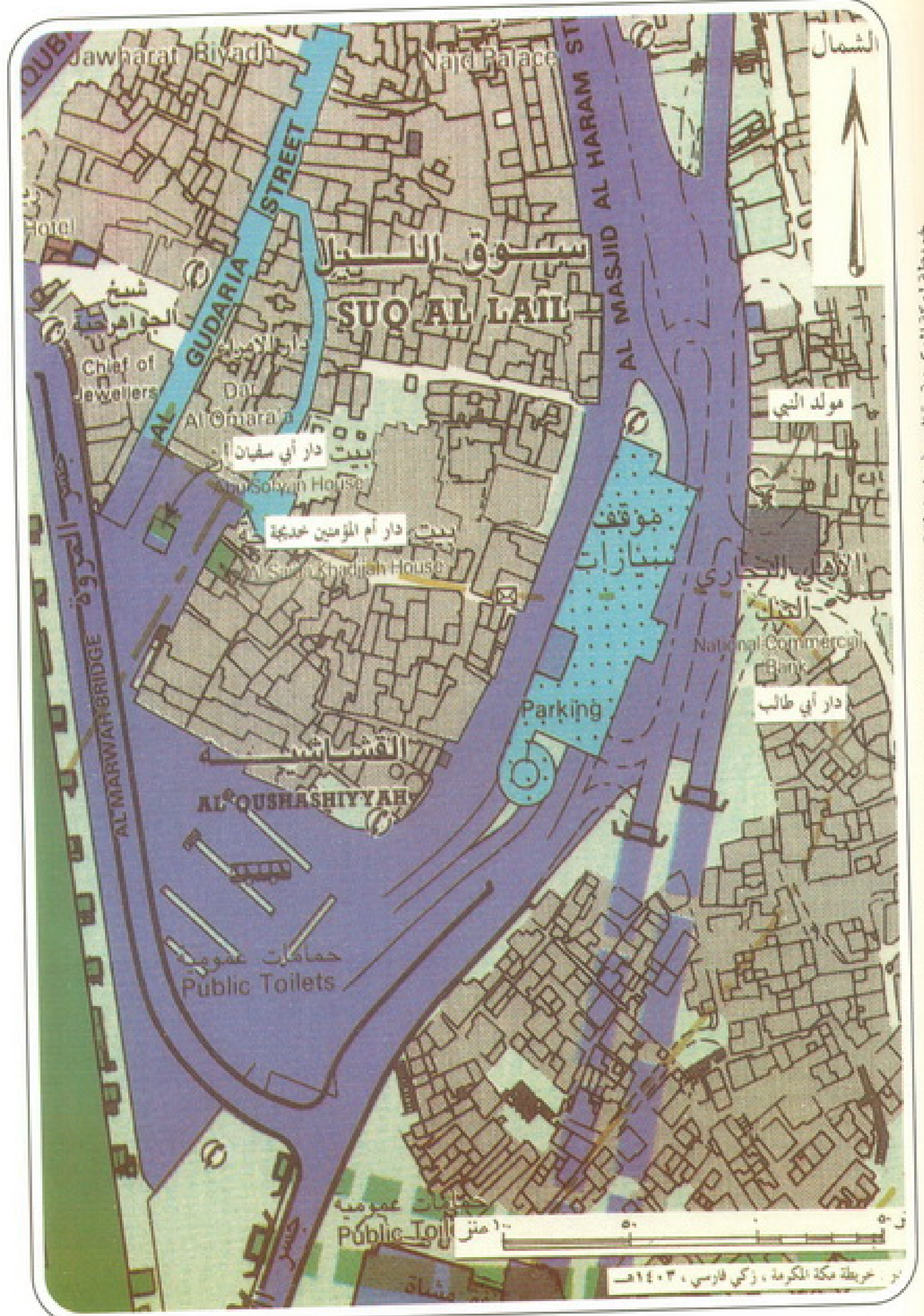
مكان مولد السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها



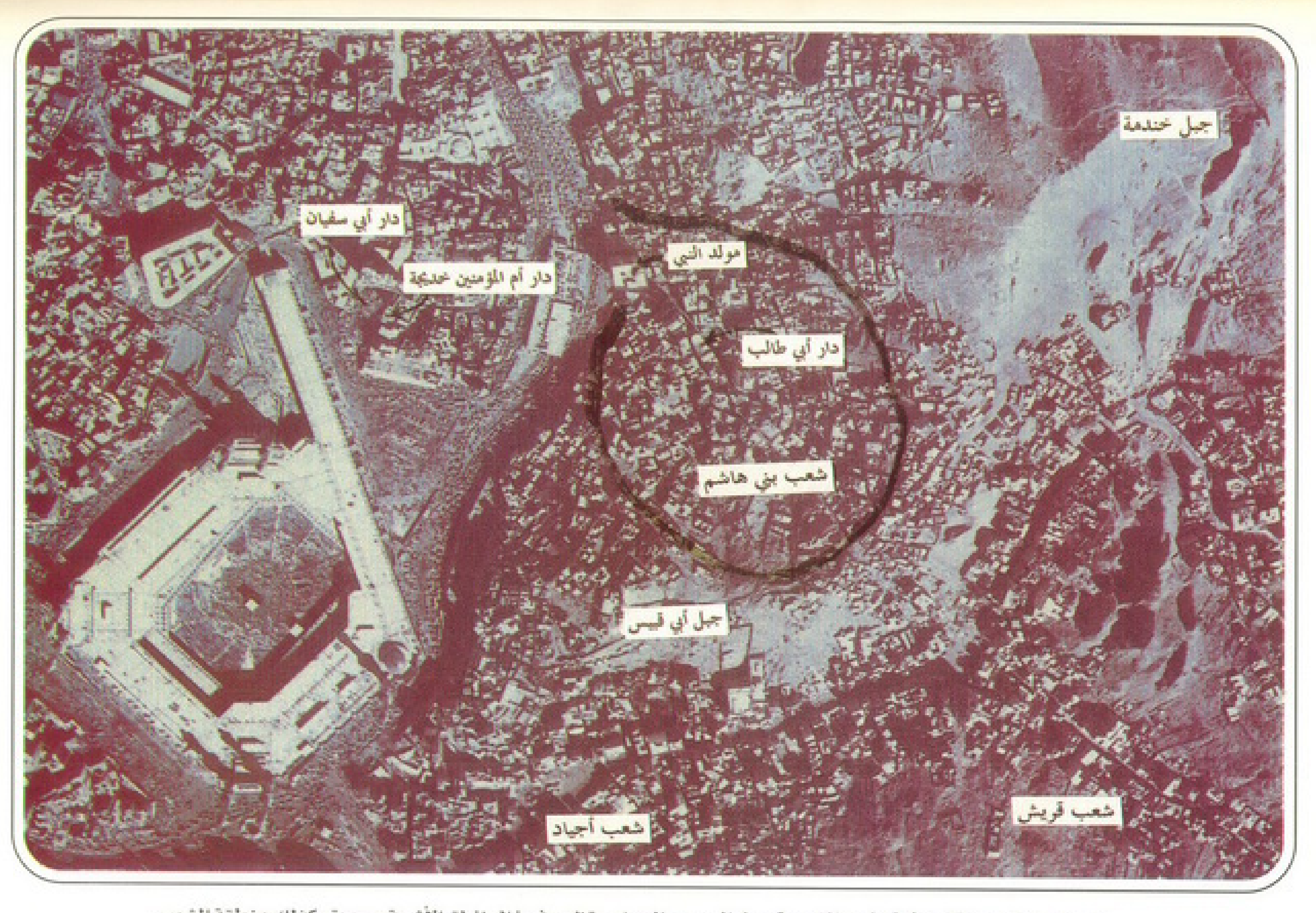
خارطة قديمة لمكة المكرمة وتظهر فيها المواقع حول المسجد الحرام ومنطقة الشعب ودار أبوطالب ودار السيدة خديجة ودارأبوسفيان والمولد النبوي



خريطة لمكة المكرمة وتظهر فيها المواقع التي ذكرناها في الكتاب حول المسجد الحرام ثم ربط ذلك بالشوارع المحيطة بالمسجد



خريطة لمكة المكرمة وتظهر فيها منطقة سوق الليل، والقشاشية وفيها مكان بيت السيدة خديجة أم المؤمنين



صورة جوية حديثة لمنطقة مابعد التوسعة حول المسجد الحرام وتظهر فيها المناطق الأثرية محددة وكذلك منطقة الشعب

السيدة خديجة في الجاهلية

لم تكن السيدة خديجة رضي الله عنها امرأة عادية في الجاهلية . . بل تميزت بأنها ذات جاه ووجاهة، وإيمان فطري . . وسمو نفس، وطهارة سلوك، حتى سميت بالطاهرة . . وعرفت بهذا اللقب قبل الاسلام، فهي امرأة قريبة من مصادر الإيمان . . تشعر في أعماق نفسها بكثير من القلق نحو الوثنية الجاهلية . . ولهذا كانت كثيراً ما تلجأ لورقة بن نوفل حتى قبل زواجها من رسول الله ﷺ، تعرض عليه مناماتها . . وكل ما يمر بها من إحساس أو رؤيا تراها . . أو هاجس تحس به، وهي بالجملة في قلق من جو الجاهلية، وضلالات الوثنيه، وهى ليست بدعاً في سلوكها، وليست الوحيدة التي تحس بهذا الإحساس نحو الوثنيه الجاهلية، والسيدة خديجة أدنى ما تكون من ورقة بن نوفل بن عبد العزى، ودنوها منه كان على نحوين من الدم والود الفكري . . وكان هذا الود، أو القرابة الفكرية، ينتزع إعجابها به انتزاعا، ويحملها على كل لون من ألوان الخلود إليه، في سكينة واطمئنان . . وبلغ ذلك عندها مابلغ حتى غدت أشبه بتلميذة، تسترشده وتستنير برأيه في كل ما يعرض لها، من أمر نفسها، وشئونها.

ولاشك أن حياة السيدة خديجة كان فيها من الفطرية والنقاء ما أسهم في قبولها لدعوة الرسول ﷺ، عندما حدثها بخبر السماء، بل إنها وقفت إلى جانبه وأيدته حتى قبل أن يعرف هو أنه نبي، وكان في خوف وقلق واضطراب.

ومن ينظر بعمق في هذه المسألة ويتأمل في حياة هذه السيدة في

الجاهلية يرى أنها كانت من تلك الطليعة التي كانت تفكر وتتأمل فيما يفعله القوم من حولها، من عبادة للأصنام، وسؤال للأزلام، فكانت تنفر من كل ذلك، ولاتقبله، ولكنها لاتستطيع أن تفصح عن كل ما تحس به، بل كانت تكتفي بالتفكير العميق، وتقترب من كل أولئك الذين ينحون هذا المنحى، وينهجون هذا المنهج، حتى تصل إلى حالة من الرضا والطمأنينة، فكان الناس يرونها كثيرة التردد على ورقة بن نوفل تسترشده، وتستهديه، وتسأله عن أمور تمر بها في أحلامها، وتعكس مايجول في خاطرها من نفور من هذه الأصنام، ولهذا فما أن رأت النور حتى كانت أول المؤمنين به ﷺ، وأول الساعين إليه، وأول المؤيدين له، فقد كان فيه استجابة لكل تلك الرؤى التي كانت تراها، وكان فيه إجابة لكل التساؤلات التي حامت من حولها.

ومن ينظر بعمق في أحلام السيدة خديجة يجد أن الأمور اللافتة في أحلامها مثلاً أنها كانت دائماً بيضاء مشرقة، ومعناه أن نزوعها على رغم ما يصدقه، كان مشفوعاً بالثقة المحض، وترقب الانتصار[١].

والحقيقة أن ورقة بن نوفل نفسه لم يكن الوحيد الذي أنكر تلك الوثنية.. بل هناك جماعات كثيرة كانت تقف في تردد.. وبعضها في خجل.. ومعظمها في شك من تلك الآلهة التي تعبد في الجاهلية، حتى إن بعضهم يضرب رأس الصنم إذا لم تأت الأمور كما يشتهي، وبعضهم يأكل إلهه بعد ما صنعه من تمر، كما فعل عمر بن الخطاب في الجاهلية، وبعضهم يسخر من إلهه عندما يرى الثعالب تبول عليه، وأنشد شعرا في ذلك يقول فيه:

أربٌ يبول الثُّعلبانُ برأسه   لقد ذلَّ من بالت عليه الثعالب

(١) مثلهن الأعلى السيدة خديجة للشيخ عبد الله العلايلي ص:٢٩

ولنقرأ معا هذا النص لابن إسحق كما أورده الشيخ عبد الله العلايلي

حدث ابن إسحق: أن قريشا اجتمعوا في عيد لهم يوماً، عند صنم من أصنامهم، كانوا يعظمونه، وينحرون له، ويعكفون عليه ويطوفون به. وكان ذلك عيداً لهم في كل سنة يوماً، فخلص منهم أربعة نفر نجيا، ثم قال بعضهم لبعض: تصادقوا، وليكتم بعضكم على بعض. قالوا: أجل، وهم: ورقة بن نوفل بن عبد العزى، وعبيد الله بن جحش بن رئاب، وعثمان بن أسد بن عبد العزى، وزيد بن عمرو بن نفيل. فقال بعضهم لبعض:

تعلمون والله، ما قومكم على شيء، لقد أخطأوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به، لا يسمع، ولا يبصر، ولا يضر، ولا ينفع.. يا قوم التمسوا لأنفسكم، فإنكم والله ما أنتم على شيء.

فتفرقوا في البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم.. فأما ورقة بن نوفل، فاستحكم في النصرانية وابتاع الكتب من أهلها، حتى علم علما من أهل الكتاب، وأما عبيد الله بن جحش، فأقام على ما هو عليه من الالتباس حتى أسلم، فلما قدم الحبشة تنصر، وأما عثمان بن الحويرث، فقدم على قيصر ملك الروم فتنصر، وحسنت عنده منزلته.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل، فوقف، فلم يدخل في يهودية ولا نصرانية، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان والميتة والدم والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن قتل المؤودة، وقال أعبد رب إبراهيم، وبادى قومه بعيب ما هم عليه.

وكان يرى مسندا ظهره الى الكعبة وهو يقول: يا معشر قريش، والذي نفس زيد بن عمرو بيده، ما أصبح أحد على دين إبراهيم غيري. ثم يقول:

اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به، ولكني لا أعلمه.. ثم يسجد على راحتيه. وله شعر كثير بهذا المعنى ومنه:

أربا واحدا أم ألف رب ... أدين إذاتقسمت الأمور
عزلت اللات والعزى جميعاً ... كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا عُزى أدين ولا ابنتيها ... ولا صنمي بني عمرو أدور
ولا غنما أدين وكان ربا ... لنا في الدهر إذ حلمي يسير
عجبت، وفي الليالي معجبات ... وفي الأيام، يعرفها البصير

واستمر به شأنه، حتى خرج يطلب دين إبراهيم، ويسأل الرهبان والأحبار، حتى بلغ الموصل والجزيرة كلها، ثم أقبل فجال الشام جميعا، وعلى أنه شام اليهودية والنصراينة، فلم يرض شيئا منهما، فآب يطلب مكة، حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه فقتلوه[1].

ويعلق العلايلي على ما رواه ابن اسحاق فيقول[2]:

هذه الرواية تحمل إلينا الكثير الكثير، وتوقفنا على ما نود أن نقف عليه، وترينا بكل وضوح مكان الريب وحدته من النفس العربية، ومكان الضيق بهذا الريب، ورغبة التحرر منه، على أي شكل.. ولا بأس بأن يكون أي شكل، فهو أرحب وأغنى وأمتع.

ولا تعجل فتظن أن هذا الاستخفاف المرتاب، إنما خالط هذا النفر فحسب، فقد كانوا من مجتمعهم الطليعة، ومن كثرتهم الصفوة المختارة.. أما الجماهير الغفيرة الضخمة، فقد كانت قانعة مغتبطة، يلذ لها ما تمارس من طقوس وتباشر من شعائر، وما تصطنع من عبادات تجد فيها عبادة تأملها.. وما يدرينا، لعلها كانت تجد فيها أكثر

---

(١) راجع ابن هشام في السيرة ١ ص: ٢٤٢،٢٤٨

(٢) العلايلي.

من ذلك، تجد فيها تعبيراً أتم وأوفى.

هذا صحيح، لو كانت الرواية المذكورة هي كل ما لدينا من كوى ونوافذ نطل منها، ونستشفّ من خلالها، ولكن الروايات - وأريناك جانبا منها - كثيرة كثرة مطلقة، وهي كافتها بمكان ذلك الريب المستخف، والجحود المتنكر.

على أن هذه الرواية وإن تك مثالاً خاصاً، فإننا وضعناها موضع البيان والشاهد، لأمر بعينه، لتجيء موضحة مبلغ الارتياب وحدته وشبوبه.

وهي في هذا القصد وافية أكبر إيفاء، ومعلنة أبلغ إعلان، بأنه كان ريباً حاداً، يتميز بالعنف واللوعة، والتساؤل المنطوي على مرارة.. وليس على فجيعة هذه الوثنية في قلوب أبنائها المتحركة فيهم بظفر وناب، من شخص «زيد بن عمرو بن نفيل» ذلك الرجل المأساة، وبعبارة أخرى، ذلك الرجل الذي كان يحمل المأساة في الضمير، يريد لو يتخفف منها على أي نحو.

إنه يحاول أن يهرب ولكن عبثاً يسعى وعبثاً يحاول، فهربه منها هرب من نفسه، وما كان ذلك هيناً يسيراً، وما كان ذلك مستطاعاً سائغاً.. فقد يوسع الخطوة هنا وهناك، ضارباً بين فجاج وسهول، يلتمس يقينه الضائع واطمئنانه الشرود.

إنه ليس بمطيق أن يسكن إلى ما عنده، وهو حين يسكن إليه أو حين يحاول، فإنما يجمع نفسه إلى حيرة بالغة الأسى، لاتفتأ تدور عنده بمثل مس الشوك اللاهب، وتتوهج في خياله «كأطراف الرماح» على حد تعبير والبة بن الحباب في القديم.

وأي طعم هو أكثر مرارة وأنفذ واخزة من قوله:

أرباً واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور

ومن يتتبع نظرة هذه الفئة إلى ماحولها من عبادة للأوثان وتعلق بها، يحس بأن تلك الطليعة من ورقة بن نوفل ومن حوله والسيدة خديجة التي كانت تتردد عليه كانو ينكرون هذه العبادات، ولايرتاحون إليها على أية حال، وينتقدونها، ويغمزون ويلمزون، ويستغربون تعدد الأرباب من ناحية، ويركزون على حيرتهم كيف يصنع الانسان رباً من تمر ثم يأكله! أو يغضب من رب فيحطمه! أو يكسل عن رب فيهجره؟! فكل تلك الأرباب بالنسبة لهم لم تكن مقنعة، بل كانت مقلقة.

هكذا إذاً كان وضع هذا النفر في خضم الجاهليه الوثنيه الطاغية.. وهكذا نحس بأن هذه السيدة الجليلة خديجة كانت على منهج هذا النفر وقريبة.. منه.. وكانت في شك وريب وحيرة وقلق مما حولها ومن حولها من عبادة الأوثان.. حتى شاء الله أن تكون أول من آمن برسالة سيدنا محمدﷺ وبهذا اطمأنت نفسها.. واستقرت وهداها الله عز وجل إلى صراطه المستقيم.

أزواجها وذريتها قبل الرسول ﷺ

ما إن بلغت السيدة الطاهرة سن الزواج حتى كانت محط أنظار الشباب من قريش، ومن يداني خديجة في مكانتها! إنها من أعرق بيوتات قريش نسباً، لقد نشأت في بيت واسع الثراء، إلى جانب ما ورثته من شرف الأصول وطهارة المنبت، وكانت فتاة جميلة، راجحة العقل، كريمة الأصل.

فتزوجها (أبو هالة بن زرارة بن النباش التميمي) وعاشت معه مدة

قصيرة ورزقت منه بولدين: هند وهالة.. ثم توفي تاركا لها ثروة ضخمة.

ثم تزوجت من بعده عتيق بن عائذ المخزومي، ثم توفي عنها بعد أن رزقت منه ببنت اسمها هند كذلك.

وعاشت السيدة خديجة عيشة هنية راضية مع أولادها هند وهالة ابني أبي هالة، وهند بنت عتيق بن عائذ المخزومي.

أما هند بن أبي هالة:

فقد عاش مع أمه خديجة بعد وفاة أبيه، وحينما تزوجت السيدة العظيمة من رسول الله ﷺ لم يفارقها، وتربى في حجر النبي الكريم، وكان يباهي أنه ربيب رسول الله ﷺ، وتأثر بالأخلاق العالية التي أكرم الله بها محمداً ﷺ، وأهل بيته.

وهو الذي نقلت عنه صفات رسول الله ﷺ وهيئته فقد طلب منه ابن اخته الحسن بن علي رضوان الله عليهم أجمعين أن يصف رسول الله ﷺ فوصفه له.

وشارك هند رضي الله عنه في غزوة أحد، وقد روى ابن حجر في الاصابة بسنده أن هنداً قال: قلت: يارسول الله ماحملك على أن نزعت ابنتك عن عتبة بن أبي لهب حتى حرشته عليك؟ فقال ﷺ: «إن الله أبى لي أن أتزوج أو أزوج إلا إلى أهل الجنة» قال أبو عمر: كان هند هذا فصيحاً بليغاً، وصف النبي ﷺ فاحسن واتقن[1].

وقد قتل هند بن السيدة العظيمة في معركة الجمل، وكان في جيش علي بن أبي طالب، رضي الله عن جميع أصحاب رسول الله.

---

(١) الإصابة لابن حجر.

وأما ابنها هالة بن أبي هالة، فتروي بعض المصادر أنه شبّ وترعرع ثم وفد الى المدينة، فاستأذن على رسول الله ﷺ ففرح عند سماع صوته وقال: اللهم هالة، ثم ضمه الى صدره.

ولا يصح هذا الخبر، والصواب أن من استأذن على رسول الله، خالته هالة أخت السيدة خديجة، ففرح الرسول ﷺ لقدومها وعرف في صوتها استئذان خديجة، وقال اللهم هالة[1].

ويبدو أن الذي أورد الخبر الأول خلط بين الشخصين لتشابه الاسمين فساق الخبر على أن الذي وفد واستأذن هو هالة بن أبي هالة.

هند بنت عتيق بن عائذ المخزومي

لقد عاشت هند مع أمها العظيمة خديجة إلى أن بلغت سن الزواج، فتزوجها ابن عمها (صفي بن أميه بن عائذ المخزومي)، فولدت له محمداً، وقد عاش محمد وكانت له ذرية في المدينة المنورة، وكان يطلق على هذه الذرية «بنو الطاهرة» لما كانت تتمتع به جدتهم رضي الله عنها من صفات عظيمة، ولما لها من الأثر الكبير والذكرى العطرة والمكانة العالية في نفوس المسلمين.

الرحلة إلى الشام

كانت خديجة رضي الله عنها ترسل الرجال في تجارتها الى الشام.. والى أماكن أخرى.. وكانت دائما تدقق وتمحص، وتختار حتى تضمن سلامة أموالها.. وعظيم ربحها.. وكانت تسمع عن أمانة سيدنا محمد ﷺ.. ومايقوله الناس عنه.. وما يشهدون له به من أمانة..

---

(١) رواه البخاري.

وصدق . . وعفاف . . ثم تذكرت عندما كانت تجلس مع نساء أهل مكة يوم اجتمعن في عيد لهن في الجاهلية، فتمثل لهن رجل؛ فلما قرب نادى بأعلى صوته: يا نساء مكة؛ إنه سيكون في بلدكن نبي يقال له، أحمد فمن استطاعت منكن أن تكون له زوجاً فلتفعل؛ فحصبنه (أي رمينه بالحجارة) إلا خديجة، فإنها عضت على قوله، ولم تعرض له، وخالف موقفها كل النساء.

ثم هاهي ذي تتسمع لشائعة وبشرى تنطلق هنا وهناك عن نبي آخر الزمان، وأحاديث ابن عمها ورقة وأترابه من الباحثين عن الدين الصحيح، والنبي المنتظر، وتذكرنا تطلع ابنة عمها رقية بنت نوفل الى أن تكون أما لجنين من عبد الله بن عبد المطلب- حين شامت في وجهه علائم توحي بأنه أبو النبي المنتظر، فدعته إلى نفسها علها تكون أم ذلك النبي. ولكن والد الرسول ﷺ رفض طلبها، ولم يقبل عرضها، فقد عرف بنبله وطهارته واستقامته، وهذه الحادثة تؤكد ماعرف عنه من أخلاق كريمة، وما روي عن كعب الأحبار في تنقل رسول الله ﷺ في الاصلاب الطاهرة، وتصادق على ماذكره سيدنا محمد ﷺ عندما قال : «خرجت من نكاح غير سفاح» وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال قال رسول الله ﷺ : «ماولدني من سفاح أهل الجاهلية شيء إلا نكاح كنكاح أهل الإسلام»[1] فالله سبحانه وتعالى قد اختار لسيدنا محمد والده من أسرة كريمة وأصلاب طاهرة نظيفة، وأودعه رحم أم كريمة عرفت بنبلها وطهرها، وهذه من خصائصه ﷺ . كل هذا وغيره جعل خديجة تتبع أخبار فتى بني هاشم، وأمين قريش محمد بن عبد الله - وتختزن في ضميرها كل ما يصل إليها من أنباء عفافه ومروءته وصدقه

---

(١) البيهقي.

وأمانته، وتصونه كما تصونت هي عن أدران الجاهلية وأوثانها، وسيء عاداتها.

فما أن سمعت حث عمه أبي طالب لابن أخيه الأمين أن يعرض على خديجة أن يسافر في مالها إلى الشام، حتى أرسلت هي إليه ـ كما تحكي بعض الروايات ـ أو رحبت بعرضه أو عرض عمه أبي طالب، واعدة أن تعطيه ضعف ما تعطي غيره، وكأنها وجدتها فرصة تربط فيها أسبابها بأسباب محمد الأمين، وكأني بها أرادت أن تجمع الخبرة العملية، إلى الخبر المستفيض عن هذا الفتى الأمل.

يحكي الرواة أن خديجة التي ولدت قبل الهجرة بثمان وستين عاماً، واتصفت بالحزم، والرشد، والعفة، والعقل، حتى دعاها قومها في الجاهلية الطاهرة. وكانت تاجرة ذات مال، تستأجر الرجال في مالها، وتدفع لهم المال مضاربة، فيكون عيرها وحدها كعامة عير قريش، وبلغها عن رسول الله ﷺ ما بلغها من صدقه، وعظم أمانته، وكرم أخلاقه، وقول أبي طالب لابن أخيه ﷺ: أنا رجل لا مال لي، وقد اشتد الزمان علينا، وألحت علينا سنون منكرة، وليس لنا مادة ولا تجارة؛ وهذه خديجة تبعث رجالا من قومك؛ يتجرون في مالها ويصيبون منافع، فلو جئتها لفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك.

وبلغ هذا الحديث مسامع خديجة فأرسلت هي إليه. ومما روى الواقدي وابن سعد وغيرهما أنها أرسلت إليه في ذلك، فكان مما قالته: إنه دعاني إلى البعث إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك، (ذكره ابن اسحق).

وعرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشام تاجراً وتعطيه أفضل مما كانت تعطى غيره من التجار - وفي رواية أن أبا طالب شرط عليها

ضعف ما تعطي غيره، فرحبت سعيدة بذلك.

وقبل رسول الله ﷺ عرضها، وخرج في مالها، الى بصرى بالشام، وأرسلت معه غلامها ميسره، وأوصته أن يقوم على خدمته، وألا يخالف له أمراً، وأن يرصد لها أحواله وقيل: أن أبا طالب ذهب إليها وقال لها: يا خديجة، هل لك أن تستأجري محمداً؛ فقد بلغنا أنك استأجرت غلاماً ببكرين[1]، ولسنا نرضى لمحمد دون أربع أبكار، فقالت: لو سألت ذلك لبعيد بغيض فعلنا، فكيف وقد سألت لحبيب قريب وأيا ما كان، فقد ارتحل هو وميسرة وبلغا بصرى، فباعا بضاعتهما بضعف ما كانت تربح من قبل، واشتريا ما يعودان به بأربع مما كان يشتري من قبل.. وعادا سالمين غانمين.

وتقدم ميسرة عند دخولهما مكة ليكون بشيراً بسلامة العودة، ووفرة الربح، وكانت خديجة مع نساء لها في علية لها تنتظر سماع بشرى ميسرة، وما يعدده مما رأى من عجائب مع الأمين ومن بركة تجلت في يسر الرحلة، ورواج التجارة، وسهولة البيع والشراء، ومضاعفة الربح، وتبدى على البعد محمد الأمين على ناقته ميمماً بيت خديجة، فأشرفت من عليتها، ولما جاء ميسرة حدثها فقال: رأيت الغمامة تظلله في كل هاجرة.. إذا سار سارت معه، وإذا جلس ثبتت فوق رأسه لاتتحرك.

ورأيت شجرة جلس تحتها، فمالت عليه بأغصانها تظلله، وكان مجلسنا قريباً من صومعة راهب (بعض السير تسميه بحيرى، وبعضها تسميه نسطوراً وبمراجعة السيرة وجدنا أن الحقيقة أن الراهب الذي التقى به ميسرة في تجارة خديجة في مسيره مع رسول ﷺ هو نسطور،

---

(١) البَكْر: بفتح الباء الفتي من الإبل، والأنثى منه بَكْرة. «مختار الصحاح».

وليس بحيرى، وإنما بحيرى التقى به في رحلته الأولى[1] مع عمه أبي طالب حينما أخذه معه إلى الشام وعمره إذ ذاك اثنتي عشرة سنة، وهو الذي أشار على عمه بالرجوع به إلى مكة خشية عليه من مكر اليهود) ودعاني الراهب فسألني قائلا : من هذا الذي يجلس تحت الشجرة ؟

فقلت له : إنه محمد بن عبد الله . . فتى من أهل الحرم .

فقال الراهب : إنه والله نبي هذه الأمة، وهذه الشجرة ماجلس تحتها إلا نبي . وأخذ يسأل عن بعض شأنه، فقال له ميسرة، ان رجلاً بايعه -فاستحلفه باللات والعزى- فغضب محمد وقال: ماحلفت بهما قط، وما أبغض شيئا مثلهما، فقبل الرجل الصفقة، وقال لي: هذا والله النبي الذي نترقبه، فاحرص عليه ثم انصرف.[2]

وبين دهشة خديجة وصواحبها من هذا الحديث، وصل محمد الأمين فسلم حيياً، وأدى ما عنده من أموال خديجة، ثم انصرف وخديجة في عجب ودهشة، تدور في نفسها رؤى وخواطر وتساؤلات:

أهو . . هو . . ؟

هل محمد الأمين هو النبي المأمول ؟ والأمل المرتقب ! !

وسارعت فأرسلت اليه ضعف ما شرطت .

وكانت فرصة أن وُفِّقت لاستئجاره وإرساله . . فقد عاد بالربح الوفير . . والخير الكثير . . والخبر المثير . . وكان أمينا في كل شيء . . وعلى كل شيء . . وكانت رحلته إلى الشام بداية حديث في النفس . .

---

(١) ذكره الحافظ ابن حجر في «الإصابة» وعزاه إلى مغازي ابن إسحق، وهو مروي في «طبقات» ابن سعد ١ :١٢١ ورواه مطولاً ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٧٢٤٤) من طبعة دار القبلة. ولقاؤه ﷺ بنسطورا: مروي في «طبقات» ابن سعد أيضاً ١ :١٣٠

(٢) رواها ابن سعد في «الطبقات» ١ :١٣٠

خديجة . . كانت من الحنفاء

عندما ارتبطت السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها برسول الله ﷺ كان المجتمع المكي مجتمعاً تعمه الوثنية الحمقاء التي تقدسها جاهلية الآباء والكبراء من أهل الشرك والضلال والظلم والظلام، ومع ذلك كله فقد ظهر بين الحين والحين من ينأون بأنفسهم الزكية عن تلك المسيرة الهوجاء، فنوّر الله قلوبهم، وساروا بنوره عز وجل نحو إيمان بأن الله واحد أحد، وأنه رب هذا البيت، وأن هذه الأصنام التي يعبدها الناس لا تضر ولا تنفع، ولهذا فقد كانوا مرتبطين بقلوبهم بالله، وعقولهم تبحث جاهدة عن حقيقة هذا الإله وهؤلاء هم الحنفاء الذين ساروا على منهج التوحيد، ومنهم شهداء باعوا أنفسهم لله، ومنهم صدوق صادق يشهد بوحدانية الله، وينظر بنور البصيرة في عالم الملك والملكوت، فهداهم الله إلى ملته الحنيفية البيضاء، على أننا لابد أن نعلم أن الحنيف هو الذي ولد على دين الفطرة ولم تخرجه ملابسات الزمان ولا المكان عن توحيد الله، فالله سبحانه وتعالى يرعى هؤلاء وينير لهم الطريق بنور الحق وهم الحنفاء. وإذا بدأنا بالبداية الأولى فإنها تبدأ بسيدنا إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، هو الذي تحلى بها وتجلى بسرها، فتحدى قومه وكسّر الأصنام، ونصح أباه آزر بالدخول في دين التوحيد، فأعرض وأصرّ على مجاراة قومه في وثنيتهم فأقسم إبراهيم ليحطمن أصنامهم بعد أن يولوا مدبرين، وقد فعل بأصنامهم ما فعل عليه الصلاة والسلام فأوقدوا ناراً ووضعوه في المنجنيق لإلقائه في النار، فكان آخر كلامه حسبنا الله ونعم الوكيل،

ونزل جبريل عليه السلام قبل أن يلقى الخليل في النار وهو موضوع في المنجنيق فقال جبريل ألك حاجة يا إبراهيم فقال له الخليل عليه السلام: أما إليك فلا! فقال له: أسأل لك الله تعالى، فقال: علمه بحالي يغني عن سؤالي! ثم ألقوه في النار فقال الله: ﴿ يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ۞ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴾ وهكذا كان الحنفاء دائماً في صلتهم بالله، فالله حافظهم وناصرهم ومؤيدهم.

فلا عجب إذا كانت سيدتنا خديجة تمشي في ظلمات الليل البهيم إلى غار حراء لتؤدي لزوجها عليه الصلاة والسلام متتطلبات حياة العُبّاد المخلصين، ولاتخشى في طريقها المظلم بالليل شيطاناً مريداً، ولا لصاً عنيداً، ولا سبعاً كاسراً، ولا مجرماً غادراً، لأنها في أمان الله.

وإذا العناية لاحظتك عيونها   نم فالمخاوف كلهن أمان
فاصطد بها العنقاء فهي حبائل   واقتد بها الجوزاء فهى عنان

فأمنا السيده خديجة ما نامت عن المخاوف، وإنما قامت برسالتها خير قيام مع زوجها عليه الصلاة والسلام كما قامت مع أهلها بواجبها على أحسن حال، ورعت الأرامل، والأيتام، والوافدين إليها، من أهل البر والإحسان، وطلاب المعرفة والحقيقة الموصلة إلى رضوان الله.

حنفاء آخرون

وهناك مجموعة من الحنفاء منهم الشهيد زيد بن عمرو بن نفيل ابن عم عمر بن الخطاب رضي الله عنهما الذي دان بدين الحق ودعا إليه فاجتمعت عليه قبيلة كلب على مشارف الشام وقتلوه فمات شهيداً ليبعث أمة وحده كما أخبر عنه النبي ﷺ.

ومنهم قُس بن ساعدة خطيب عكاظ العظيم، وقد قال لمستمعيه إن لله دينا غير ما أنتم عليه، والله إن في السماء لخبراً وإن في الأرض لعبراً

سماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج. إلى آخر ما قال.

ثم يأتي بالدليل تلو الدليل ليبرهن على عقيدة توحيد الله تعالى، وقد سمعه النبي ﷺ وأثنى عليه خيراً، ومنهم أكثم بن صيفي حكيم العرب ومرشدهم إلى سبل الخير، ومنهم زهير بن أبي سُلمى حكيم الشعراء وفخر الأدباء وهو الذي يقول في معلقته :-

ومهما يكن عند امرئ من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تعلم

فلا تكتُمن الله ما في نفوسكم ليخفى ومهما يُكتم الله يعلم

يؤجل فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجّل فينقم

. . . . إلى آخر القصيدة

فهو في أبياته هذه يقر بتوحيد الله تعالى، ويصفه بأنه يعلم كل شيء وكل ما يعمل الإنسان يوضع في كتاب فيدخر ليوم القيامة فيحاسب عليه صاحبه فهو مؤمن بالبعث والحساب وباليوم الآخر.

وقد أوصى ولديه كعباً وبجيراً أن يسبقا الناس إلى خبر سيرد من السماء قريباً، وتوفي قبل البعثة النبوية بعامين تقريباً وكان يقصد بخبر السماء بعثة النبي ﷺ ولم يدرك نزول خبر السماء وأسلم ابناه من بعد.

ومن الحنفاء النبلاء ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة الذي دان بالحنيفية السمحاء ولم يكتف بالتعبد بها بل حملته همته العالية أن يتعلم العبرانية ويقرأ كتب أهل الكتاب ويتبحر فيها.

وهو الذي قال عند ماذكر له النبي ﷺ ماجرى له في غار حراء: هذا الناموس الذي نزَّل الله على موسى، هذا الناموس الذي أنزله الله على عيسى، ياليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك. فقال له النبي ﷺ: «أو مخرجيّ هم؟» قال نعم لم يأت أحد قط بمثل ما جئت به

إلاّ عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً[1] .

ولم يلبث إلا قليلا وتوفى رضي الله عنه مؤمناً بالله ورسوله ﷺ .

ولما بعث النبي ﷺ ونزلت آيات المدثر سارع للاسلام سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وكان من الحنفاء الموثوق بهم، ولم يسجد لصنم قط، وكان مسموع الكلمة في أهله وفي قريش وغيرهم لصدقه وأمانته رضي الله عنه وأرضاه وسارع سيدنا علي كرم الله وجهه مع صغر سنه وحداثة عمره رضي الله عنه .

ومنهم عبد الله أبو النبي ﷺ .

ومنهم عداس غلام عتبة بن ربيعه، وسلمان الفارسي وغيرهم .

هذه طائفة ممن عرفناهم من حنفاء العرب من الرجال .

ودعونا الآن نلقي الضوء على الحنيفيات من نساء العرب

فأول من نبدأ بها السيدة آمنة بنت وهب أم النبي ﷺ التي كانت ترى النور الرباني، وتأتيها البشارات بمولد النبي ﷺ من الملائكة وممن سبقها من أفاضل نساء الأولين السيدة أسيه امرأة فرعون، والسيدة مريم أم سيدنا عيسى، وكل أولئك بشرن بميلاد خير الأنام ﷺ .

وكذلك كانت أمهات النبي ﷺ جميعاً من لدن حواء إلى السيدة آمنة كن من الحنيفيات .

---

(١) رواه البخاري .

الزواج الميمون

عادت خديجة من عند ابن عمها ورقة بن نوفل. . أستاذها ومستشارها الذي تطمئن إلى قوله وتثق في علمه، فقد كان معروفاً بأنه يكتب الكتاب العبراني، وكتب من الانجيل ما شاء الله أن يكتب ـ كما ورد في البخاري كتاب بدء الوحي ـ عادت من عنده تتراءى لها الأحلام التي طمحت إليها عمرها كله، ويدور في خواطرها أمر يهدهد مشاعرها. . .

أمر تستخفي به في ضميرها تصوناً وحياءً.

وتحار، كيف تستعلن به في واقعها تشوفاً ورجاءً.

وسبحت مع أحلامها، ترجو وتأمل، وتتساءل!!

أحقا هي معجزة الأيام قد آن أوانها. . ؟

وثمرة الأزمان على مر الدهور، قد طابت وحان قطافها؟

يا فرحة العمر لو تحقق ذلك الحلم، وعاشته عروساً هانئة لنبي كريم.

أحقاً قد رضيت عنها السماء، فكشفت لها بهذا الإرهاص، من وراء سدوف الغيب أمر هذا النبي المنتظر، الذي أفنى ورقة وصحابه عمرهم كله تطلعا لظهوره، ورصدا لأوصافه وموعده.

فإن كان ذلك كذلك. . .

فكيف تصبح له زوجاً ومعينا ووزير صدق؟

تهبه عمرها، وحبها، ومالها، هانئة بقربه ورضاه

وتحظى به زوجاً ومعلماً وحبيباً، وتشرف به قريناً فريداً مرغوباً.

فلتسع إلى الاقتران به ما وسعها السعي، فهذا شرف لا يُفوَّت، وفضل في الحياة وفي الممات.

وباتت ليلتها تقلب وجوه الرأى في سريرتها.. تود أن تجد من حيرتها مخرجا، ولأملها في واقع حياتها مكانا.

وسبحت مع تأملاتها وأحلامها... ولكن...

كيف تدرك ذلك..؟

وهي التي تقدم إليها العديد من سادة مكة وما حولها خاطبين، فصرفتهم في رفق حازم، يأبى ولا يجرح.. متعللة بأنها بعد وفاة زوجيها السابقين، لا ترغب في الزواج، وحسبها أن تعتني بولديها من أبي هالة، وبنتها من عتيق.

وأصبحت شاردة ساهمة.. تفكر في أمرها، وتسبح مع أمنيتها، وتقلب النظر فيما يبلغها ما تتمنى، علها تجد سبيلا تصل به إلى ما تريد.

ومرت أيامها بطيئة مثقلة..

وبينما هي في سهومها ووجومها. لمحتها عين ذكية، عرفت أن أعماقها تموج بما لا تستطيع البوح به، كانت هذه العين عين صديقتها موضع سرها: نفيسة بنت منبة، التي سرعان ما سألتها مشفقة.

ما شأنك يا خديجة؟

عهدي بك مع حزمك بشوشاً ودوداً، فما هذا الوجوم وما هذا الشرود؟

وترددت خديجة، ولاذت بالصمت حيناً، ثم حزمت أمرها، وأفضت الى صديقتها بدخيلة نفسها..

يا نفيسه، إني أرى في محمد بن عبد الله ما لا أراه في غيره من

الرجال، فهو الصادق الأمين، وهو الشريف الحسيب، وهو الشهم الكريم، وهو إلى ذلك له نبأ عجيب، وشأن غريب، وقد سمعت ما قاله ميسرة غلامي عنه، ورأيت ما كان يظلله حين قدم علينا من سفرته، وما تحدث به الرهبان عنه.

وإن فؤادي ليكاد يجزم بأنه نبي هذه الأمة.

فقالت نفيسه: وماذا يشغل بالك من ذلك حتى تصبحي في هذه الحالة من السهوم والشرود؟

فقالت لها: أتمنى أن يكون لي زوجاً.. ولا أدري كيف أصل الى ذلك.

فقالت نفيسة: تأذنين وأنا أدبر الأمر؟

فسرت خديجة وقالت في فرح: افعلي يا نفيسة ما تستطيعين..

وانسلت نفيسة تتحسس مكان محمد بن عبد الله الأمين، حتى لقيته منفردا مع نفسه فحيته ثم قالت[1]:

أرسلتني خديجة دسيساً إلى محمد بعد أن رجع من الشام فقلت: يا محمد!! ما يمنعك أن تتزوج؟!

فقال: ما بيدي ما أتزوج به.

قلت: فإن كفيت ذلك، ودعيت الى الجمال، والمال، والشرف والكفاءة.. ألا تجيب؟

قال: فمن؟

قلت: خديجة.

قال: وكيف لي بذلك؟

قلت: علي وأنا أفعل.

---

(١) كما ذكره ابن سعد ١/ ٨٤

فأسرعت تبشر خديجة . . فأرسلت إليه بنفسها .[1]

فقالت: يا بن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك، وسطتك في قومك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك. فكلم أعمامك ليسعوا في ذلك.

وتروي السيرة الحلبية في ذلك أن النبي ﷺ لما أرسلت إليه خديجة، استأذن عمه أبا طالب في أن يتوجه لخديجة . . فأذن له . . وبعث بعده جارية له يقال لها: نبعة فقال لها: انظري ما تقول له خديجة.

فخرجت خلفه، فلما جاء ﷺ الى خديجة، أجلسته وأخذت تكلمه، ثم قالت: بأبي أنت وأمي، والله ما أفعل هذا الشيء، لكني أرجو أن تكون أنت النبي الذي يبعث، فإن تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي، وادع الإله الذي سيبعثك لي.

فقال ﷺ: والله لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً، وإن يكن غيري فإن الإله الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيمك أبداً.

وحددت له موعداً، فحضر ومعه أعمامه، فيهم أبو طالب، والعباس وحمزة، فخطبوها من عمها ـ على اصح الأقوال ـ لأن أباها قتل في حرب الفجار قبل ذلك.

وقام أبو طالب خطيباً فقال[2]:

الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع اسماعيل، وضئضى معد ـ أي معدنه ـ وعنصر مضر ـ أي أصله ـ وجعلنا حضنة بيته ـ أي

---

(١) ابن هشام ١٨٩/١

(٢) السيرة الحلبية ح١ ص: ١٣٨، ١٤٠

المتكفلين بشأنه ـ وسواس حرمه ـ أي القائمين بخدمته ـ وجعل لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس، ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله، لا يوزن به رجل إلا رجح به شرفا ونبلا، وفضلا وعقلا، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، ووديعة مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وآجله اثنتا عشرة اوقية ونشا (والنش عشرون درهماً، والأوقية أربعون درهما، وكانت الأواقي والنش من ذهب كما قال المحب الطبري، اي فيكون جملة الصداق أربعمائة وثمانون درهماً شرعياً).

وقيل: أصدقها عشرين بكرة - (أقول: لا منافاة، لجواز أن تكون البكرات عوضا عن الصداق المذكور).

وقال بعضهم: يجوز أن يكون أبو طالب أصدقها ما ذكر (أي الذهب)، وزاد النبي ﷺ من عنده تلك البكرات في صداقها، فكان كل ذلك صداقاً، والله أعلم.

وقام ورقة بن نوفل يجيب أبا طالب فقال:

الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عددت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله، لا ينكر العرب فضلكم، ولا يرد أحد من الناس فخركم وشرفكم، ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا علي معاشر قريش اني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله، وذكر المهر.[1]

فقال أبو طالب:

أحببت أن يشركك عمها.

---

(١) ذكرها الزرقاني في «شرح المواهب» ١:٢٠٢

فقال عمها :

اشهدوا علي معاشر قريش أني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد .

وأولم عليها النبيﷺ ، ونحر جزورا ، وقيل جزورين ، وأطعم الناس ، وأقيم العرس السعيد .

وأمرت خديجة جواريها أن يرقصن ، ويضربن الدفوف .

وفرح أبو طالب فرحاً شديداً ، وقال : الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب ، ودفع عنا الغموم .

وفرح أهل مكة بهذا الزواج الميمون ، حتى إنهم قاموا يتغنون بذلك سرورا وغبطة يقولون منشدين[1] :

لا تزهدي خديج في محمد   نجم يضيء كضياء الفرقد

وفي هذا يقول صاحب الهمزية الإمام البوصيري :

ورأتـه خـديجـة والتقـى   والزهد فيه سجية والحياء

وأتـاهـا أن الغمـامـة   والسرح أظلته منهما أفياء

وأحاديث أن وعد رسول الله   بـالبعث حـان منه الـوفـاء

فدعته الى الزواج وما أحسن   مـا يبلـغ المنـى الأذكيـاء

ويقول شاعر آخر :

بعثـت إليـه وإنهـا لأبيـة   ماذا عليها إن أحبت أحمدا

ماذا إذا خطبته وهي عفيفة   أتعاب من ترجو الزواج لتسعدا

إيه خديجة قد سننت شريعة   وأبى فؤادك عزة أن يخمدا

وجعلت للفتيات حق تخير   أفكنت تدرين الذي يأتي غدا

(١) كما ورد في موكب السيرة للشنقيطي ص:١٩ فيما نقله عن الروض الأنف .

ورضيت بالشهم الفقير وقبله أعرضت عمن في غناه تفردا

ويقول آخر:

قد رأته بين الكرام فريداً وافي الفضل صادقا محمودا
وأولو العلم قد رأوه حرياً أن يكـون المنبـأ المـوعـودا
قال نسطور مثل قول بحيرى هو بشرى المسيح صارت وجودا
في الأناجيل وصفه مكتوب ونـراه فـي كتبنـا مـوجـودا
وسجاياه تاج كل السجايا حاز كل الفخار فذاً حميدا
فدعته خديجة النبل زوجاً وأجاب الأمين سمحاً سعيداً
خير زوجين في البرية طهراً ووفـــاء وعفـــة وجـــدودا

في تفسير سورة الضحى:

في هذا المقام نجد الزمخشري في تفسيره الكشاف حـ٤ صـ٢٢١ يقول عند تفسيره لقوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾. ووجدك عائلاً ـ فقيراً ـ وقرىء عيلا كما قرىء عديما ﴿ فَأَغْنَىٰ ﴾ فأغناك بمال خديجة، أو بما أفاء عليك من الغنائم.

وكذلك يقول الإمام القرطبي في تفسيره الجامع لأحكام القرآن جـ١٠ صـ٦٧ يقول ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ أي أغناك بخديجة رضي الله عنها.

ومن أجل ذلك كله كافأها رسول الله ﷺ، وجازاها على إحسانها إليه في حياتها بأن لم يتزوج عليها غيرها، وبلغت منه مبلغاً لم تبلغه امرأة قط من زوجاته بعدها، وكافأها الله بأن جعلها دون كل نسائه أم ذريته، وجدة عترته.

زواج تم بتقدير الله واختياره

لماذا تزوج رسول الله بخديجة بنت خويلد. ؟ هذا سؤال يردده كثير من الناس، على الرغم من أنها أكبر منه سناً، وعلى الرغم من وجود عشرات الفتيات في قريش وغيرها من القبائل، وكلهن حريصات على الزواج به ﷺ فلماذا آثر الزواج بخديجة، ولماذا أقبل عليها وقبل بها، وبعض الناس يسألون هذا السؤال في براءة ورغبة صادقة في معرفة الحقيقة، والبعض يثير هذا السؤال في خبث وغمز ولمز، وخاصة عندما يثار هذا السؤال من قبل بعض المستشرقين المغرضين، والذين يجنحون إلى إتهام الرسول ﷺ بأنه إنما تزوج بالسيدة خديجة طمعاً في مالها، ودعونا الآن نناقش هذا الموضوع بموضوعية ونضع الحقائق أمامنا واضحة.

أولاً: إن هذا الزواج كان اختياراً ربانياً فالله عزوجل بعلمه وقدره السابق اختار السيدة خديجة لتكون بجوار رسول الله ﷺ، فهذا الزواج هو بقدر الله قبل كل شيء.

ثانياً: إن المتتبع للحوادث التاريخية والإرهاصات التي سبقت هذا الزواج يلاحظ أنه ﷺ لم يسع ولم يذهب إلى السيدة خديجة، وإنما هي التي سعت إليه ورغبت في التعرف عليه والزواج به، وقد حرصت في أول الأمر على أن تربطها به علاقة عمل وتجارة فازداد اعجابها به، ومعرفتها بفضله وأمانته وسمعته، وما أحاط بتلك الرحلة من أخبار وكرامات، وما جرى فيها من أحداث دلت على فضله ونبله وخصوصيته. ولهذا فقد زاد اعجابها وتعلقها به، وحرصها على الإقتراب منه، والارتباط به،

فكان أن أرسلت إليه، وهي التي خطبته وبادرت الى الإتصال به وعرض نفسها عليه.

ثالثاً: عندما علم الرسول ﷺ برغبة السيدة خديجة وأنها حريصة على الزواج به، وهي من هي من النساء المعروفات بالفضل والخلق والنسب الطيب.. والجمال والكمال، وهي ذات أصل وفضل وحسب ونسب ومكانة بين قومها، مع ما عرف عنها من عقل راجح وحكمة ومكانة عالية بين الناس، فعندما نظر ﷺ إلى كل هذه الأمور ووازن بينها، وجد أنها ستكون السيدة المناسبة لمثله، ولهذا فقد قبل العرض ورضي عندما علم برغبتها في الزواج به، وشاور أهله وهم من أشراف القوم وكبارهم، فأيدوه وشجعوه، لأن الاختيار كان اختياراً سليماً موفقاً، ولهذا تقدم لخطبتها بأمر الله أولاً وأخيراً، ولماعرف عنها من صفات حميدة، ولهذا تزوجها، فكان لها رضي الله عنها ذلك الشأن العظيم في حياته وفي دعوته، وشاركته الكفاح، وصبرت معه، حتى أظهر الله دينه، ونصر رسوله ﷺ، فكانت نعم الرفيقة، ونعم الزوجة، ونعم الناصرة له، رضي الله عنها وأرضاها.

رابعاً: أما عن القضية التي يحاول بعض المغرضين من المستشرقين الغمز واللمز بها، وهي أنه ﷺ إنما تزوجها لمالها، فالحقيقة هي أنه ﷺ نشأ نشأة كريمة عفيفة زاهداً في المال، أمينا على كل ما يقع في يده، ومن زهده الذي ينفي أنه إنما قبل الزواج من السيدة خديجة لمالها هي تلك الحوادث والروايات الصحيحة التي رويت عن قريش عندما ضاقوا بدعوته ﷺ وأرادوا أن يصرفوه عنها فعرضوا عليه المال والجاه ودعونا ننظر إلى النص هنا بعمق عندما عظم على أبي طالب فراق قومه، ولم يطب نفسا بأن يخذل رسول الله ﷺ فقال له: يابن أخي إن

قومك قد جاؤوني، فقالوا لي كذا وكذا فأبق علي وعلى نفسك، ولاتحملني من الأمر ما لا أطيق. فظن رسول الله ﷺ أن عمه خاذله، وانه ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال له: «يا عم! والله! لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى، أو أهلك فيه ما تركته» ثم استعبر رسول الله ﷺ (حصلت له العبرة التي هي دمع العين) فبكى ثم قام، فلما ولّى ناداه أبوطالب فقال: أقبل يابن أخي! فأقبل عليه فقال: اذهب يابن أخي! فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك.[1]

ومن ينظر في هذا النص يلاحظ سمو خلقه ﷺ وعفته وزهده في المال، ولو كان يرغب مالاً لقبل هذا العرض فهذا أفضل من أن يأخذه عن طريق السيدة خديجة لأنه عرض عليه من أكابر قريش، وقادتها ورجالها، وعرض معه الجاه ولكنه ﷺ رفض ذلك كله ولهذا فإن من يحاول الغمز في قضية زواج الرسول ﷺ وهو أن الزواج إنما كان طمعاً في مالها فهذا رد واضح عليه، وحياة الرسول ﷺ صوره مشرقة واضحه، وكل ممارساته وعفته ترد هذا الاتهامات إلى أصحابها وتنفيها عنه.

بأبي أنت وأمي يارسول الله.. أي طمع أورغبة في مال أو جاه.. وإنما كان يتحرك بأمر الله ويدعو إلى كلمة الله.. ويجاهد.. ويصبر.. ويحتسب.. حتى تكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى.

إذا أردنا أن نعدد ما حبا به الله رسوله ﷺ مما أغناه به عن جميع

---

(١) سيدنا محمد رسول الله ﷺ الأسوة الحسنة، الشيخ أسعد محمد سعيد صاغرجي ص: ١٨٠، ١٨١

الأموال نرى أنه:

أولاً: خيَّره، بين أن يكون نبياً ملكاً أو عبداً رسولاً، فاختار ﷺ أن يكون عبداً رسولاً[1]، فهنا فضّل ﷺ حالة العبودية.

ثانياً: أنه ﷺ لما آلت إليه أموال بني النضير وبني قريظة ونفائس مدخراتهم من حلي ومتاع خالصة له لم تغير من سيرته في المال، وخاصة بعد تتوق الزوجات إلى ذلك حيث أرهقنه بالإلحاح والطلب للتوسع في النفقات والمتاع، فشق عليه ذلك، فأنزل الله في ذلك، تخييرهن في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا﴾.

ثم آلت إليه أموال هوازن وثقيف، وهي أكبر غنيمة غنمها المسلمون فقسمها كلها على البرّ والفاجر والمسلم والكافر ثم قال بعد إلحاحهم في الطلب «يا أيها الناس والله لو كان لكم عدد شجر تهامة نعماً لقسمته عليكم، وما القتموني بخيلاً ولا جباناً ولا كذّاباً، ثم أخذ وبرة من سنام بعيره فرفعها وقال والله مالي من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا الخمس والخمس مردود عليكم.

ثالثاً: ثم إنه ﷺ راودته الجبال أن تتحول له ذهباً فأبى ذلك لزهادته في الدنيا وزينتها، وعاش عيشة الكفاف حتى أنه ارتحل إلى الرفيق الأعلى ودرعه مرهونة في نفقة عياله، ولم يورّث درهماً ولا ديناراً.

وإذا نظرنا بعمق في هذه المسألة وجدنا أن الزعم الذي زعمه المستشرقون ـ بأن زواج الرسول ﷺ من خديجة كان الغرض منه هو

(١) كما جاء في الأحاديث الصحيحة.

الحصول على ثروتها، أو طمعاً في الاستفادة من مالها ـ ما هو طعن في رسول الله ﷺ، وفي رسالة الإسلام السمحاء حقداً وحسداً، كما هي عادتهم وهو باطل وكذب وافتراء.

ولا يفتر أعداء الإسلام في إلصاق الأباطيل والتهم برسول الله ﷺ، وبالإسلام من غير إثبات ولا دليل، ولا قرينة تدل على صدق الدعوى.

وهم ماديون لا يؤمنون بالمعجزات ولا بالكرامات التي يتولى الله بها أولياءه الذين خصهم واصطفاهم مثل مريم بنت عمران التي كان ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾(١).

وحديث الرسول ﷺ إنما أبيت عند ربي يطعمني ويسقيني.. الحديث.(٢)

وقول الشاعر:

ومن يعترض والعلم عنه بمعزل

يرى النقص في عين الكمال ولا يدري

وهم كما قال الله عنهم أنهم لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾(٣).

وقصد المستشرقون أيضاً من وراء هذه المزاعم تشويه الإسلام والنيل من رسول الله ﷺ وذهبوا إلى أبعد من ذلك واعتبروا تعدد الزوجات في الإسلام وخاصة زوجاته ﷺ طعناً والرق والحدود في قطع

---

(١) سورة آل عمران الآية: ٣٧

(٢) رواه البخاري (١٩٦١-١٩٦٥) ومسلم ٢:٧٧٤-٧٧٦ (٥٥-٦١) عن أنس، وابن عمر، وعائشة، وأبي هريرة.

(٣) سورة الأنعام الآية: ٧

يد السارق، ورجم الزاني، كل ذلك يعتبرونه مطاعناً في الإسلام.

والذي يدرس نشأة رسول الله ﷺ يجد أنه عندما بلغ الفتوة مارس أعباء الحياة وتحمّل المسئولية في سن مبكرة حيث بدأ في السعي للرزق برعي الغنم لأهل مكة بقراريط، ثم اشترك مع أعمامه في حرب الفجار حيث كان ينبل لهم السهام، ثم عمل تاجراً أجيراً، واستمر في كسب رزقه بعد زواجه من خديجة رضي الله عنها.

وهذا ما اعترض عليه كفار قريش وأعابوه عليه بأن تميزه عنهم بالرسالة يجعله في مكانة العظماء الذين لا يمارسون تكسب رزقهم في الأسواق ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا﴾[1] فهلا كفاه الله مؤونة رزقه بأن يلقي عليه كنزاً، أو جنةً يأكل منها من غيركد المعاش، حتى يستغني عن التكسب في الأسواق، لولا أنه كان يتطلب معيشة رزقه في الأسواق لما اعترضوا على ذلك.

وهذا لا ينفي أن خديجة رضي الله عنها كانت تواسيه بمالها، وكذلك أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ومما يؤكد خبث المستشرقين ودسهم على الإسلام هو مقولتهم بأنه ﷺ هو الذي رغب في الزواج من خديجة رضي الله عنها بقصد الحصول والاستفادة من ثروتها.

ومما يؤكد بطلان تلك المزاعم أن رسول الله ﷺ لم يتقدم إلى خديجة بادىء ذي بدء، وإنما الذي تؤكده الروايات أن السيدة خديجة سعت إلى الزواج منه من خلال ما يلي:

---

(١) سورة الفرقان الآيتان: ٧، ٨

فخديجة هي التي رغبت في الزواج، وعملت بالوسائل الظاهرة والخفية:

أولاً: طلبها له بأن يتاجر في مالها، وتكليف غلامها ميسرة بأن يتقصّى لها ما يتكشف له من حقيقة أسرار خُلقه وصدقه وأمانته وشهامته، وهو ما عرف عنه في قريش، حتى يتأكد لها ذلك وزاد أن ظهر لميسرة بعض الخوارق من الغمام الذي كان يظله وخبر الشجرة التي استظل بها وكلام الراهب نسطور.

ثانياً: أنها دست إليه صديقتها «نفيسة بنت منية» فقالت هل لك في المال والجمال والعز والشرف، وهي بذلك تريد استطلاع رأيه في الموافقة على الزواج منها.

ثالثاً: استدعاؤها له ومشافهتها له مباشرة بقولها يا ابن عم.. الخ.

فهذه الحقائق تدل على أن الرغبة كانت من طرف خديجة رضي الله عنها وأنها كانت تتابع أخباره وخطواته، فلما اطلعت على سيرته استشعرت في أعماقها بأن هذا الإنسان مؤهل للرسالة في صفاته وأخلاقه وتعاملاته، ولهذا ذكرت له في أكثر من مرة مؤكدة على هذا المفهوم وهي تقول: والله إنك لنبي هذه الأمة، وفي مرحلة أخرى تقول: إنك لتقري الضيف وتكسب المعدوم وتعين على نوائب الدهر، والله لن يخزيك الله أبداً، وكانت تشعر بعفته وأمانته ونبله، وحياته واضحة جلية أمامها.. حياة كفاح وعمل صادق نبيل في كسب الرزق سواء في رعي الغنم أو التجارة، ولهذا فقد مالت إلى التعامل معه، ولم يقف التعامل عند هذا الحد بل امتد حتى بعد الزواج يعينها في تدبير تجارتها، ويخرج مع رجل من قريش استأجرته خديجة في تجارتها إلى سوق حباشة، وهو سوق بتهامة وكان رسول الله ﷺ يحدث عن خديجة فيقول: ما رأيت

من صاحبة لأجير خيراً من خديجة ما كنا نرجع أنا وصاحبي إلا وجدنا عندها تحفة من طعام تخبئه لنا وهذا ما أيده القرآن بقوله تعالى ﴿ وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ۝٧ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ﴾[1] وقوله تعالى ﴿ وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾[2].

قال القرطبي في تفسير هذه الآيات كانوا يقولون له «فاسأل ربك يجعل لك جناناً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تبتغي، فإنك تقوم بالأسواق وتلتمس المعاش كما نلتمسه، حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك» جـ ١٠/ ٣٢٩

وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين.

---

(١) سورة الفرقان الآيتان: ٧، ٨

(٢) سورة الضحى الآية: ٨

أولاد المصطفى من خديجة

إنهم ذرية المصطفى ﷺ . . انهم النطف الطاهرة، والأولاد البررة. . أبوهم سيدنا محمد، وأمهم سيدتنا خديجة الكبرى. . إنهم أشجار عريقة الجذور والانساب، كلهم يتصفون بالشرف ويمتازون بالادب، فهم ذرية بعضها من بعض. . من أعرق بيوت قريش، ومن نسب شرف وصدق وأمانة، وأم فاضلة لا يدانيها أحد في شرفها وعزتها ورفعتها في مكة المكرمة، بل وفي غير مكة المكرمة.

لقد كانت ثمرة هذا الزواج العظيم أن ولدت للرسول الأعظم القاسم وكان يكنى به ﷺ .

وعبد الله (وهو الطاهر، وهو الطيب) سمي بالطاهر والطيب لأنه ولد بعد النبوة، وتوفي عبد الله وهو صغير.

ومن البنات: زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة.

أما القاسم فقد بلغ مرحلة المشي ثم توفي فحزنت عليه أمه حزناً شديداً كما حزن عليه الرسول ﷺ .

بنات النبي ﷺ

زينب، رقيه، أم كلثوم، فاطمة

كلهن من خديجة وكلهن أدركن الإسلام وهاجرن إلى المدينة، وهاجرت رقية رضي الله عنها الهجرتين.

زينب: عاشت مع أبويها أسعد ما يعيش إنسان بين أبوين كريمين، وتترعرعُ الفتاة، وتشب ثم يتقدم إليها ابن خالتها أبو العاص بن الربيع، وهو من أكرم شباب قريش وأنبلهم، ثم هو يلتقي نسباً مع الرسول الكريم ﷺ في عبد مناف بن قصي، وقد عرف بأمانته، فمنح ثقة الناس فكانوا يعطونه أموالهم ليتاجر بها، فتقدم حتى صار في الصف الأول من أثرياء قريش.

وانتقلت زينب إلى عش الزوجية، وقدمت لها أمها الجليلة قلادة يوم عرسها كان لها شأن وأي شأن بعد الهجرة المباركة بعد ردح من الزمن.

وتأخر إسلام أبي العاص بن الربيع، فقد كان يخاف أن يقال: ترك دين آبائه من أجل امرأته.

وانتهى الأمر إلى هجرة السيدة زينب إلى المدينة، وفراقها لزوجها في قصة وأحداث سنفصلها في فصل قريب ويحسبنا هنا أن نشير إليها.

رقية وأم كلثوم:

خطبت رقية حين بلغت سن الزواج مع أختها أم كلثوم إلى ولدي أبي لهب عتبة وعتيبة.

لكن ما إن بدأ الرسول ﷺ يجهر بالدعوة حتى كان عمه أبو لهب أول

المناهضين والمجاهرين بالعداوة له مع امرأته (حمالة الحطب)، فكان أن طلب من ولديه أن يردا ابنتي محمد ﷺ لينشغل بهما وبأختهما فاطمة، لما أراد الله بهما من صيانتهما وحفظهما من البيت الكافر.

أما رقية فقد تزوجها عثمان بن عفان رضي الله عنه وعنها، وهاجر بها الهجرتين. وأما أم كلثوم فبقيت مع أختيها فاطمة وزينب في بيت أبيهما الرسول الأعظم حتى هاجر الى المدينة، ثم لحقن به، فلما توفيت رقية تزوج عثمان أم كلثوم بعد أختها، وبقيت معه حتى توفيت هي كذلك، رضي الله عنها، ولهذا سمي رضي الله عنه «بذي النورين» لأنه تزوج ابنتين من بنات رسول الله ﷺ، ولم يتزوج أحد بنتي نبي غير عثمان رضي الله عنه.

فاطمة الزهراء:

ولدت قبل البعثة بخمس سنوات، وعاشت في كنف أعظم والدين، وصحبت أباها في أسعد الأيام، ثم في أقساها مرارة ولقد كانت أحب أولاده إليه، صحبت أبويها في حصار الشعب، وذاقت مع المحاصرين ألم الحرب النفسية والاجتماعية، التي شنها عليهم كفار مكة.

وهاجرت مع أبيها، بعدما فقدت الأم العظيمة وتركتها في ثرى مكة الطاهر، ولقد أراد الله لهذه النسمة الطاهرة أن يحفظ فيها ذرية نبيه الكريم، فتزوجها فتى الفتيان علي بن أبي طالب وأحسن صحبتها، وكان له منها الذرية الطاهرة.

ولقد هم علي أن يتزوج عليها ابنة أبي جهل - عمرو بن هشام - فغضب لها رسول الله ﷺ وانطلق الى المسجد ليعلن:

«إن بني هشام بن المغيرة استأذنوني أن ينكحوا ابنتهم علي بن أبي طالب، فلا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، ثم لا آذن لهم، اللهم إلا أن

يحب ابن أبي طالب أن يطلق ابنتي وينكح ابنتهم».

ثم تابع ﷺ يقول: إن ابنتي بضعة مني يريبني ما أرابها ويؤذيني ما آذاها، وإني أتخوف أن تفتن في دينها.

ثم ذكر صهره أبا العاص بن الربيع فأثنى عليه في مصاهرته فقال: «حدثني فصدقني ووعدني فأوفى لي، وإني لست أحرم حلالاً، ولا أحل حراماً، ولكن والله لا تجتمع بنت رسول الله، وبنت عدو الله في بيت واحد أبداً»، ولم يكن يخطر ببال علي رضي الله عنه أن يغضب رسول الله حين فكر بالزواج من بنت أبي جهل، ولم يكن يؤثر على رضا الله ورسوله شيئاً أبدا، ولقد كانت كلمة النبي ﷺ بالغة الأثر على الإمام علي، لا سيما حين ذكر صهرا له من بني عبد شمس، وأنه وفّى له وصدق فيما حدثه، فعدل عن فكرة الزواج، ليس من ابنة أبي جهل فحسب، وإنما من أي امرأة أخرى، إكراما لابنة رسول الله ﷺ أن تؤذى أو تمس مشاعرها بسوء.

وظل مخلصاً لها إلى أن توفيت رضي الله عنها بعد الرسول الكريم بستة أشهر، ونفذ وصيتها فتزوج أمامة بنت أختها زينب لترعى أولاد خالتها الراحلة.

كانت رضي الله عنها كريمة الخلق، نبيلة النفس، مرهفة الحس، سريعة الفهم، عميقة التفكير متوقدة الذهن، جزلة المروءة غراء المكارم، لا يخالطها شيء من الزهو ولا الخيلاء.

وكانت سبطة[1] الخليقة في سماحة وهوادة، إلى رحابة صدر، وسعة أناة، وسكينة ووقار، ورفق ورزانة، وعفة وصيانة.

عاشت قبل وفاة أبيها متهللة العزة، وضاحة المحيا، حسنة البشر،

---

(١) سبطة: ناعمة.

باسمة الثغر، وغربت بسمتها منذ وفاة أبيها ﷺ.

كانت رضي الله عنها بضعة من أبيها رسول الله ﷺ، مفطورة على العفة والطهر والنقاء، لا يجري لسانها بغير الحق، ولا تنطق إلا بالصدق، ولا تذكر أحدا بسوء، فلا غيبة ولا نميمة، ولا همز ولا لمز، تحفظ السر، وتفي بالوعد، وتصدق النصح، وتقبل العذر، وتتجاوز عن الإساءة، صادقة في قولها، صادقة في نيتها، صادقة في وفائها، وهي تعرف أن زوجها علياً ما بلغ مكانته عند رسول الله ﷺ إلا بصدق الحديث وأداء الأمانة.

عن عمرو بن دينار قال: قالت عائشة رضي الله عنها: «ما رأيت أحدا قط أصدق من فاطمة غير أبيها». قال: وكان منها شيء، فقالت عائشة: «يا رسول الله سلها، فإنها لا تكذب». وفي الاستيعاب لابن عبد البر بسنده، قالت عائشة: «ما رأيت أحدا كان أصدق لهجة من فاطمة، إلا أن يكون الذي ولدها»[١].

وكانت رضي الله عنها أمينة، حافظة للسر، لا ترضى لنفسها أن تذيع لأحد سراً، أو تفشي له أمراً، وقد سمعت من زوجها قوله: طوبى لعبدٍ نومة، عرفه الله ولم يعرفه الناس، أولئك مصابيح الهدى، وينابيع العلم، تنجلي عنهم كل فتنة ظلماء، ليسوا بالمذاييع البذر[٢]، ولا الجفاة المرائين[٣].

لقد عاشت السيدة فاطمة أيام الدعوة في بدايتها، وما صاحبها من الابتلاء والمعاناة العظيمة، فقد كتب لها ان تشهد المحنة وعظم البلاء

---

(١) رواه الحاكم ٣: ١٦٠-١٦١ وصححه على شرط مسلم ووافقه الذهبي.

(٢) ليسو بالمشهورين في كل الأوساط.

(٣) سنن الدارمي ١/٩٣ المقدمة باب ١٧

منذ طفولتها الباكرة، ومنذ نعومة أظافرها، وأن تعيش دون أخوتها جميعا مع أبيها منذ بدء الوحي حتى يجود البطل الأسمى، والصابر العظيم والمعلم الكبير بأنفاسه، ويلحق بالرفيق الأعلى، فقد كانت معه وبجواره، لم تفارقه حتى بعد زواجها من علي كرم الله وجهه وإلى حين انتقاله للرفيق الأعلى.

وقد أخذت فاطمة تمشي نحو ميادين المعركة، وكان صغر سنها يتيح لها أن تخرج من البيت وتتحرك خارجه وتتبع أباها حيث ذهب، وتشاهده وهو يدخل إلى أندية قريش ومحافلها داعيا ومبشرا ونذيرا، ويلقى في سبيل دعوته ورسالته ما يلقى من أذى السفهاء وكيدهم.

وقد أكرمها الله سبحانه وتعالى بأن رزقها فقها وعلما، فهي سيدة فقيهه فاضلة، لها باع طويل لا ينكر في تبليغ الدين والدعوة، والتفقيه بالقرآن والسنة.

ولهذا فعندما نتحدث عن فقهها كنصوص، نجد أن هناك مواقف محدودة تعرضت فيها لبعض القضايا الفقهية، إلا أنها رضي الله عنها كانت تنظر بنور الله عز وجل، الذي نور قلبها وأكرمها وجعلها واحدة من أربع هن سيدات نساء العالمين، كن خير نساء الأرض أجمعين.

وإن كانت السيدة فاطمة - رضي الله عنها - قد شغلت بالمواقف العظيمة التي وقفتها، والبلايا العظيمة التي تصدت لها، فهي تقف إلى جوار المصطفى ﷺ في كل المحن التي مرت به، وكان لها دور كبير في رعايته عليه أفضل الصلاة والسلام، وخاصة بعد وفاة أمها رضي الله عنها حتى توفاه الله تعالى، ولعل الموقف العظيم الذي وقفته، كما يروي البخاري عن عبد الله بن مسعود، أن النبي ﷺ كان يصلى عند البيت، وأبو جهل وأصحاب له جلوس، إذ قال بعضهم لبعض: أيكم

يجيء بسلا جزور بني فلان، فيضعه على ظهر محمد إذا سجد، فانبعث أشقى القوم (وهو عقبة بن أبي معيط)، فجاء به، فنظر حتى إذا سجد النبي ﷺ فوضعه على ظهره، وأنا أنظر لا أغنى شيئا لو كانت لي منعة قال: فجعلوا يضحكون، ويحيل بعضهم على بعض (أي يتمايل بعضهم على بعض مرحا وبطرا) ورسول الله ﷺ ساجد لا يرفع رأسه، حتى جاءت فاطمة فطرحته عن ظهره. الحديث.[1] رضي الله عنها فقد كانت شجاعة وكانت وفية، كانت حياتها كلها تعبيرا عن فقه النبوة الذي تلقته عن المصطفى ﷺ، فجاءت نموذجا للمرأة المسلمة الصالحة الكاملة التي أخذت من ذلك الينبوع العظيم، ومن أخلاق أبيها وأخلاق أمها، ونشأت وترعرعت في مدرسة النبوة مما أعانها على القيام بتلك المهام الأساسية الكبرى.

وكل حياة سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء دروس وعبر وعظات، ففي صباها ناصرت الدعوة، ودافعت عن أبيها، وفي تزويجها وجهادها وصبرها على شظف العيش خير دليل على زهدها وصبرها، وهي في كل ذلك أسوة للبنات ا لمسلمات في بيوت الآباء والأزواج، ،تربية الأولاد أحسن ماتكون التربية .

وحسبها أنها كانت قرة عين المصطفى ﷺ، تربت في مدرسة النبوة، وفطرت على الذروة العليا من الخلق الكريم. وحسبها ما لقبها به ﷺ: «أم أبيها» رواه الطبراني، وحسبها ما قاله ﷺ «إن الله يرضى لرضاها ويغضب لغضبها» كما رواه الطبراني بإسناد حسن، وما عوذها به عندما أدخلها على علي رضي الله عنه: «إني أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم» كما رواه الطبراني.

---

(١) رواها البخاري (٢٤٠)، ومسلم ٣:١٤١٨ (١٠٧).

خديجة . . بل أُصَدِّق الله ورسوله

صورة عملية لمعنى اليقين

إذا رسخ الإيمان حتى بلغ حق اليقين، غمر النفس بسكينة لا تزلزلها الأحداث، ولا تعصف بها النوازل، مهما كانت شديدة الوطأة، مثيرة للوجدان والعواطف . . فرباط الإيمان يسكن القلب الجائش، حين تدلهم الأمور، فقد وصف الله حال أم موسى ساعة أن ألقت بولدها في اليم، وذكر أنه ربط على قلبها لتكون مؤمنة صابرة مصدقة بوعد الله لها، فقال: ﴿ وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا ۖ إِن كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِۦ لَوْلَآ أَن رَّبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾[1] وفي موقف الحديبية يذكر الله في سورة الفتح - ما يربط بين الثبات عند النوازل، وازدياد الإيمان واليقين - ويكرر ذلك في عدة مواضع من السورة.

ففي الاية الثالثة يقول سبحانه: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾[2]، وفي الآية الثامنة عشرة يذكر سبحانه أنه اذا علم صدق الايمان في قلب عبده، أنزل السكينة عليه، اذا نزلت به نازلة: ﴿ ۞ لَّقَدْ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنِ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ ٱلشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَٰبَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾[3]

واقرأ معي في الآية السادسة والعشرين من نفس السورة التي تبين

---

(١) سورة القصص ـ الآية: ١٠

(٢) سورة الفتح ـ الآية: ٤

(٣) سورة الفتح ـ الآية: ١٨

إسعاف الله سبحانه لعباده المؤمنين ساعة المواجهة مع عدوهم بإنزال السكينة عليهم، وتثبيت منطقهم فلا يقولون إلا ما يرضاه، وأنهم بإيمانهم ويقينهم أهل لذلك: ﴿ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾[1].

والآيات والمواقف في مثل هذا المقام كثيرة، مما ورد في بدر والخندق، وحنين وهكذا نجد العلاقة واضحة بين الإيمان والثبات، وبين الكفر والنفاق والجزع فقد وصف الله أهل الكفر بالهلع والجزع حيث قال عن يهود بن النضير في سورة الحشر: ﴿ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[2]

ويقول في بني قريظة من سورة الأحزاب: ﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ﴾[3] ووصف المنافقين وتزلزلهم أمام الشدة فيقول في نفس السورة: ﴿ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴾[4] ويصف انهيارهم قائلا: ﴿ فَإِذَا جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُواْ فَأَحْبَطَ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴾[5]

ويصف دخائل قلوبهم في سورة التوبة: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا

---

(١) سورة الفتح ـ الآية: ٢٦

(٢) سورة الحشر ـ الآية: ٢

(٣) سورة الأحزاب ـ الآية: ٢٦

(٤) سورة الأحزاب ـ الآية: ١٢

(٥) سورة الأحزاب ـ الآية: ١٩

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾[1]

وما سقناه في هذا المقام - من نزول السكينة في قلوب أهل الايمان بقدر إيمانهم، وعصف الزلزلة بقلوب أهل الفساد والكفر والنفاق - يصبح بمقتضى هذه النصوص القرآنية القاطعة ميزاناً نقيس به الإيمان، ومعياراً يكشف عن مقدار اليقين.

فإذا استعملنا هذا المعيار في تقويم مواقف أمنا الصادقة، والصديقة الأولى الصابرة سيدة نساء أهل الجنة خديجة بنت خويلد ـ رضي الله عنها ـ أدركنا الحقيقة، ورأينا الصور الصادقة لهذه السيدة الحبيبة.

واذا ما نظرنا في حادثة مهمة وموقف عصيب وهو يوم وفاة القاسم أو الطاهر على اختلاف الروايات - فالمهم هنا ما جرى منها لامن الذي مات، يروى السهيلي في الروض الأنف[2] «أن خديجة رضي الله عنها دخل عليها رسول الله ﷺ بعد المبعث وهى تبكي؛ فقالت: يا رسول الله؛ درت لبينه القاسم - تصغير لبنة - تعنى بقايا اللبن في ثديها - فلو كان عاش حتى يستكمل رضاعه؟ فقال لها: إن له مرضعاً في الجنة تستكمل رضاعته، قالت: لو أعلم ذلك لهون علي؛ فقال النبي ﷺ: إن شئت أسمعتك صوته في الجنة فأجابت: بل أصدِّقُ الله ورسوله!!.

يا لنفحات اليقين الإيماني في قلب هذه المكلومة بفقد ولدها، الملتاعة حين درَّ ثديها بلبنها ترضعه إياه، فبكت رحمة وحزناً وشوقاً إلى الرضيع، والوليد الذي باعد الموت بينه وبينها، ومع ذلك حين يعرض عليها الرسول أن يسمعها صوته في الجنة، لا تغلب لهفة الشوق، ولا الحنين المعتصر لدموعها عمق يقينها، وصدق إيمانها

---

(١) سورة التوبة ـ الآية: ٤٥

(٢) الروض الأنف ـ ١/ ١٢٣-١٢٤

فتأبى أن تسمع صوته بل تتسامى إلى أفق يقينها وبشرى زوجها.

إن أي أم غير خديجة الصديقة لو سمعت مثل هذا العرض لسارعت إلى طلب تحقيقه، تريد أن تسمع صوت الراحل الذي لن يعود أبداً، وتلح في ذلك ما شاءت، ولكنها ما تلهفت، ولا ألحت، لأن سكينة الإيمان الراسخ قهرت شوق الأم اللهفى.

فانطلق إيمانها قبل لسانها يقول في راحة المؤمن الذي يصدق خبر السماء، ولا تشوب تصديقه ريبة تطلب البرهان، أو تسأل في هذا الغيب المشاهدة والعيان، إنه يقين المؤمنة الصادقة المصدقة لرسول الله ﷺ.

من هنا ومن أحداث كثيرة مثل هذا عرفنا أثر الإيمان الصادق في النفس الصادقة، ومعدن اليقين الكامل حين تنصهر فيه النفس الكاملة، فيهبها كمالا لم تعرفه البشرية لأنه لا يتكرر، ونموذجا تحار فيه العقول والأفهام، لأنه فوق ما تتصور، وامرأة تخلل حب الله ورسوله كيانها، فصفا وأشرق وتحرر، وسما بها حتى أصبحت من سيدات نساء العالمين، وحبيبة سيد الأولين والآخرين، ولم تبال بمكائد الشيطانة حمالة الحطب أم جميل، ولا غلواء زوجها الحقود أبي لهب، يوم أن أقسما على ولديهما عتبة وعتيبة أن يطلقا ابنتيها رقية وأم كلثوم، مضارة لها وكرها، وتسفيهاً لدعوة زوجها وتكذيباً وزجراً، ونحن نعلم أنه لا شيء تضيق به الأم مثل طلاق بناتها، وأنها تدفع وقوع ذلك بكل ما تستطيع لو وجدت إلى ذلك سبيلا، وتجزع أشد الجزع إذا وقع ذلك لواحدة من بناتها، فما بالك بوقوعه لاثنتين دفعة واحدة دون ذنب لهما إلا أن أباهما الكريم نبي مرسل يدعو إلى الله، وأمهما صديقة طاهرة تؤازر دين الله، وتشد عضد زوجها وحبيبها الذي اصطفاه الله.

لكنها لم تبال ولم تعاتب، وثبتت على الحق مواسية كريمتيها، ولم تهن لما أصابها وأصابهما في سبيل الله، وما ضعفت ولا استكانت، وحسبها وحسب وجدانها الطهور أنها أرضت الله، وآمنت بالله، وصبرت لأمر الله محتسبة ما تلقاه هي ومن تحبهم عند الله. فكانت لها تلك المكانة التي لم تنلها امرأة غيرها عند الله وفي قلب رسول الله ﷺ.

حياة السيدة خديجة رضي الله عنها
من الزواج إلى البعثة

هناك سؤال حاولت أن أجيب عليه ورجعت الى عدد من المصادر أتتبعها فلم أجد جوابا شافيا متكاملا، والسؤال عن السيدة خديجة رضي الله عنها وماذا كانت تفعل في الفترة التي أعقبت الزواج من رسول الله ﷺ؟ والى حين نزول الوحي عليه فى غار حراء.. وما القضايا التي شغلتها؟.. وما الاحداث التي مرت بها؟ وماذا كان يشغل سيدنا محمد ﷺ؟ ولذلك فقد تابعت ما استطعت فى هذا المجال وجمعت ماتوصلت إليه من حياة السيدة خديجة رضي الله عنها، بعد الزواج من رسول الله ﷺ، وإلى حين البعثة وحاولت دراسة هذه الفترة التي تزيد عن خمسة عشر عاما تقريبا وماذا تم فيها؟ وبالذات فيما يخص السيدة خديجة بنت خويلد؟ وماذا فعل رسول ﷺ خلال هذه الفترة؟ هل كان يشتغل فى تجارة السيدة خديجة؟ أم هل كانت كلها سنوات تعبد؟ والسيدة خديجة ماذا كان يشغلها طوال هذه المدة؟.

وعندما بدأت الاجابة على هذه الأسئلة لاحظت أن السيدة خديجة رضي الله عنها بما جبلت عليه من فطرة كريمة وإنسانية عالية وحنان فياض ما إن تزوجت رسول الله ﷺ، حتى أحاطته بكل رعاية وعناية وحب، وكانت تحرص على كل مايرضيه، ولقد كانت هذه السنوات هي السنوات التي شغلت فيها السيدة خديجة رضي الله عنها بإنجاب أولادها جميعاً، فقد رزقت فى هذه الفترة بالسيدة زينب، ثم السيدة

رقية، ثم السيدة أم كلثوم، وبعبد الله الذي عرف بالطيب والطاهر، ثم القاسم الذي كان يكنى به رسول الله ﷺ، ثم بفاطمة الزهراء رضي الله عنها، وكانت السيدة خديجة منشغلة بتربية هؤلاء الاولاد من بنين وبنات، ثم شاء الله سبحانه وتعالى أن يختار إلى جواره سيدنا عبد الله الصغير، ثم القاسم، ولكنها فى الوقت الذي كانت قد انشغلت فيه بتربية هؤلاء الاولاد أراد الله سبحانه وتعالى أن يكرمها برعاية سيدنا علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وذلك عندما طلب رسول الله ﷺ من عمه أبي طالب أن يعطيه علياً ليربيه، وقد لاحظ كثرة الأولاد عنده فأراد أن يخفف عنه.

وقامت السيدة خديجة برعاية سيدنا علي بن أبي طالب، وحنت عليه كحنوها على أولادها، فتربى فى بيت النبوة بين سيد الأولين والآخرين وبين سيدة من سيدات نساء العالمين فشرب من مشرب النبوة العزم، والحزم، والهمة، والقوة، والشجاعة، والنجدة، والرجولة، ومن الأم الكبرى خديجة حسن السيرة، وطيب الخلق، ونقاء السريرة، والبذل والسخاء، وتربى هذا الفدائي على هذه الأسس العالية، والاخلاق الفاضلة، فكان منه ما كان ليلة الهجرة، وذلك الصمود الذي جعله يفتدي بنفسه رسول الله ﷺ، وينام فى فراشه، وهو يعلم أن القوم يترصدونه ويتربصون به في الخارج، وقد طمأنه الحبيب وهو يقول له ﷺ، والله لن يصلوا إليك يا علي، ثم كانت له تلك المبارزة فى يوم بدر، وكذلك الثبات العظيم فى يوم أحد، وفتكه بعمرو بن عبد ودّ المتكبر الذي استصغره واستكبر نفسه فأرداه سيدنا علي ـ رضي الله عنه ـ يوم الأحزاب. وهو فاتح حصن خيبر وقاتل مرحب بن منبه بطل اليهود العنيد، وكم قتل من صناديد اليهود وكان سيدنا علي صاحب

الراية يوم خيبر، وفاتح بابها، وهو حبيب رسول الله ﷺ، وحبيب سيدتنا خديجة، أحباه وتربى بينهما فكان ذلك الصنديد، وكان ذلك البطل الذي يتحدث عنه التاريخ حتى يومنا هذا، وهو من قال له الرسول ﷺ «أنت أخي في الدنيا والآخرة»[1] «أما ترضى أن تكون بمنزلة هارون من موسى»[2] وهو زوج الحبيبة أم أبيها فاطمة الزهراء وهو أبو الحسنين الحسن والحسين وزينب وأم كلثوم وأبو الأطهار من آل البيت الأخيار، ولاشك أن نسبه الكريم، وحسن تربيته على يد سيدة نساء العالمين السيدة خديجة، وتحت رعايتها هو ما ساهم فى بلورة شخصيته رضي الله عنه.

وبعد سيدنا علي بن أبي طالب، نشهد فضل هذه السيدة الكريمة وهى تربي بطلا آخر من حواري رسول الله ﷺ، وهو ابن أخي السيدة خديجة الزبير بن العوام بن خويلد رضي الله عنه، عندما مات أبوه وهو فى الثانية من عمره، وأمه صفية بنت عبد المطلب، وقد أرادت هذه السيدة أن تنكفىء على ابنها وتربيه، ولكن الأم الكبرى بحنانها وبعطفها وبإنسانيتها حرصت على أن يتربى هذا الانسان فى بيت النبوة، فيحظى بخير تربية بين أهل هذ البيت فيسلك مسلكهم ويشرب من مشاربهم.

وعاش الزبير بن العوام بينها وبين أمه صفية مكرماً من الجانبين، محفوفا بالكرامة، ومؤيدا بالعزة الالهية، فكان رابع من أسلم، وأول من سل سيفاً فى الاسلام على الكافرين، وكان دون الرابعة عشرة من عمره وهابته قريش رغم أنفتها وقوتها، وهو صاحب الجواد يوم بدر

---

(١) رواه الترمذي (٣٧٢٠) وقال: حسن غريب، والحاكم ٣: ١٤ وسكت عنه، لكن ضعفه الذهبي، كما ضعفه اخرون.

(٢) رواه البخاري (٣٧٠٦)، ومسلم ٤: ١٨٧٠ (٣١).

والثابت يوم أحد، يدفع الأشرار عن الوصول الى رسول الله ﷺ، ويفديه بنفسه بعد أن انهزم من انهزم وقتل من قتل من جيش المسلمين.

والزبير هو ذلك الرجل الذي كان له الدور البارز في حروب الردة، ولم يشق له غبار، وكان هو كاسر شوكة الروم في اليرموك، وفاتح حصن بابليون في مصر. وجاء ابنه عبد الله على منهجه، وأبناؤه كلهم أسود حرب، ورجال علم، وهمة ونجدة وعزيمة.

ثم هذا سيدنا زيد بن حارثه رضي الله عنه، هذا الابن المتبنى لرسول الله ﷺ، ولأمنا الكبرى خديجة، حيث ربته وعنيت به فكان ذلك الرجل الذي لايشق له غبار، ورعته زوج المصطفى ﷺ، بعد أن اشترته من سوق الرقيق، وهو من قبيلة كلب بني عامر، اختطفه المجرمون في غيبة عن أهله وأحبه رسول الله ﷺ، وعامله المعاملة الكريمة، ولما رأت السيدة الكبرى خديجة احسان زوجها المصطفى إليه، وهبته له فازداد حبه له، وازداد تعلق سيدنا زيد برسول الله ﷺ، فنسي أهله واعتبر رسول الله ﷺ، والسيدة خديجة هما أهله وعشيرته، وظل بنو عامر يبحثون عنه أكثر من عامين حتى أعلمهم بعض من رآه عند سيدنا رسول الله ﷺ، وشرح لهم كيف يعامله، وأنه يرعاه خير رعاية، وسمع أبوه وعمه بفضل هذا النبي الكريم وهذا الشريف من أشراف مكة، فذهبوا اليه وطلبوا منه أن يدفعوا له مايطلبه عليه الصلاة والسلام ليأخذوا ابنهم منه، فرفض رسول الله ﷺ، أن يفتديه بأى مال، وقال لهم لا أخذ منكم شيئاً ولا أسلمه لكم فتأثر أبوه وعمه فلما رأى تأثرهم قال رسول الله ﷺ، لأبيه وعمه هل لكما في خير من ذلك؟ فقالا وماهو؟ قال آتيكم بزيد وأخيّره بين البقاء معي وبين الذهاب معكم، فإن اختاركم فخذوه بدون أن أكلفكم شيئاً، وإن اختارني فلا أسلمه لكم، ولن أسلم من

اختارني لأحد فقال الأب والعم قولة واحدة: لقد أنصفتنا، وأحسنت إلينا، فأحضره رسول الله ﷺ، وقال يازيد أتعرف هذين الرجلين؟ قال نعم هذا أبي وذاك عمي فقال النبي ﷺ، ان شئت فاذهب مع أبيك وعمك، وإن شئت فابق معنا، فقال زيد: والله لا أختار أحدا غيرك فقال أبوه أتختار أن تكون عبداً على الحرية مع أهلك فقال زيد: ما أنا بالعبد مع سيدي الكريم بل أنا فوق الأحرار فوجم أبوه وعمه ولكن سيدنا رسول الله ﷺ، أمسك بيد زيد بين الناس وقال أشهدكم أن زيداً إبني أرثه ويرثني فصار زيد يدعى بعد ذلك زيد بن محمد ﷺ، فقال أهله: لك الحق يازيد أن تختاره علينا[1] فعاش فى رعاية سيدة نساء العالمين.

وظل يعرف بزيد بن محمد إلى أن جاءت رسالة السماء والنبوة لسيدنا محمد فكان زيد وعلي بن أبي طالب أول المسلمين، وتربى زيد على المثل العليا فى القوة والشجاعة والرجولة وفنون الحرب والاقدام والمروءة (فكان أول قائد يغزو دولة الروم فى الشام بثلاثة آلاف رجل) وسمي بعد ذلك باسمه الأصلي ولما نزلت الآية ﴿ ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[2]، سمي زيد بن حارثه ولما جهز رسول الله ﷺ المقاتلين لغزوة مؤته عين زيداً أميراً، وإن قتل فالأمير جعفر بن أبي طالب، فان قتل فالأمير عبد الله بن رواحه، فماذا كان موقف زيد عندما تكاثر الروم وزاد عددهم وأشار عليه بعض المسلمين بترك القتال والرجوع لأن القوتين غير متكافئتين فى العدد والعدة، لكن القائد الملهم زيداً قال

---

(١) جاء هذا المعنى في «الإصابة».

(٢) سورة الأحزاب ـ الآية: ٥

قولته المشهورة: إنما جئنا لإعلاء كلمة الله، أو الموت فى سبيل الله، والتقى بالروم يحصدهم حصداً حتى استشهد وسجل تاريخاً مشرفاً ومجداً عظيماً ذلك هو الشهيد زيد الذي تربى في مدرسة النبوة وفي كنف رسول الله ﷺ، وفي بيت المصطفى ولقد غرس زيد فى ابنه أسامة هذه الأخلاق الحميدة الرجولة والشجاعة والإباء فكان أن ترعرع أسامه بن زيد على نفس منهج أبيه، وأكرمه الله بنشأة حسنة فولاّه النبي ﷺ بعد أن وثق به قيادة الجيش الذي يحارب الروم، وهو مايزال فى السابعة عشرة من عمره فكان القائد الهمام الذي اعتز به الإسلام، وأدخل الرعب فى قلوب المرتدين من جزيرة العرب حين انتصر المسلمون على الروم، وهكذا استفاد من مدرسة الإقدام التي عاشها فى رحاب النبوة إنه أسامة بن زيد الذي تربى أبوه وأمه فى بيت رسول الله ﷺ، وأم اسامة هي أم أيمن هذه السيدة التي نالت الخير كله، وعاشت مع السيدة خديجة وكان زوجها زيد قائداً بطلاً، وابنها كذلك قائداً بطلاً بعد أبيه، وكانت هى مثلاً أعلى فى سمو الآداب ومكارم الاخلاق.

وزيد بن حارثة هو الوحيد الذي ذكر اسمه في القرآن من بين سائر الصحابة، وهو البطل الذي جعل نفسه فداء لرسول الله ﷺ من حجارة سفهاء الطائف، وهو الحب لرسول الله ﷺ حيث قال عنه رسول الله ﷺ لإبنه أسامة: «هو الحب ابن الحب».

ثم هناك ميسرة هذا الغلام الأمين الصادق الذي عاش عند السيدة خديجة، فكانت تعامله معاملة كريمة وتقدر له تصرفاته مع النبي ﷺ، وصدقه وأمانته، وكانت السيدة خديجة تتذكر بعد زواجها من الرسول الأعظم ﷺ، ما أخبرها به ميسرة عن جلوس النبي ﷺ، تحت الشجرة عندما كانوا في طريقهم إلى الشام، تلك الشجرة التي لايجلس تحتها

سوى الأنبياء كما أعلمه الراهب نسطورا، وقال له إن هذه الشجرة لايفطن لمنزلتها ومزيتها إلا المصطفون الأخيار، ولذلك لم تجلس تحتها قريش في رحلاتها إلى الشام ولم يفطن إليها أحد ولكن نزل عندها رسول الله ﷺ، فوعى ميسرة كلام الراهب وذكره بدقه للسيدة الكبرى كما سمعه، ولكونها سيدة أكرمها الله وشرح صدرها وهيأها لتكون بجوار المصطفى ﷺ فما إن ذكر لها ميسرة تلك القصة حتى وعتها واستوعبتها.

ثم إن السيدة خديجة -رضي الله عنها- كانت ترعى فى المنزل أولادها من زوجيها السابقين وتربيتهم على الخير والفضل وبذل المعروف، وكانت رضي الله عنها تتصدى لهذا الأمر بكل أمانة وعزم وإخلاص، وكانت تتحمل في تلك البيئة الحجازية كامل مسئولية هذه الأسرة، وتقوم بها خير قيام، وهو أمر فوق طاقة الأكثرين من الرجال الأقوياء الأشداء فضلا عن النساء، فقد كان رسول الله ﷺ يواصل مسيرته ليخرج الناس من الظلمات الى النور، وكان يتعبد قبل ذلك في غار حراء بعيداً عن الخلق لعله يجد الوسيلة لهداية قومه، ويلتمس طريقه إلى الله سبحانه وتعالى وكانت السيدة الكبرى مشغولة بالأسرة وتوفير مايلزمها، في الوقت الذي كانت تشتغل فيه بتجارتها التي تنفق منها على الأسرة، وعلى الوافدين على الساحة العظمى، وكان همها الأكبر هو سيدنا محمداً ﷺ، فكانت تذهب إليه فى غار حراء، في جنح الليل وشدة الظلام، فأي امرأة هذه؟! إنها الموصولة بالله رب كل شيء وهو الحافظ لها من كل شيء فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين، ثم كانت تصعد الجبل وتبذل الجهد الشاق الذي لايتحمله إلا القليل، وكانت تسير كل هذا الطريق لتوفر له المأكل والمشرب، وتسير إلى غار

حراء، في طرقات وعرة، ومرتفعات عالية، ومنخفضات هاوية، تسير بين الصخور والأحجار، لا تهتم إلا براحة رسول الله ﷺ، كانت تسير وهي واثقة بأنها في حماية الله ورعايته، وترى الحبيب ﷺ يناجي ربه، وتتأمل مقامه، وتود لو أنها كانت لها خلوة قريبة منه لتقوم بخدمته بصورة أكبر وأقرب، ولكنها تحرص على خصوصيته، وتؤثر أن تتركه فى وحدته مع الله عز وجل، وتعود إلى بيتها لترعى كل أولئك البنات والصبيان وتكرمهم وتوفر لهم ما يحتاجون إليه وهنا قد يسأل سائل لمَ لا تخاف السيدة الكبرى من جفوة الطريق وبعده السحيق، ولماذا لاتخشى من اللص الغادر، والمجرم الفاجر، أو السبع الكاسر، وهى امرأة وحيدة لاحول لها ولا قوة، تسير فى جنح الليل وظلامه، بين الصخور والمرتفعات، ولا تخشى أحداً أبداً، لماذا لم تخف هذه السيدة؟.

وكانت امرأة ذات أهداف نبيلة، حفظها الله وأكرمها وكرمها، شأنها في ذلك شأن أولئك النفر الذين حفظهم الله عز وجل، أمثال سيدنا عمر رضي الله عنه الذي قال عنه رسول الله ﷺ: «ماسلك عمر بن الخطاب فجاً إلا وسلك الشيطان فجاً آخر»(١) وقال أيضاً «إن الشيطان ليخاف منك يا عمر»(٢) وقد حفظ الله سبحانه وتعالى خديجة وأمنها وأمن روعها، ذلك الرب الكريم الذي رعى رسول الله ﷺ، وصاحبه فى الغار ﴿ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) رواه البخاري (٣٦٨٣) ومسلم ٤: ١٨٦٣-١٨٦٤ (٢٢) بلفظ: «والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجاً قطُّ إلاَّ سلك فجاً غيرَ فجك».

(٢) رواه أحمد ٥: ٣٥٣ من حديث بريدة الأسلمي بإسناد صحيح بلفظ: «إن الشيطان ليَفْرَق منك يا عمر».

مَعَنَا﴾[1] وكذلك كان الله مع هذه السيدة يحفظها ويرعاها، وقد هيأها لمهمة شاقة تتحمل فيها أعباء رعاية رسول الله ﷺ، فى سعادة وهناء وفرح وتحملت أعباء الاهتمام بمنزلها وبكل الذين يعيشون فيه مع تنوعهم وتعدد منابتهم، لكنهم كانوا في وئام كامل، وماسمعنا عنهم ولا فيما بينهم مماراة، ولا مخاصمة، ولا مجافاة، بل كانوا جميعاً إخواناً متحابين، فسبحان من نزع ما فى صدورهم من غل فعاشوا تحت ذلك الظل، في رحاب السيدة ورعايتها رضي الله عنها، وكانت توفر لهم ما يحتاجون إليه من مطالب الحياة في وقت كان فيه الناس يعانون من ضيق العيش وقلة القوت، فى واد غير ذي زرع عند بيت الله المحرم، وكل ذلك كانت توفره السيدة خديجة رضي الله عنها لأولادها، ولمن ترعاهم فى منزلها من أهل رسول الله، إنها سيدة ثبتها الله بالقول الثابت، وجملها بالتقوى، وقواها بالعزيمة الصادقة، واختارها لتكون بجوار رسول الله ﷺ.

(1) سورة التوبة ـ الآية: ٤٠

أيام حـراء

هذا فصل خصصته عن خديجة -رضي الله عنها- مع زوجها الأمين ﷺ أيام حراء، وتَعَبّده هناك في غار حراء، فمنذ ضمهما البيت السعيد قامت رضي الله عنها بواجبها كاملاً نحو زوجها الحبيب، فملأت أيامه سعادة وهناء[1]، تتحسس مراضيه فتسارع إليها، وتجعل نفسها وما لها وحياتها وكل ما تملك ومن تملك موقوفاً على راحته، مبذولاً في حبه، فلا شيء عندها أعز من بسمة رضا تراها ترف على وجهه الكريم، ولا شيء مهما كان إلا وهو فيما يشاؤه مبسوط ومبذول. وانظر إليها حين رأته ﷺ يعطف على غلامها زيد بن حارثه ويكرمه، فهو أول من أسلم من العبيد. فسارعت تقدمه إليه هدية - وتهبه له ملكاً خالصاً.

وتأمّل في ودها ورعايتها لعلى بن أبي طالب في بيتها كأنه أحد أبنائها، حين أحضره النبي ليكفله تخفيفاً عن أبي طالب لما اشتدت السنون وضاقت به الحال.

وانظر إلى مالها تبسط يده ﷺ فيه، لا تراجعه في أمر، ولا ترده عما يشاء.

وانظر إلى إكرامها لكل من له ﷺ به صلة، أو له عنده يد أو مكرمة. ويوم حُببت إليه الخلوة، وصار يتجه إلى غار حراء، يعتكف متأملاً، ويتعبد متبتلاً، فلم تعاتبه على غياب، ولم تسأله عن ذهاب أو إياب، ولم يكن موقعها في هذا موقف الراضي المستسلم وحسب، وإنما

---

(١) المحيط ١/٣٥

موقف المعين المدعم، تجهز وتعد له ما يحتاجه فى خلوته تلك من طعام وشراب ومهاد، تجهزه قبل خروجه، وتحمل إليه إن طالت غيبته فوق ما يكفيه ما حمله معه، وترسل إليه إن تأخر، بل وتحمله بنفسها إلى متعبده البعيد فى حراء ـ والذى لا يقل بعده عن ثلاثة أميال – تصعد بعدها الجبل الشاهق إلى ذروته، حيث الغار قائم إلى اليوم، يجهد الفتى الصاعد إليه فما بالك بها.

وفي بعض الأحيان كانت تصحبه فى خلوته هذه، تخدمه وتؤنسه، وتسقيه وتطعمه، وتشد عزمه فيما توجه إليه من نسك وتأمل.

وكثيراً ما وافاها صاعدة إليه، فتلقاها فى السفح، وباتا معا فى شعب قريب من الجبل، ويسمى مكانه الآن بمسجد الإجابة.

وكثيراً ما كانت تصعد إليه فى غار حراء، فلا تجده أحياناً، فتبحث هنا وهناك حول الغار، فإذا أعيت بثت في الجبل ومن حوله من ينشده، حتى تطمئن وتوقن بأنه سالم موفور فيجدونه في بعض الشعاب أو على سفح الجبل متأملاً شاخصاً، فيعودون إليها مبشرين بسلامته.

وكانت أيام خلوته هذه تطول وتقصر ـ حسب الحال ـ فربما نفد زاده سريعاً إذا غشيه بعض العابرين بالجبل فيطعمهم، فيعود سريعاً ليتزود لمرة أخرى.

فيكون مكثه أحياناً بضعة أيام قد تكمل عشراً، وقد تزيد حتى تبلغ شهراً، خاصة فى رمضان الذى كان كثيراً ما يتمه فى خلوته. يطعم الخبز، ويأتدم الزيت، حتى جاءه الوحي.

وفي أيامه التي ينزل فيها من حراء، كان يسعى كشأن الرجل فى مكة متاجراً، وقد كان له شريك فى الجاهلية يسمى أبا السائب ـ صيفي بن أبي السائب ـ وقد ورد أنه قدم عليه يوم الفتح فتلقاه بالبشر قائلاً: مرحباً

بأخي وشريكي، ومدحه قائلاً عنه: كان لا يداجي (أي لا يرائي) ولا يماري وإن كان معلوماً أنه كان يبيع ويشتري قبل النبوة، ولكن شراءه بعد النبوة كان أكثر من بيعه، وبعد الهجرة لم يبع إلا ثلاث مرات، وأما شراؤه بعدها فكثير.

ولما أصبح في عقده الرابع بدأت تظهر له المبشرات، يسمعها أو يراها، يقظة أو مناماً، مثل سماعه نداء يأمره بستر عورته حين كان يحمل الأحجار من أجياد لبناء الكعبة، ومثل تسليم الحجر والشجر عليه، وفي هذا يقول البوصيري:

والجمادات أفصحت بالذي أخرس عنه لأحمد الفصحاء

ويقول السبكي في تائيته:

وما جزت بالأحجار إلا وسلمت عليك بنطق شاهد قبل بعثة

فكانت خديجة ـ رضي الله عنها ـ إذا سمعت من ذلك شيئاً زاد يقينها فيما ظنته يوم اختارته من بين الناس زوجاً، وتأكد لديها ما توقعته من أنه نبي آخر الزمان المنتظر.

ومن ذلك مارواه عمرو بن شرحبيل أن رسول الله ﷺ قال لخديجة: «إذا خلوت سمعت نداء أن يامحمد يامحمد، وفي رواية: أرى نوراً أي يقظة لامناماً وأسمع صوتاً، وقد خشيت أن يكون والله لهذا أمر» فقالت كلا يا ابن عم، ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة وتصل الرحم، وتصدق الحديث.[1]

وروي أن إسرافيل عليه السلام كان ينزل على النبي ﷺ، ويحمل له الوحي، واستمر ذلك ثلاث سنوات، ما عدا القرآن، فالقرآن نزل

---

(١) رواه ابن أبي شيبة (٣٧٢٥٨) من طبعة دار القبلة، والبيهقي في «دلائل النبوة» ٢: ١٥٨ وليس فيه «أرى نوراً».

بواسطة جبريل فقط عليه السلام، وحديث بدء الوحي في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها قالت: أول ما بديء به رسول الله ﷺ الرؤيا الصالحة، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله، ويتزود لذلك ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء، فجاءه الملك جبريل بصورة إنسان فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقاريء. قال: فأخذني فغطّني حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقاريء. فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني. فقال: اقرأ. فقلت: ما أنا بقاريء. فأخذني فغطّني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[1].

فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده، فدخل على خديجة بنت خويلد رضي الله عنها فقال: زملوني.. زملوني. فزملوه حتى ذهب عنه الروع. فقال لخديجة وأخبرها الخبر: لقد خشيت على نفسي[2].

وهنا تقف العقول في عجب من يقين هذه المرأة الفذة وجوابها لزوجها في هذا الموقف الذي يزلزل صناديد الرجال، ويبعث أول ما يبعث في أي امرأة سواها الخوف والجزع.

ولكنها خديجة الحازمة المتطلعة إلى نبأ الغيب، المتشوقة إلى أملها

---

(١) سورة العلق ـ الآيات: ١-٥

(٢) رواه ابن سعد ١:١٩١، والبيهقي في «الدلائل» ٢:١٣٢ عن الشعبي مرسلاً، وعرضه ابن سعد على شيخه الواقدي فأنكره، وقال الصالحي في سيرته الشامية ٢:٣١٠ بعد كلامٍ طويل «فظهر أن المعتمد ما مشى عليه الواقدي.

في أن يكون زوجها الحبيب صاحب البشرى، وموئل النبوة ومقصد الوحي من السماء، فكان جوابها الذي روته كل السير وأثبته أهل الصحاح والسنن، كان جوابها الذي صب في وجدانه السكينة، وغشاه وهي تدثره وتضمه إليها بالطمأنينة: «لا والله لا يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق».

فانطلقت به خديجة حتى أتت ورقة بن نوفل ابن عم خديجة، وكان امرأ تنصر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب من الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي، فقالت له خديجة: يابن عم اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ماراًى. فقال له ورقة: هذا الناموس الذي نزل الله على موسى، ياليتني فيها جذعاً ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك! فقال رسول الله ﷺ: أومخرجي هم؟. قال: نعم. لم يأت أحد قط بمثل ماجئت به إلا عودي، وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً. ثم لم ينشب ورقة أن توفي وفتر الوحي.

وفى نفس المصدر حـ ١ صـ ١٦٤.

عن يحيى بن بكير قال: سألت جابر بن عبد الله رضي الله عنهما عن ابتداء الوحي، أي بعد فترته، فقال: لا أحدثك إلا ماحدثنا به رسول الله ﷺ قال: جاورت بحراء، فلما قضيت جواري هبطت، فنوديت عن يميني فلم أرشيئاً، فنظرت عن شمالي فلم أر شيئاً، فنظرت عن خلفي فلم أرى شيئاً، فرأيت شيئاً بين السماء والأرض وفي رواية: فإذا الملك الذى جاءني بحراء على كرسي، فرعبت منه فأتيت خديجة فقلت دثروني دثروني، وفي رواية زملوني زملوني، وصبوا علي ماءً بارداً،

فنزلت هذه الآية ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ﴾[1] .

وواكبت خديجة الوحي قرآناً وتكليفاً منذ نزوله، فحين علم جبريل عليه السلام النبي ﷺ الوضوء والصلاة، قبل فرضها خمس صلوات. صلت رضي الله عنها معه في نفس اليوم كما أورد أهل السير ـ فكانت أول من صلى من هذه الأمة.

يقول دحلان حـ١ صـ١٦٨ :

وقد روي أن جبريل ظهر له ﷺ في أول ما أوحي إليه في أحسن صورة، وأطيب رائحة وهو بأعلى مكة، وفي رواية. بجبل حراء فقال: يامحمد، إن الله يقرئك السلام ويقول لك: أنت رسولي إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء، فتوضأ منها جبريل عليه السلام، ورسول الله ﷺ ينظر إليه، ليريه كيفية الطهور للصلاة، ثم أمره أن يتوضأ كما رآه يتوضأ، ثم قام جبريل يصلي مستقبلاً الكعبة وأمره أن يصلي معه فصلى ركعتين ثم عرج إلى السماء ورجع ﷺ إلى أهله، فكان لا يمر بحجر إلا وهو يقول: السلام عليك يارسول الله، فسار ﷺ حتى أتى خديجة رضى الله عنها فأخبرها، فغشي عليها من الفرح، ثم أخذ بيدها وأتى بها إلى زمزم فتوضأ ليريها الوضوء، ثم أمرها فتوضأت، وصلى بها كما صلى به جبريل عليه السلام. وهي بهذا أول من آمن. . وأول من ثبت. وأول من توضأ وأول من صلى قال في المواهب اللدنية:

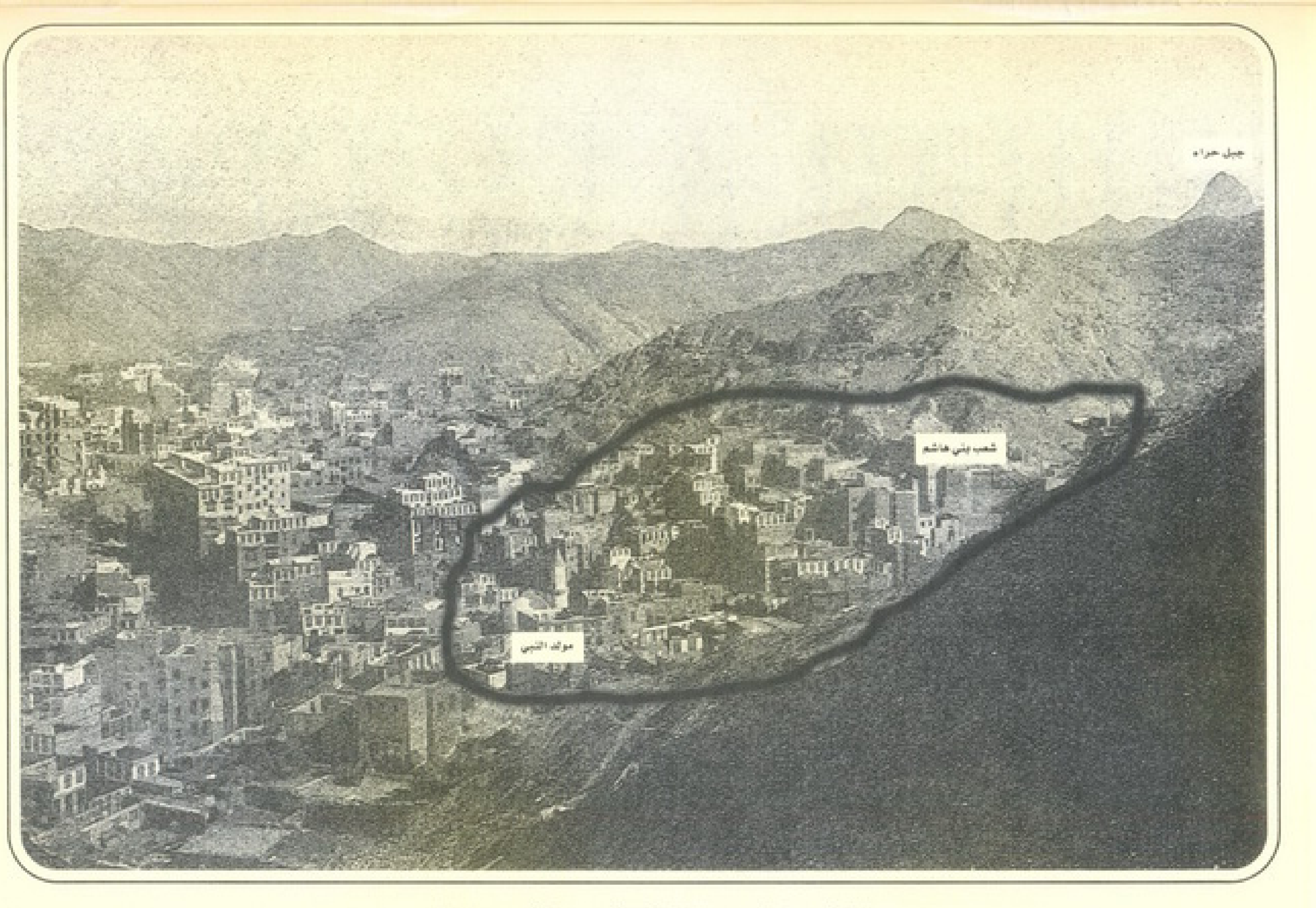
أول من آمن بالله، وصدق برسول ﷺ: صديقة النساء خديجة رضي الله عنها، فقامت بأعباء الصديقية. وكانت تقول للنبي ﷺ: أبشر فوالله لا يخزيك الله أبداً، واستدلت على ذلك بما فيه من الصفات الحميدة،

---

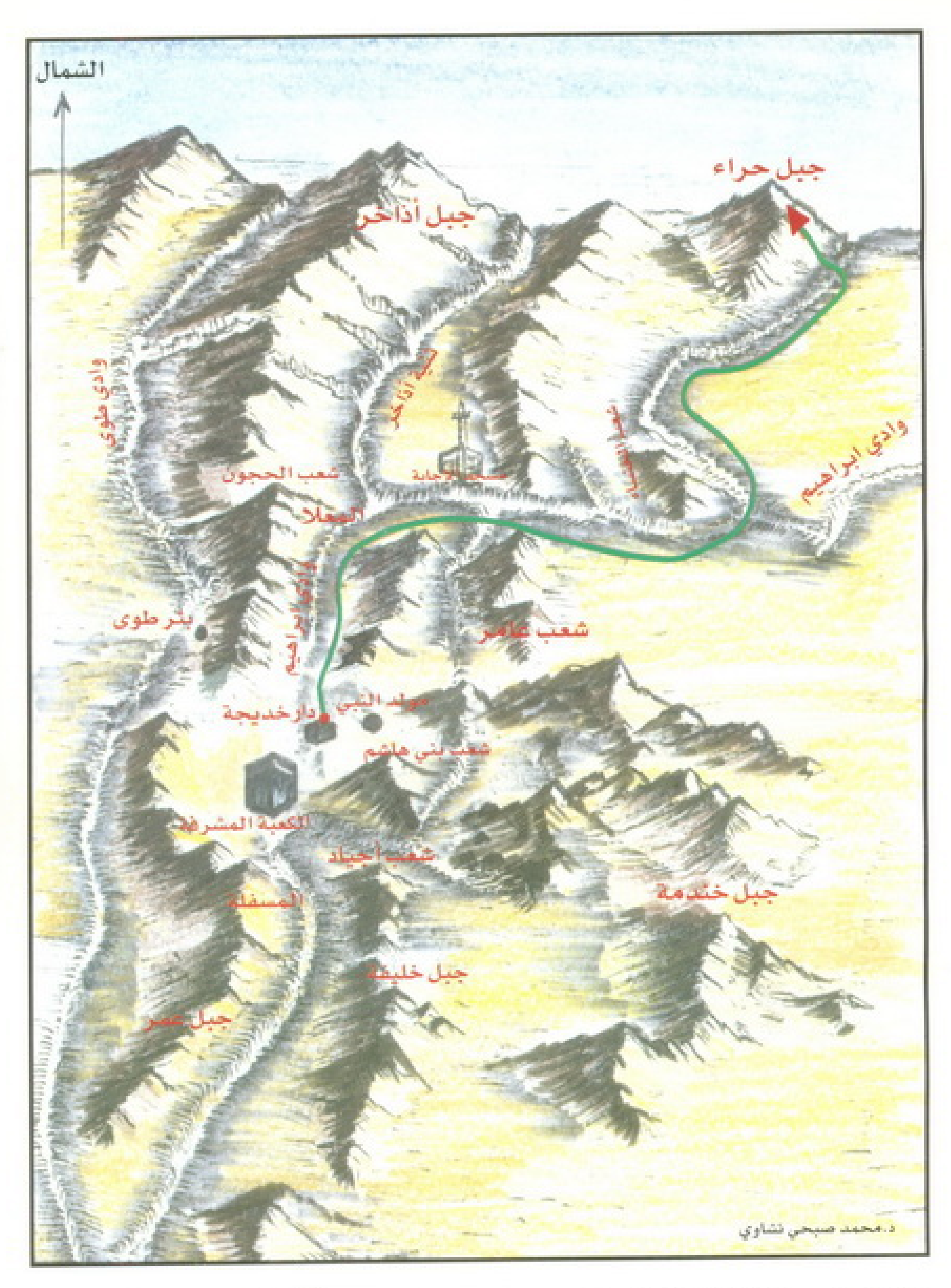
(١) سورة المدثر الآيتان: ١-٢

كقرى الضيف وحمل الكل، وعرفت أن من كان كذلك لا يخزى أبداً، وهو من بديع علمها رضي الله عنها.

ولما استعلن بالرسالة، وأعرضت قريش عن الإيمان، وكذبته وآذته بالقول والفعل، وجاهرت في عدائه، وتعذيب أصحابه، كانت خديجة المواسية الرؤوم خير من يخفف عنه ألمه، ويهون عليه أمرهم وما يكرهه منهم.



منظر قديم لجانب من منازل مكة وغار حراء الشهير بجبل النور



خارطة لبعض جبال مكة المكرمة وأوديتها وهي توضح مسيرة رسول الله ﷺ والسيدة خديجة رضي الله عنها من منزل رسول الله ﷺ وأم المؤمنين خديجة إلى غار حراء في جبل النور



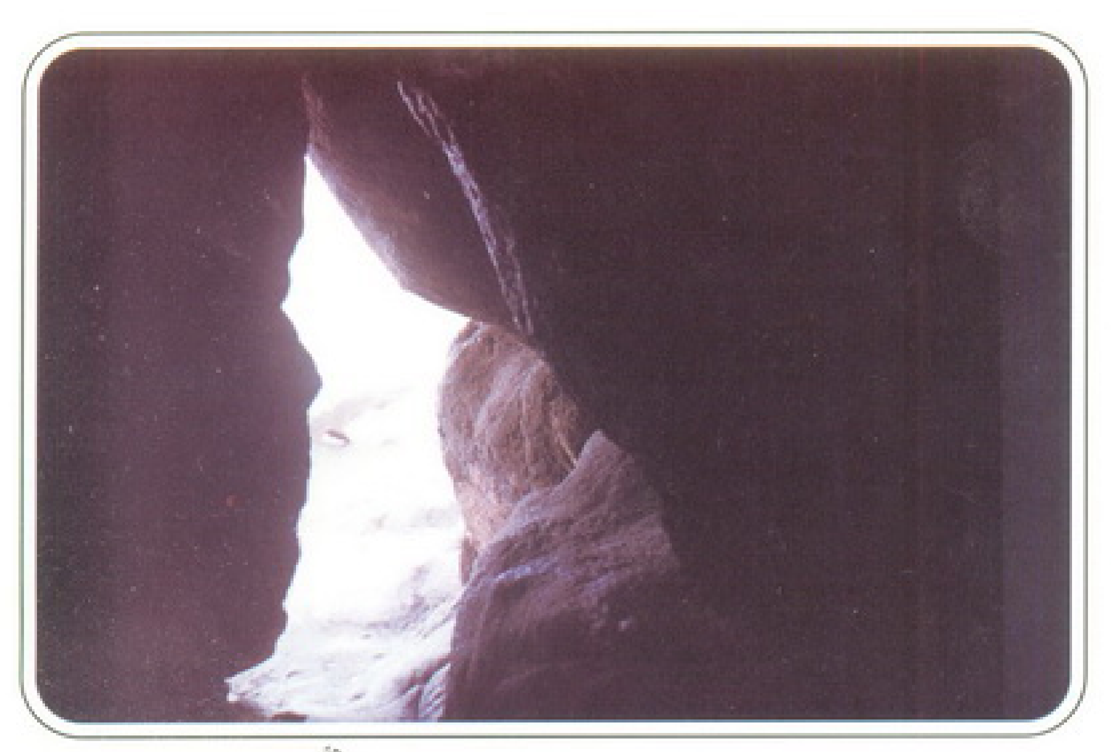
صورة مسجد الإجابة ويقع في منتصف الطريق بين غار حراء ومنزل السيدة خديجة
وقد أقيم في المكان الذي كان يلتقي به الرسول ﷺ في بعض الأوقات
بالسيدة خديجة بدلاً من صعودها إلى جبل النور



منظر لجبل النور ... على قمة غار حراء وهو يطل في شمم على مكة المكرمة



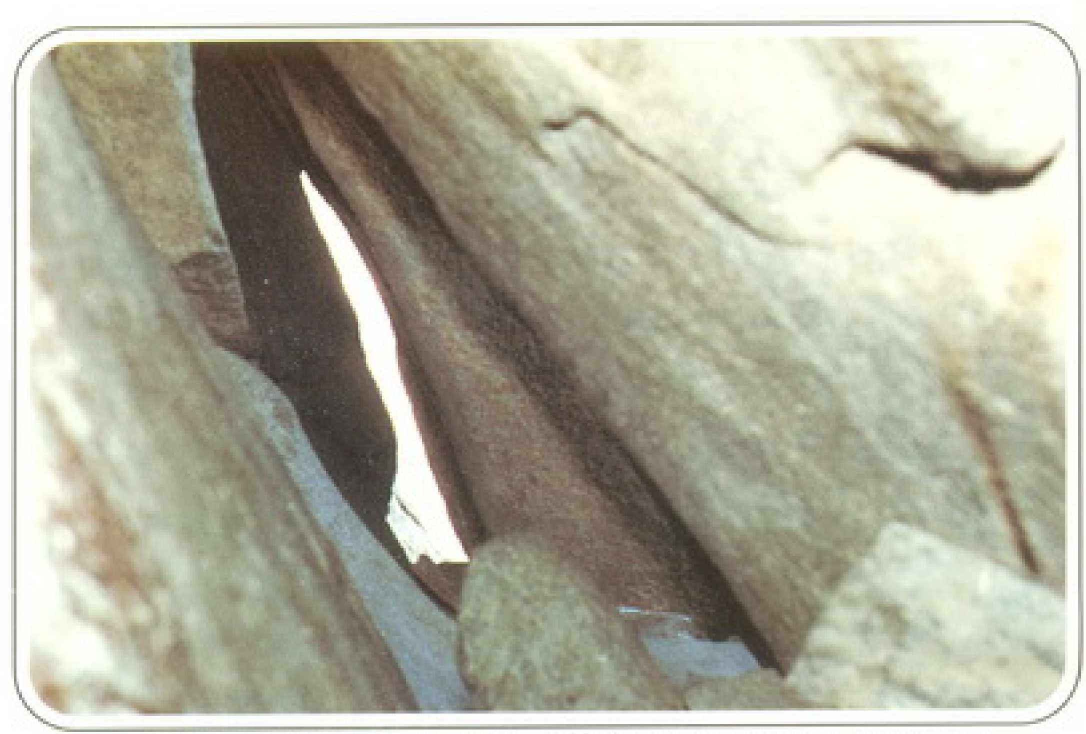
مدخل من أعلى الجبل إلى داخل الغار



مدخل الغار حيث كان يدخل رسول الله ﷺ



منظر من داخل الغار حيث كان يتعبد رسول الله ﷺ
وتظهر في آخر الصورة فتحة يمكن أن يرى من خلالها الحرم الشريف



فتحة نافذة داخل الغار تطل على مكة المكرمة ويمكن أن يرى من خلالها الحرم المكي الشريف
منظر لمكة المكرمة من داخل الغار



منظر لمكة المكرمة من داخل الغار

بدء الوحي . . والطاهرة . . وورقة بن نوفل

وهذه صورة أخرى مشرقة من صور حياة السيدة خديجة، فما إن حدثها رسول الله ﷺ بخبر السماء ونزول الوحي عليه حتى كان لها ذلك الموقف المشرف، فزملته ودثرته، وثبتته وآمنت به، ثم لم تكتف بذلك فسلكت كل السبل للاطمئنان على الدعوة في مهدها.

كانت خديجة قد سمعت من ميسرة عندما أرسلت محمداً ﷺ في تجارتها أموراً عظيمة، قال ميسرة: «خرج ﷺ حتى قدم الشام، فنزل في سوق بصرى في ظل شجرة، قريباً من صومعة راهب من الرهبان يقال له «نسطورا» فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه فقال: ياميسرة: من هذا الرجل الذي نزل تحت هذه الشجرة؟. فقال: هذا من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت الشجرة قط إلا نبي (يريد ما نزل تحتها هذه الساعة إلا نبي)، واذا صحت رواية من قال في هذا الحديث (لم ينزل تحتها أحد بعد عيسى ابن مريم)»[١].

ثم حضر رسول الله ﷺ سوق بصرى، فباع سلعته (أي تجارته) التي خرج بها، واشترى ما أراد ان يشتري، فكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل: احلف باللات والعزى، فقال رسول الله ﷺ: «ماحلفت بهما قط وإني لأمر بهما فأعرض عنهما» فقال الرجل: القول قولك. (وقال لميسرة: أتعرف هذا؟ قال: نعم. قال: الزمه فإنه نبي).

ثم أقبل رسول الله ﷺ قافلاً إلى مكة ومعه ميسرة، فكان ميسرة إذا

---

(١) سيرة ابن هشام.

كانت الهاجرة واشتد الحر يرى ملكين يظلانه من حر الشمس وهو على بعيره.

فلما قدم مكة، باعوا متاعهم الذي جاءوا به، وربحوا ربحاً لم يربحوا مثله قط، فقال ميسرة: أتجرنا لخديجة أعواماً كثيرة، ما رأيت ربحاً قط أكثر من هذا الربح على وجهك، فلما رأت خديجة أن تجارتها قد ربحت أضعفت له ما سمت.

ولما دخل ميسرة على خديجة أخبرها بقول الراهب نسطورا، وقول الآخر الذي خالفه في البيع.

كانت خديجة تتوقع ماحدثها به ميسرة منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، فأصبحت تعرف كل خلجة من خلجات مشاعره وأحاسيسه، فقد كانت قريبة من عقله وقلبه، متربعة في وجدانه، ولم يكن ﷺ يخفي عنها شيئاً مما يلم به، بل كان يفضي إليها بكل مايجول بخاطره وما يجري معه فى أدق تفصيلاته.

لقد بدأ ذلك الوحي بالرؤيا الصادقة، فلم يكن يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح فى الصدق والتحقق، ولكنها كانت مؤمنة بأن الله لا يريد به إلا خيراً.

ثم حبب إليه الخلاء ليتفكر في هذا الكون ومنشئه ومدبره، وكان من المتوقع من زوجة في مثل عطفها وحبها ألا ترضى بابتعاد زوجها عنها يوماً واحداً، فكيف بأيام واسابيع.

لكنها خديجة ذات العقل والقلب الكبير والفكر الراجح، تؤيده في هذا وتزوده ليخلو بنفسه هناك في غار حراء، يتحنث فيه (يتعبد) الليالي ذوات العدد، ثم يعود إليها حيث السكن والطمأنينة ثم يتزود لمثلها، وكل ما تراه الآن وماتحسه حولها، ومايحدثها به الصادق

الأمين يؤيد ما تتوقعه وما كان حدث به ميسرة.

قد جاءها الزوج الحبيب خائفاً مرتعداً ترجف أطرافه، ويخفق فؤاده، وهو يطلب عندها الاطمئنان قائلاً: دثروني.. دثروني، وفتحت له قلبها وآوته وزملته ودثرته، وأخبرها بنبأ الوحي وقال لها: لقد خشيت على نفسي.

فكان جواب السيدة العظيمة: «كلا، والله لا يخزيك الله أبداً»، إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتقري الضيف وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر)

ماأروعه من موقف وما أجل ماحباك به الله أيتها الطاهرة من عقل وحكمة!! وما أعظم ما استقبلت به النبأ الذى هز المصطفى الحبيب وروعه!!

وهكذا جعلها الله عوناً ووزيراً لحبيبه ﷺ تشد أزره وتثبته وقد روى البيهقي في الدلائل: ان خديجة رضي الله عنها قالت لرسول الله ﷺ فيما كانت تثبته: يابن عم هل تستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك اذا جاءك؟ فقال: نعم. فقالت: إذا جاءك فأخبرني. فبينا رسول الله ﷺ عندها إذ جاء جبريل، فرآه رسول الله. فقال: ياخديجة هذا جبريل قد جاءني. قالت: يابن عم قم فاجلس على فخذي اليسرى. فقام فجلس عليها. فقالت: هل تراه ؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاجلس على فخذي اليمنى. قالت: فتحول فجلس على فخذها اليمنى. فقالت: هل تراه ؟ قال: نعم. قالت: فتحول فاجلس في حجري. قالت فتحول فجلس في حجرها. قالت: هل تراه ؟ قال: نعم. قال: فتحسرت وألقت خمارها ورسول الله ﷺ جالس في حجرها. ثم قالت له: هل تراه ؟ قال: لا. قالت: يابن عم اثبت وأبشر

فوالله إنه لملك، وماهذا بشيطان.[1]

وقبل أن نسترسل في هذه القصة الهامة دعونا نتوقف لحظة عند هذا الموقف من السيدة خديجة، لأن قولها للنبي (عندما حدثها عما رآه حين جاءه الوحي أول مرة (والله ما يخزيك الله أبدا إنك لتصل الرحم وتحمل الكل وتكسب المعدوم وتقرى الضيف وتعين على نوائب الدهر).

لقد أقسمت بأن الله تعالى لا يخزي من يحمل تلك الصفات وفي قسمها هذا إشارة واضحة إلى صفاء فطرتها، وإلى ثقتها العظمى بالله تعالى، وفي ذلك إشارة أيضاً الى أن هذه الصفات ممدوحة في كل زمان ومكان، وهي صفات اجتماعية فيها معنى التكافل والتعاون، وقد حث عليها ربنا سبحانه في الشرائع السابقة ثم في شريعة الإسلام.

لعل الجواب هناك عند ابن عمها ورقة بن نوفل ولماذا ورقة بن نوفل؟

انها تعرف أنه امرؤ نبذ أوهام المجتمع المكي وترهاته وأوثانه وتنسك منذ دهر.. وتوجه بقلبه وعقله إلى عبادة الله.. وراح يبحث ويدرس في الديانات السماوية الباقية، درس اللغة العبرانية وقرأ بها الانجيل -وربما قرأ التوراة- واتخذ النصرانية ديناً لأنه شعر بأنها الديانة الوحيدة القريبة من الحق، لقد قرأ الإنجيل ودرسه بالعبرانية، دراسة متأنية، واختار وكتب لنفسه ماشاء الله له أن يكتب[2]، وتعمق في الإنجيل وفهم مافيه من بشارات فهماً حقيقياً دون تبديل وعلم منه أن نبيا قد أظل زمانه، وعلماء أهل الكتاب ينتظرونه.

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٣٩

(٢) فتح الباري، شرح الحديث (٣) من بدء الوحي ١/ ٣٤

وأقبلت إليه ومعها الرسول الكريم ﷺ، ثم قالت: ياابن عم اسمع من ابن أخيك.

فقال له ورقة: ياابن أخي ماذا ترى؟

فأخبره رسول الله ﷺ خبر مارأى. فاهتز ورقة اهتزازاً عنيفاً وما تمالك أن هتف: هذا الناموس الذي انزله الله على موسى ياليتني فيها جذعاً (شاباً قوياً) ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك «فقال رسول الله ﷺ أو مخرجيّ هم؟ قال: نعم، لم يأت رجل قط بمثل ماجئت به الا عودي وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

لقد أيقن ورقة أنه النبي الذى ينتظره وينتظره معه علماء أهل الكتاب أن رب السماء قد اختار محمداً لحمل آخر رسالة من السماء إلى الأرض، لقد امتلأ قلبه إيماناً مع إيمانه ونطق بتلك الكلمات التى تهز المشاعر: ياليتني فيها جذعاً. ليتني أكون حياً إذ يخرجك قومك.. وإن يدركني يومك أنصرك نصراً مؤزراً.

وسمع الرسول الكريم ﷺ كلمات ورقة وتيقن أنه مختار من رب السماء. وسمعت السيدة الطاهرة تلك الكلمات، فكان سرورها عظيماً.

ما أعظم حظها حين اختارت المصطفى ﷺ زوجاً لها، وما أعظم ماحبتها به القدرة الإلهية وما أكرمها به رب السماء إذ جعل بيتها مهبط الوحي، واختار زوجها الحبيب ليكون نبياً، وما أعظم سعادتها وهي تعود بالمصطفى إلى بيتها.

هل يمكن لبشر أن يتخيل تلك اللحظات التى عاشتها تلك السيدة العظيمة الطاهرة، وهي تستمع إلى ابن عمها الشيخ الورع الزاهد يقول بقلب مطمئن: إنه نبي هذه الأمة، وكان ورقة بن نوفل قد كبر وعمي،

ولم يعد يبصر، ولكنه كان فرحاً بلقاء الرسول سيدنا محمد ﷺ، وفرح وهو يسمع منه إرهاصات النبوة وتباشير الرسالة.

لقد كانت سعادتها غامرة وهي تتلقى البشرى بأنه رسول الله ﷺ، وأنه نبي هذه الأمة، هذه الكلمات من ورقة ابن نوفل جعلتها سعيدة، وغمرت قلبها فرحاً وسروراً، فقد جاءت تأكيداً لما كان يحدثها به زوجها الأمين، ولما كانت تراه من رؤى، وتشعر به من مشاعر، ثم كيف كانت ترى رسول الله ﷺ وقد حبيت إليه الخلوة، وأصبح يميل إلى البعد عن الناس، فلما جاءها بخبر السماء، وآت يأتيه ورؤيته للملك، ثم كيف فاجأه الوحي في غار حراء، كل هذه الأمور جعلتها أول المؤمنين وأسرع المصدقين، ولم تكتف بذلك بل حرصت على إعانته في تحمل هذا العبء: **(اصبر ياابن العم.. فاني والله احسب انك لنبي هذه الأمة المنتظر)**.

سبقت الدنيا كلها بالايمان.. بمجرد أن أخبرها بنزول جبريل وبدء الرسالة السماوية.

كانت أول من آمن..

كانت أول من صدق..

كانت أول من وقف معه..

كانت أول من صلى معه قبل أن تفرض الفرائض..

ورجعت إلى بيتها وهي سعيدة فرحة بنشوة البشرى، وأدركت عظم المسئولية الملقاة على هذا الحبيب بمجرد ما سمعت من خبر السماء: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾[1] وصممت الطاهرة واستعدت لتحمل المسئولية مع رسول الله ﷺ،

---

(١) سورة المدثر ـ الآيات: ١-٥

وثبتت تعينه وتؤيده وتنصره وتقف معه، فقد اختارها الله سبحانه لتكون عوناً لنبيه ﷺ رضي الله عنها وأرضاها.

وظلت على ذلك الحال.. وبقيت على تلك الصورة المشرقة صادقة.. مصدقة مؤمنة.. محتسبة مضحية بكل ما تملك في سبيل عون رسول الله ﷺ حتى يؤدي حق الله.. ويبلّغ الرسالة ويؤدي الأمانة.. إنها خديجة الزوجة المؤمنة.. والرفيقة.. والمعينة.. والمؤيدة.. والمدثرة.. والمزملة.. رضي الله عنها وأرضاها.

البشـــرى

حبب إلى رسول الله ﷺ الخلوة، فكان يذهب إلى غار حراء يتعبد فيه الليالي ذوات العدد، ثم يعود إلى خديجة ليتزود لمثلها.

وأنه ظل بعد نزول الوحي يتردد إلى حراء ويتعبد فيه، وها هي ذي خديجة الطاهرة تزوده بالطعام والشراب ليتفرغ للعبادة، مع أنها في أشد الحاجة إلى وجوده بجانبها، وخاصة بعد نزول الوحي، لقد تغير كل شيء بعد نزول الوحي من السماء.. فقد كان بيتها هو البيت الوحيد في الدنيا الذي اختاره الله لآخر رسالات السماء.

فأي مشاعر كانت تهز كيانها!!

الله وحده يعلم بماذا كانت تفكر، وكيف استقبلت ذلك النبأ العظيم.

إنه لشيء يفوق طاقة البشر تصوره.

أي أحاسيس طافت بالطاهرة وهي تتلقى أنباء السماء توحى إلى الزوج الحبيب، ليس في مقدور البشر أن يتخيلوا ما كان يلم بالسيدة الطاهرة من أفكار وعواطف، ولكن الشيء المؤكد أنها لم تعد تطيق البعد عن الزوج العظيم الذي اختاره رب السماء، ليكون آخر رسل الله إلى الثقلين، وقد حرصت أن تكون على مقربة منه، ترعاه، وتؤنس وحشته، وتعينه على مواصلة عبادته وتبتله إلى الله، وكانت تفعل كل ذلك وهي في غاية السعادة والثقة في الله عز وجل، وانه سوف يكرم هذا الحبيب الذي اختاره لهذا الأمر الجلل العظيم، وبعثه رحمة للعالمين وكانت رضي الله عنها على مقربة منه دائما تحوم حوله، وتسأل عنه، وتطمئن عليه، ولا تنقطع عنه، وتظل رائحة غادية توفر له

الطعام والشراب، وتؤنس وحشته، وقد قدمت إليه ﷺ يوما فرآها جبريل عليه السلام فقال له: «يارسول الله! هذه خديجة قد أتت، معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني، وبشرها ببيت فى الجنة من قصب لا صخبَ فيه ولا نصب»[1].

وحينما أبلغها رسول الله ﷺ لم تذهلها البشرى مع روعتها وإنما أجابت بالعقل الوافر: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته[2].

أي عقل حباك الله به أيتها الأم الطاهرة!! وأي فقه صدر عنك قبل أن يعرف الفقه وأصوله وفروعه!! لقد قلت:

«إن الله هو السلام».

لقد كان لك من عقلك الوافر وتفكيرك العميق أن أثنيت على الله، وذكرته باسم من أسمائه، وكنت السباقة، وكان ذلك إلهاماً الٰهياً.

نعم إن الله هو ﴿ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[3].

ثم ما أعظم هذه البشرى: بشرّ خديجة ببيت في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب.

بيت من قصب!! وما هذا القصب؟!.

إنه اللؤلؤ، أو هو المنظوم بالدرر واللآليء كما جاء عن السيدة فاطمة الزهراء إذ قالت: قلت يا رسول الله! أين أمي خديجة؟ قال: في

---

(١) البخاري فتح الباري: ٧/ ١٦٦ (٣٨٢٠).
(٢) فتح الباري ٧/ ١٧٢
(٣) سورة الحشر الآية: ٢٣

بيت من قصب. قلت: أمن هذا القصب؟ قال: لا، من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت.[1]

«بشر خديجة ببيت في الجنة من قصب» ولم يقل بقصر فلماذا؟.

لأن البيت يدل على السكينة والطمأنينة والأمن.

لهذا كانت مكافأتها مناسبة: بيت في الجنة لا صخب فيه ولا نصب.

بيت في الجنة فيه السكينة والطمأنينة والراحة جزاء لما عانته السيدة الطاهرة في سبيل الدعوة والدعوة في مهدها.

لكم عانت وهي تقف إلى جانب الزوج الرسول الحبيب، وهو يتلقى صابراً محتسباً أذى قريش وهي إلى جانبه تعينه وتؤيده، وهو يبثها همومه وأحزانه، فيجد عندها الأنس والراحة، وكانت تزيل عنه كل وحشة، وتهون عليه كل عسير راضية محتسبة.

وكانت تشاركه في كل أموره وهمومه، وما يلقى من نصب وتعب.. ألم تختر المقام معه في الشعب، والشعب محاصر ثلاث سنوات كاملات، صابرة على مشقة الجوع وتعب البدن، وهي تخطو نحو الستين من عمرها، لقد عانت ما عانت وهي ترى الظلمة من كبراء قريش يثيرون الصخب حول زوجها الحبيب، ويوجهون إليه قوارص الكلم، وشتى أنواع الأذى شاتمين هازئين.

فكان ثوابها من الله مناسباً: بيت في الجنة لاصخب فيه ولا نصب، لقد فعلت ما لم يفعله العظماء، كانت أول من آمن، وأول من صدق، وأول من دثر وزمل، وبذلت كل نفيسٍ وغالٍ حين قوبل النبي ﷺ بالجحود والحرمان.. وواسته بنفسها، فكانت وزير صدق وكانت من خير نساء الدنيا منذ زمانها إلى يوم القيامة، قال فيها الرسول الوفي

---

(١) ابن حجر في الفتح ٧/ ١٧١ نقلاً عن الطبراني في الأوسط.

«خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة»[1]. ويكفيها ذلك فخراً، ويكفيها ذلك جزاءً من رب شكور!!

وعرف الرسول الكريم حق الطاهرة فكان حريصاً على ما يسرها ويرضيها، فلم يتزوج عليها حتى لا يسبب لها أدنى أذى في حياتها.

وسمى العام الذي توفيت فيه عام الحزن.

وظل وفيا لها طيلة حياته ﷺ فكان يثني عليها خير الثناء، ويكرم صديقاتها وأخلائلها وكل من تصله بها رحم.

فهنيئاً لك أيتها الطاهرة الكريمة حب النبي ووفاؤه، وهنيئا لك مكانتك العظيمة في قلبه الكبير، وهنيئا لك أعظم بشرى تلقاها بشر بعد الأنبياء، وهنيئا لك حب المسلمين جميعا في أقطار الأرض على اختلاف مناهجهم.

لقد حللت في قلوب المسلمين جميعا المحل السامي العالي، وكيف لا تكون لك تلك المكانة!! وأنت ما أنت عليه من خصال حميدة، وفعال كريمة، وما فعلته وقدمته للدعوة الإسلامية وما بذلته في سبيلها.

كل طائفة من طوائف المسلمين تجعلك في القمة بين النساء لما حملته من صفات الخير والحق والنبل، وكل فرقة تعتبر نفسها أولى بك من سواها، وتعتبرك الأولى بين نساء العالمين، إلى جانب مريم ابنة عمران، لقد رفع الله من ذكرك في العالمين، كما رفع من ذكر زوجك النبي العظيم، فلا يكاد يذكر شيء من سيرته العطرة في بدايات الدعوة وقبلها إلا والسيدة الطاهرة تذكر فيه بالثناء العاطر:

---

(١) رواه البخاري (٣٨١٥) ومسلم ٤:١٨٨٦ (٦٩).

علوت فلم تدرك مقاماتك الكبرى
فغيرك لاتدعى - وإن عظمت - كبرى
وكم في نساء العالمين عظيمة
ولكنها إن قورنت بك فالصغرى
وأصبحت مهداً للرسالة حاضنا
تلقيتها من حين ما نزلت إقرا
وأنت التي طمأنت طه بأنه
تلقى من الله الرسالة والذكرا
وزملته، دثرته، ولورقة
ذهبت به يتلو عليه الذي يقرا
ولما أتى جبريل قمت بخلعك النقاب
فلم يمكث فأعلنتها بشرى
كتبت حروفاً من حياة محمد
فأصبحت في أعلى صحائفها سطرا
وقد شكر المولى صنيعك إنه
الشكور وهذا الفعل يستوجب الشكرا
فأهداك مولاك السلام سلامه
وأعطاك في الفردوس من قصب قصرا[1]

(١) الأبيات من قصيدة (الكبرى) لعبد القادر الخرد.

صلاتها مع رسول الله ﷺ :

كانت السيدة خديجة أقرب مايكون إلى رسول الله ﷺ، وكانت تتابعه، وتقتدي به، وتسمع منه وتحفظ له، وتسعى إلى حفظه ورعايته، وكان كلما أتـاه جبريل بعد المرة الأولى يعود إليها ويخبرها أو يحدثها، ولهذا فقد كانت رضي الله عنها أول من صلى مع رسول الله ﷺ، فحين فرضت الصلاة على رسول الله ﷺ جاءه جبريل وهو بأعلى مكة، وفجر له عيناً في جانب الوادي، فتوضأ جبريل والرسول ينظر إليه ويعلمه جبريل كيفية الوضوء والطهور للصلاة، وقام جبريل فصلى برسول الله ﷺ، والرسول يتتبعه في صلاته، وبعد ذلك ذهب الرسول إلى سيدتنا خديجة وعلمها كيف تتوضأ بنفس الطريقة التي تعلمها من جبريل ثم علمها كيف تصلي، وصلى بها، فكانت رضي الله عنها هي المأمومة الأولى خلف رسول الله ﷺ.[1]

القباب التي بنيت على قبر السيدة خديجة :

لمّا توفيت خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ في العاشر من شهر رمضان سنة عشر من البعثة بعد خروج بني هاشم من الحصار في الشعب، دفنت في الحجون.[2]

---

(١) القصة بتمامها في سيرة ابن هشام ١ : ٢٤٤ قال: «قال ابن إسحق: وحدثني بعض أهل العلم: أن الصلاة حين افترضت...
وكذلك هي في «تاريخ الطبري» ١ : ٥٣٥ وهذا إسناد منقطع معضل، لا يصح، وروي بإسناد آخر متصل، لكنه ضعيف، رواه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» ـ(٧٢) من «بغية الباحث» ـ وفيه إشكال أشار إليه السُّهيلي في «الرَّوض الأُنُف» ١ : ٣٨٤ قال: «الوضوء على هذا الحديث مكيٌّ بالفرض، مدنيٌّ بالتلاوة، لأن آية الوضوء مدنية».

(٢) الإصابة لابن حجر ٧/ ٦٠٥

وقد بنيت القبة التي كانت مقامة على قبرها سنة ٩٥٠هـ من الحجر القاحوط الذي أتي به من منطقة الشميسي، وقد بنيت بمعرفة الأمير الشهيد محمد بن سليمان الجركسي أمين الدفاتر بمصر في زمن ولاية داود باشا نائب السلطان سليمان القانوني. وكان على القبر قبل ذلك تابوت خشبي، ثم جددت هذه القبة بعد ذلك عام ١٢٩٨هـ.

فقه السيدة خديجة

إن من ينظر في حياة السيدة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وفي ماضيها التليد قبل زواجها من رسول الله ﷺ ثم في طريقة اختيارها لرسول الله ﷺ وحرصها على الارتباط به عليه الصلاة والسلام، ثم في حياتها معه يحس برجاحة عقل هذه السيدة ونبل أصلها وكرامة محتدها وعمق فكرها وحصافتها، وحسن تدبيرها وتفكيرها وحرصها على الخير.. وحبها وتقديرها واحترامها لسيدنا رسول الله ﷺ.

ولهذا كانت بعد زواجها من الرسول ﷺ عوناً له وسنداً ليس بمالها وجاهها فقط ولكن بكل ما أوتيت من قدرات. وقد أحاطت النبي ﷺ بحب كبير وتقدير عظيم، وكانت ترعاه وتخشى عليه وتتبع مسيرته وكان ﷺ يحبها حباً عظيماً ويأنس لمشاورتها ويحرص على عرض الأمور عليها والاستئناس برأيها وكانت إذا عرض عليها الأمر تفكر فيه بجدية وعمق ونظرات ثاقبة، ولهذا فإذا ما تتبعنا بعض الحوادث التي عرضت عليها وأبدت فيها رأياً أو أشارت به نجد في ذلك فقهاً، وعمقاً وفكراً وحصافة رأي.

ودعونا نستعرض بعضاً من نماذج هذا الفقه والفهم اللذين تميزت بهما هذه السيدة الكريمة رضي الله عنها.

أولاً:- لقد كانت حصيفة واعية فما أن سمعت عن رسول الله ﷺ حتى اقتربت منه وتتبعت سيرته وحرصت على أن تربطها علاقة عمل معه وهذا من فهم هذه السيدة وعمق تفكيرها.

ثانياً:- لقد أجمع كتاب السيرة والمؤرخون على أنها أول من آمن

برسالة سيدنا محمد ﷺ، ولم يكن إيمانها عاطفة عابرة، وإنما عن بصيرة ويقين وتصديق وتمحيص أدى بها إلى ذلك الإيمان الكبير.

ودعونا نرى هذا الموقف الذي استعرضناه سابقاً حين كانت تغدو وتروح على سيدنا محمد ﷺ في غار حراء لتطمئن عليه، وحدث أن رجع إليها يوماً خائفاً يرجف فؤاده قائلاً: دثروني.. دثروني.. زملوني.. زملوني.. فقد خشيت على نفسي فكان جوابها بكلمات الإيمان والثقة في الله عز وجل فقالت له: كلا والله لن يخزيك الله أبداً إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الدهر. هكذا طمأنته وشدت أزره من منطلق ايمان عميق ورأي ثاقب وفقه ببواطن الأمور.

ولأنه ﷺ على هذا الخلق العظيم لن يخزيه الله أبداً لأنه رب كريم، وهي على ثقة من ذلك لأنها مؤمنة بهذا الرب وأنه لا يضيع من يثق به ويتوكل عليه. وهذا اللون من الإيمان يذكرنا بموقف أمنا هاجر رضي الله عنها عندما تركها سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام في الوادي في مكة، وليس في ذلك الوادي زرع ولا ماء ولا حياة، فقالت له وهو يهم بالرحيل: لمن تتركنا يا إبراهيم؟ فقال لها: في ثقة النبي المؤمن بربه عز وجل، «أترككم لله» فعادت تسأله: أوَ أمرك بهذا؟ تريد أن تتأكد بأن الله قد أمره بهذا الأمر فقال سيدنا إبراهيم: نعم فجاءت إجابتها إجابة إنسانة مؤمنة واثقة في الرب عز وجل فقالت له وهي تضم وليدها: إذاً لا يضيعنا أبداً. هكذا في إيمان راسخ تحدثت أمنا «هاجر» وتحدثت به سيدتنا خديجة في نفس المكان وبنفس النبرات الإنسانية وبنفس الإيمان والثقة بالله عز وجل.

ثالثاً: يظهر فقه السيدة خديجة عندما قال لها الرسول ﷺ: يا خديجة إنه يأتيني آتٍ (ويقصد بذلك جبريل عليه السلام) فقالت له وهي تريد أن تعرف حقيقة الوحي إذا جاءك أخبرني فقال لها في يوم من الأيام: هاهو ذا يا خديجة قد أتى، وهنا تظهر رجاحة عقل هذه السيدة وفهمها حيث قالت للرسول ﷺ أجلس على شقي الأيمن فجلس على شقها الأيمن فقالت له: هل تراه؟ قال: نعم، قالت السيدة خديجة لرسول الله ﷺ أجلس على شقي الأيسر فجلس على شقها الأيسر فقالت له: هل تراه الآن؟ قال: نعم، فقالت له: أجلس في حجري فتحول وجلس في حجرها فقالت له: أتراه الآن؟ قال: نعم، فرفعت خمارها عن رأسها وبقيت حاسرة الرأس وقالت له: هل تراه الآن؟ قال: لا، فقالت قولتها المشهورة «يا محمد ما هذا بشيطان هذا ملك من ملائكة الرحمن». قالت رضي الله عنها ذلك بفقه لأن الملك غادر المكان عندما كشفت عن رأسها وأدركت أن هذا التصرف لا يتصرفه شيطان، بل هو ملك من الملائكة، ، هذا وأيم الله فقه وأي فقه.

رابعاً: - وهذه لقطة أخرى تظهر رجاحة عقل هذه السيدة وفقهها، فقد ذهبت إلى ابن عمها ورقة ابن نوفل وهي تعرف ما لديه من علم وما هو عليه من دين وطلبت منه أن يسمع من رسول الله ﷺ ويقص عليه ما رأى وما سمع فكان جواب ورقة بعد أن سمع من رسول الله ﷺ: قدوس قدوس إنه الناموس الأكبر الذي نزل على موسى وإنك يا محمد نبي هذه الأمة. وجاءها هذا الكلام تأييداً كبيراً وتوثيقاً عظيماً لرأيها وشعورها وحدسها وزاد من إيمانها بأنه رسول الله ﷺ.

خامساً: - دعونا نرى فقها واضحاً جلياً لهذه السيدة عندما ذهبت

كعادتها إلى غار حراء تحمل الماء والزاد لرسول الله ﷺ، فوصلت إليه وهو مستغرق في عبادته، متفرغ لربه عز وجل، ومناجاته له، فأتاه في تلك اللحظات جبريل عليه السلام وقال له: يا محمد يا رسول الله هذه خديجة قد أتت ومعها إناء فيه إدام وشراب، فإذا هي أتتك فاقرأ عليها من ربها السلام، ومني السلام، وبشرها ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب. وحينما بلغها رسول الله ﷺ بذلك جاءت إجابتها على مستوى رفيع وفقه عظيم، فقد قالت رضي الله عنها تخاطب رسول الله ﷺ: إن الله هو السلام ومنه السلام وعلى جبريل السلام وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته.

هنا يظهر فقه هذه السيدة وعظمتها وعمق فهمها فلم تقل على الله السلام وإنما تأدبت مع الله عز وجل فقالت (الله السلام وعلى جبريل السلام) ما أعظمه من فقه قبل أن يعرف الفقه وما أعظمه من فهم تميزت به سيدتنا خديجة رضي الله عنها.

هذه لمحات من فقه هذه السيدة التي نسأل الله أن يجزيها عنا وعن المسلمين كل خير، فقد أدت واجباً عظيماً وخدمة جليلة، ورعاية كبيرة، لرسول الله ﷺ حتى توفاها الله وكأنها قد نابت عنا جميعاً في خدمة رسول الله، وأصبح لها في رقابنا دين ومنة كبيرة، فجزاها الله عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

الطاهرة شهيدة الشِّعب

ودعونا الآن نتتبع جانباً من السيرة العطرة لهذه السيدة العظيمة، وصبرها واحتسابها وحبها وحدبها على الرسول ﷺ، وذلك في محنة الشعب، يوم تنادت قريش بعزل النبي ﷺ وحصاره مع أهله بني هاشم وبني المطلب، والتضييق عليهم في الشعب، ومقاطعتهم، فلا تبيعهم ولا تشتري منهم، ولا تزوجهم ولا تتزوج منهم، وفي ذلك ما فيه من المشقة والعسر والعنت !!

ومضت قريش عاتية في غلوائها، حاقدة في عدوانها، غافلة عن الهدي الذي أهدي إليها من السماء، والمجد الذي فتح لها باب السيادة العالمية والعلاء، نسيت ما ملأ وجدان عقلائها من تشوق إلى نبي آخر الزمان، ولا ما تحدث به المتحنثون والعرافون والرهبان، بل نسيت أن عناد طغاتها في حقيقته لم يكن صادراً عن اعتزاز بمواريث الوثنية المنطفئة في ضمائرهم، ولقد صرح فرعونهم الأثيم بذلك، فلم يعد خافياً أنها أحقاد وعصبيات تعمي العيون عن باهر النور، وروعة الفجر المطل من خلف ثنايا الأفق، لقد قال فرعونهم أبو جهل في تعليل حقده وعناده: كنّا وبني هاشم كفرسي رهان.. حتى إذا تحاذت الركب، قالوا منّا نبي !! فمتى ندرك هذه.. لا والله لانقربها أبدا.

وهاجر المهاجرون من وطأة العذاب إلى الحبشة، وبقي صاحب الدعوة والصابرون معه، ورغم ما كان يلقاه الرسول ﷺ ومن حوله من المؤمنين من صنوف العذاب والآلام إلا أن ذلك لم يثن آخرين من الدخول في الدين الجديد، حتى عمر الذي كان قد هم بقتل النبي ﷺ،

لكن بهره صدق اليقين، واستجاب الله فيه دعوة النبي الكريم فأسلم، ومن قبل ذلك بزمن يسير، ودخل في دين الله أسد الله وأسد رسوله حمزة عم رسول الله ﷺ، فلم يجد المعاندون إلا أن يحاصروا المؤمنين، ويكتبوا وثيقة بمقاطعتهم اجتماعياً، فلا يحدثون تزويجاً إليهم، واقتصادياً بألا يبيعوا لهم ولا يبتاعوا منهم، وذلك أمر قد يجد فرجة مسعفة في مجتمع آخر غير ا لمجتمع المكي، يقع على القرب منه ريف منتج، أو يضم هو في أرضه بعض ما يحتاجه الأحياء من زروع وثمار، أو يأوي سكانه إلى حاكم مركزي، يخشون إن أفرطوا في العدوان أن يغضب ويتدخل، أما مجتمع مكة فسراته المعاندون هم المالكون للسلطان المدني والتسلط ا لمالي، والقهر العسكري، و عماد حياتهم مايجلبونه في قوافلهم مما يأكلون ويلبسون، فمن منع البيع والشراء فيهم فقد حرم كل أسباب البقاء، ويصمد المؤمنون لهذا الأمر وهم واثقون بالقدرة العليا التي يؤمنون بها، ويخاصمهم هؤلاء المعاندون في أصل هذا الايمان.

وإذا كان من شأن من عاش الحياة الخشنة وتمرن على خشونتها وقسوتها، أن يتحمل كثيراً من شظف العيش إذا فرض عليه ذلك، وذلك شأن أهل البادية والبسطاء من أهل ا لقرى والحواضر، فإنه لمن العجب العجاب أن تحتمل قسوة الحصار، ولوعة الشعب، وشدة العيش امرأة منعمة كل عمرها مثل سيدتنا خديجة بنت خويلد، وأن تنحاز إلى من حاصرتهم قريش مختارة راغبة، حتى تستعلن بإيمانها العميق بهذا الدين الذي كانت أول من تطلع إلى فجره، وامتد حدسها قبل مجيئه بالكشف عن شخصية النبي المنتظر، مما رغبها بالسعي للزواج منه، تأييده ودعمه والتصديق بكل مايقول. وحتى تؤكد حبها

الصادق لمن توقعت نبوته فأحبته، فتى نبيلاً صادقاً أميناً، وأحبته بكل ما يملك القلب الطاهر من ينابيع العاطفة الطاهرة المتوقدة، بعد أن غدا نبيها المتمنى، وهاديها الكريم، نعم تزوجته فتى وسيماً شريفاً أميناً ذا خلق عظيم، مع توقعها له التميز على كل الرجال بما يدور حوله من إرهاصات، ولكن هذا الحب أصبح شيئا فوق الوصف، يوم أن تحقق لها فيه النبي الأمل، والرسول الموعود.

وكان هذا الحب النابع من الايمان هو زاد هذه السيدة العظيمة المرهفة أيام محنة الشعب، وقسوة الحصار، وكان ألمها البالغ فيه فيضا مأساوياً من معدة جائعة، وجسد منهك من أثقال السنين، وتبعات الجهاد، وكان أشد مايؤلمها، ويعتصر قلبها له ألماً أن ترى زوجها الحبيب، ونبيها المفدى يتحمل كل ذلك الأذى والتعب والنصب، ويتحمل فوق ذلك وقدة الاشفاق على أصحابه الصامدين لمحنة تنشق لوطأتها الجلاميد. وهو يراهم يأكلون أوراق الشجر حتى تقرحت أشداقهم، فهي تحمل معه همومه كلها. هموم دعوته، وهموم محنته، وهموم أصحابه، وتبذل ما استطاعت من مالها لتخفف عنه وعنهم حدة المأساة التي عاشت ساعاتها الممتدة طيلة سنوات الشعب الثلاث، تحمل كل ساعة على مداها حدثاً جديداً وألماً شديداً.

فلم ترض السيدة العظيمة أن تبقى في دارها المترفة تنعم برغد العيش، لقد كان ذلك بيدها لو أرادت، ولها في عشيرتها بني أسد قوة ومنعة، ولكنها آثرت أن تلحق بزوجها الحبيب، صلوات الله وسلامه عليه، ورضي الله عنها.

تركت مباهج الدنيا وزينتها، ولحقت بالمجاهدين الصابرين تقف إلى جانب الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وتشد أزر أصحابه،

وتذوق معهم مرارة العيش وشظفه، وقسوة الطغاة.. كيف لا؟

أليست أول من آمن؟ وأول من صلى مع الرسول الحبيب ﷺ؟.. آمنت به حين كفر الناس، وصدقته حين كذبه الناس، وواسته بمالها وحنانها حين حرمه الناس.. كانت له وزير صدق يجد عندها الأمن والأمان، والثقة والحنان، والمودة الصادقة، والحب الكبير.. وكأني بها تسترجع ذكريات عزيزة، حين فجأه الوحي في غار حراء.. فأسرع إليها خائفاً مرتعداً ترجف بوادره ويخفق فؤاده، فتتلقاه كالأم الحنون وتطمئنه بقولها: كلا، والله لا يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم وتقري الضيف، وتحمل الكل وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق.

أم كيف تنسى حين جاءها ثانية مرتجفاً وهو يقول: دثروني، دثروني.. فأسرعت إليه ليجد في صدرها الحاني السكينة والطمأنينة.. لقد كانت معه في كل حين بقلبها وعقلها وجوارحها كلها، تؤيده وتثبته وتزيل همومه، وتحنو عليه.

فهل تتركه الآن يحاصر في الشعب بعيداً عنها!! وهي التي وهبت حياتها وكل ما تملك من أجل الحبيب، وفي سبيل الدعوة معه إلى الله.. لقد آثرته على الدنيا بكل ما فيها ومضت معه إلى الشعب لتواصل ما بدأته معه في الدعوة والتثبيت والتأييد والنصرة، ولتكون له كما كانت دائماً يداً حانية، وزوجاً حنوناً، وأماً رؤوماً صادقة ومصدقة.

ولم تمنعها سنها وهي تخطو نحو الثالثة والستين من متابعة الجهاد، وهي التي كانت بحاجة إلى الراحة، وإلى من يعتني بها.. لكن الحبيب في أشد الحاجة إليها، فلتتحامل على نفسها، وتمضي معه صابرة مجاهدة.. ولقد أثَّر موقفها في رجال عشيرتها، كيف يرضون أن تجوع

وتحرم؟ . . تلك المرأة العظيمة التي كانت تغدق على بيوتات عشيرتها من البر والخير ما لم يكن يفعله كبار أغنيائهم، بل كبار كرمائهم.

فاندفع بعضهم يحمل إليها الطعام سراً . . وها هو ذا ابن أخيها حكيم ابن حزام بن خويلد يحمل إليها القمح، ومرة يلقاه أبو جهل فيحاول منعه ويتماسك الرجلان، ويراهما أبو البختري بن هشام ـ وهو ابن عم خديجة ـ فيتصدى لأبي جهل ويضربه بعنف ويشجه ويلقيه إلى الأرض، ثم يطؤه وطأ شديداً.

ولم تكن السيدة الطاهرة، رضي الله عنها، تستأثر بالطعام الذي يرسل إليها، وإنما توزعه على جميع من في الشعب، ولا تنال منه إلا أقل من أي فرد منهم. لقد أثرت فيها هذه المعاناة من الحصار، والخوف على الرسول الكريم ﷺ، والهموم التي تحملها في جوانحها والآلام التي صدمتها من موقف كبراء قريش، وتحالفهم ضد أشرف الناس وأنبلهم وأعظمهم في ميزان الرجال والأخلاق، وهالها انحدار القيم إلى هذا الحد، يتناصرون ويتعاونون على الباطل، ويعرضون عن الحق حسداً من عند أنفسهم، حتى بعد ما تبين لهم الحق، وروعها أكثر تمالؤهم وتناصرهم على الشر، وإلغاء عقولهم وعواطفهم، واتباع شيطان مريد، هو الجهل والسفه هو أبو جهل.

كيف انحدر كبراء مكة وشيوخ عشائرها إلى هذا المستوى! فرضوا أن يحاصروا شيخ مكة وسليل أمجادها أبا طالب بن عبد المطلب، ويمنعوا عنه وعمن معه أبسط مقومات العيش، أثر هذا كله في صحتها، لكنها كانت تتماسك حرصاً على موقف الرسول الحبيب.

لقد كانت محنة الشعب من أقسى ما واجهه الرسول ﷺ بعد أن يئست قريش وسفهاؤها من صده عن الدعوة، كانوا قبل الحصار

يسمعونه قوارص الكلم، ويرمون الأقذار على بيته، ثم بعدها على رأسه الشريف، ثم راحوا يتفننون في إيذاء أصحابه الذين أسلموا بالضرب والتجويع حتى الكي بالنار، وثبت أولئك المجاهدون للمحنة، وصبروا على العذاب والكيد، وكان الرسول ﷺ يتألم لما يتعرض له أصحابه، فأذن لمن يريد بالهجرة إلى الحبشة، لأن فيها ملكاً عادلاً يستطيعون أن يعيشوا في كنفه آمنين على أنفسهم ودينهم. وهاجر كثير من أصحابه رضوان الله عليهم، وكان منهم ابنته رقية مع زوجها عثمان بن عفان سليل المجد والشرف والغنى والرفاهية!!

وثبت الباقون في مكة يدعون إلى الله لا يفترون، ولا يأبهون لأفاعيل قريش، وبدأ الإسلام ينتشر خارج مكة، وهذا ما هال قريشاً، فإن لها سلطانا داخل مكة ولكن لا يد لها على القبائل خارجها، فلجؤوا إلى الإغراء المادي عسى أن ينفع فعرضوا على الرسول الكريم ﷺ كل مباهج الدنيا، أرسلوا إليه(دبلوماسياً محنكاً) هو عتبة بن ربيعة يفاوضه على الدنيا مقابل الكف عن الدعوة.

قال عتبة للرسول الكريم ﷺ: إنك منا حيث علمت في السطة (الشرف) في العشيرة، والمكان في النسب، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم.. فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل بعضها.

فقال رسول الله ﷺ: قل يا أبا الوليد أسمع.. فقال عتبه. يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سودناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك رئياً لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب، وبذلنا فيه

أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه.

حتى إذا فرغ عتبة قال له النبي ﷺ: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال: نعم. قال: اسمع مني. قال: أفعل.

فتلا رسول الله ﷺ: ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ۝٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَٱعْمَلْ إِنَّنَا عَٰمِلُونَ﴾[1] ومضى رسول الله ﷺ يقرأ إلى أن بلغ: ﴿أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ﴾ فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عنه. ثم انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة فسجد، ثم قال: قد سمعت أبا الوليد فأنت وذاك.

فقال عتبة: ما عندك غير هذا؟ فقال ﷺ: ما عندي غير هذا.. فقام عتبة عنه. ثم إن الملأ من قريش سألوه عما أجابه به محمد ﷺ، فكان من جوابه أنه سمع كلاماً ما سمع مثله قط وقال لهم: والله ما هو بالشعر ولا السحر ولا الكهانة.. ثم عرض عليهم اقتراحاً معتدلاً فقال: يا معشر قريش أطيعوني وخلوا بين الرجل وبين ما هو فيه، فاعتزلوه، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم، وعزه عزكم، وكنتم أسعد الناس به، يا قوم أطيعوني في هذا الأمر، واعصوني بعده، فوالله لقد سمعت من هذا الرجل كلاماً ما سمعت أذناي كلاماً مثله، وما دريت ما أرد عليه.

---

(١) سورة فصلت ـ الآيات: ١-٥

قالوا سحرك والله يا أبا الوليد . . قال: هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم.[1]

وكان يميل إلى رأي عتبة هذا بعض العقلاء من قريش، وكان فيه خير كثير لو أخذوا به، وتركوا رسول الله ﷺ وشأنه.

ولكن الطاغية أبا جهل استخدم كل ما يملك من فجور وقسوة وحقد، وراح يثير في نفوس كبراء مكة الحمية حمية الجاهلية، تدفعه إلى ذلك مرارة الحقد الأسود على آل عبد مناف عموماً، وبني هاشم منهم على وجه الخصوص، وذلك لسبقهم في المكارم والأمجاد. . ولم يكن كرهه للرسول ﷺ ودعوته نابعاً من ايمان باللات والعزى وبقية الأوثان والأصنام، وإنما كان حسدا واستكبارا وغيرة أن ينزل القرآن على سيدنا محمد ﷺ، لماذا على محمد وليس على غيره من عظماء قريش، وقد عبر القرآن عن ذلك حاكيا قولهم: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾[2] ويخبره الله ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾[3] لقد عرف أبو جهل وحزبه أن الحق مع سيدنا محمد ﷺ ومع ذلك كابر واعرض ونأى بجانبه، أعلنها حرباً لا هوادة فيها، وراح يعبىء (الرأي العام) في مكة ضد رسول الله ﷺ، وذلك كله لشعوره بتفوق آل عبد مناف على آل مخزوم عشيرته التي هو زعيمها. ويظهر ذلك جلياً في محاورته للأخنس بن شريق بعد ان استمعا معاً إلى ما يتلوه رسول الله ﷺ من آيات بينات، وكان أبو جهل

---

(١) رواها ابن أبي شيبة في «مصنّفه» (٣٧٢٦٣) من طبعة دار القبلة، وعنه رواها أبو يعلى (١٨١٢) من طبعة دار القبلة، وقد قال عن سنده الصالحي في «سيرته الشامية» ٢: ٤٤٧ سند جيد.

(٢) سورة الزخرف ـ الآية: ٣١

(٣) سورة الأنعام ـ الآية: ٣٣

قد سمعها معه، ودخل عليه الأخنس في بيته وقال له: يا أبا الحكم ما رأيك فيما سمعت من محمد؟

فقال أبو جهل: ماذا سمعت؟ تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا، فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاثينا على الركب، وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك هذا، فوالله لا نسمع له أبداً ولا نصدقه.[1]

هذا إذن أكبر دوافع أبي جهل لمحاربة الرسالة المحمدية ومحاولة إسقاطها، مع دوافع أخرى كثيرة..

ثم لجأ زعماء قريش إلى أبي طالب ليكف ابن أخيه، ودافعهم أبو طالب باللين أولاً، لكن حين وجد إصرارهم على المطالبة بأن يسلمهم اياه كان جوابه الحازم الحاسم: والله لا نسلمه أبداً.

وأحست قريش أن زمام الأمور بدأ يفلت من يدها بعد إسلام حمزة بن عبد المطلب وعمر بن الخطاب، اللذين كان لإسلامهما وقع كبير في نفوس المسلمين، إذ وجدوا فيهما قوة وسنداً، وكان له أثر أكبر في نفوس المشركين كذلك، وما ذلك إلا لقوة شكيمتهما وبأسهما، فإذا أضفنا إلى هذا هجرة مجموعة كبيرة من المسلمين إلى الحبشة، استطعنا أن نتصور مشاعر كبار المشركين من أهل مكة وهم يرون نفوذهم يتقلص، وأعداد المسلمين في ازدياد وقوة ومنعة، وبدأ زعماؤهم في التشاور، ثم أجمعوا أمرهم على أن يقاطعوا بني هاشم وبني المطلب، فلا ينكحوا إلى بني هاشم وبني المطلب ولا ينكحوهم ولا يبيعوهم شيئاً ولا يبتاعوا منهم، وكتبوا بذلك صحيفة ثم علقوها في جوف الكعبة توكيداً بذلك الأمر على أنفسهم.

---

(١) سيرة ابن هشام جـ١/٣١٦

ثم أعلن زعماء قريش أنهم سيقتلون محمداً ﷺ، وبهذا يقضون على دعوته.. فلما فعلت قريش ذلك انحاز بنو هاشم وبنو المطلب إلى أبي طالب، فدخلوا معه في شعبه، واجتمعوا اليه.. وخرج أبو لهب من بني هاشم، وظاهر قريشاً على أهله بني هاشم وبني المطلب، وقال لإمرأته (حمالة الحطب) ألم أنصر اللات والعزى؟.. قالت بلى.

واستمر الحصار المرير ثلاث سنوات إلى أن أذن الله فأرسل على الصحيفة الظالمة الأرضة، وهي حشرة صغيرة تعيش على أكل الورق والخشب فأكلتها ولم تبق فيها إلا اسم الله، ونزل الوحي على رسول الله ﷺ بذلك. وأخبر عمه أبا طالب، فقال: والله إنك لم تكذبني ونهض إلى رجال قريش، وكانوا عند البيت.

وقال أبو طالب للنفر القرشيين هاتوا صحيفتكم، وظنوا أن أبا طالب جاء ليسلمهم ابن أخيه بعد ان أنهكهم الحصار، لكن أبا طالب طلب إحضار الصحيفة قبل أن تطلع قريش على ما جرى لها.. وبعد أن جاؤوا بها قال لهم أبو طالب: قد جئتكم بأمر فيه النصفة لنا ولكم. ثم قال لهم: إن ابن أخي قد أخبرني بكذا وكذا وأخبرهم بما قال النبي ﷺ فان كان صادقاً فانتهوا عن قطيعتنا، وأنزلوا عنها، وإن كان كاذباً دفعت إليكم ابن أخي!!

وقال القوم: قد رضينا وتعاقدوا على ذلك، ثم نظروا فإذا هي كما قال الرسول ﷺ، فزادهم ذلك شراً وكبرياءً وغطرسةً وإصراراً على الظلم واتباعاً للباطل.. لكن رهطاً من عقلاء قريش هالهم وآلمهم ما آلت إليه حال بني هاشم وبني المطلب، ومن التحق بهم في الشعب، وكان على رأس هؤلاء: هشام بن عمرو بن الحارث، وزهير بن أبي أمية، والمطعم بن عدي، وزمعة بن الأسود، وأجمعوا أن يمزقوا

الصحيفة، وكان من أمر أبي طالب مع الذين حاورهم بشأن الصحيفة، وكانوا حاضرين المحاورة فتنادوا من جنبات المسجد بإبطالها، وغُلب أبو جهل هذه المرة على أمره، وخذله الله، وأذله ونصر عبده ورسوله سيدنا محمداً والذين معه.

وخرج المسلمون من الحصار، وهم أمضى عزيمة، وأشد قوة، لم يزدهم الحصار إلا إيماناً وإصراراً على المضي في الدعوة، وكان أثر الحصار سيئاً على قريش، فقد تسامعت به العرب، وزاد إعجابهم بالمسلمين وثباتهم مع نبيهم، فزاد عدد الداخلين في الإسلام.

وخرجت (الطاهرة) منهكة القوى متهالكة البدن قد جاوزت الخامسة والستين أو كادت.

لكن أملها كان قوياً في أن تتابع رحلة الجهاد مع الرسول الحبيب صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين.

ولكن ما إن انتهى الحصار الخانق وخرجت منه مع حبيبها وصحابته حتى قضت شهيدة الصبر والمصابرة، لنوازل المطاردة المسعورة من أعداء الله للمؤمنين بالله، والدعم والمؤازرة للحبيب الصادق الصامد المجاهد، وكانت بذلك أول شهيدة من آل البيت النبوي الكريم.

الرحيـل

ورحلت أم المؤمنين. . وزوج المصطفى الأمين. . السيدة خديجة بنت خويلد. . رحلت السيدة الإنسانة إلى جوار ربها. . رحلت الزوجة والأم. . والرفيقة والعضد. . رحلت هذه المرأة الفاضلة، والإنسانة الخالدة التي كانت خير عون، وخير رفيق، وخير جليس، وخير صديق. . رحلت الحبيبة التي احترمته وأحبته. . وعضدته ودثرته. . وزملته ورافقته. . وكان عام رحيلها عام ألم وحزن. . فقد رحل في نفس العام عمه أبو طالب. . هذا الرجل الذي وقف إلى جواره، وصمد يدافع وينافح عنه. . ويحميه ويؤويه. . ولهذا فقد كان فراقهما معاً فراقاً مؤلماً. . ولكن إرادة الله شاءت ألا يكون رحيل السيدة خديجة إلا بعد أن أكرمه الله. . وثبته وأظهره وأيده. . فرحلت إلى جوار ربها مطمئنة النفس، وقد بدأ الناس يلتفون حوله ﷺ.

رحلت خديجة بنت خويلد بعد أن سلمت الراية إلى ابنتها الطيبة الطاهرة. . أم أبيها. . فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ. . رحلت الزوجة المؤمنة المحبة، بعد أن أعانته على احتمال أقسى الشدائد، وأصعب الأحداث، بعد أن قاطعته قريش، وقست عليه، واضطرته إلى أن يلوذ بالشعب، وعلقوا الصحيفة في جوف الكعبة، وأعلنوا الحرب التي لا هوادة فيها، وأعلنوا مقاطعة ظالمة باغية دون رأفة ولا مراعاة لنسب، أو جوار، أو حق إنساني لرسول الله ﷺ.

لكن الله قيض له خديجة فوقفت إلى جواره، ودخلت معه الشعب، وتركت دارها وجارها ومكانتها، وخرجت مع الزوج الحبيب والنبي

الكريم . . وأقامت معه تخفف عنه الألم، وتسري عنه الهم، وتشاركه بلايا المقاطعة، وكان قد تقدم بها السن فلم تبال، ونال منها الإعياء فلم تأبه به، وبلغ بها المرض مبلغاً عظيماً، ولكنها استمرت في الوقوف مع رسول الله ﷺ، مع أنها ليست معنية بالمقاطعة، فهي ليست من بني هاشم، ولكنها صمدت وتحملت من أجل رسول الله ﷺ.

وقفت خديجة نفس الموقف الصلب الذي وقفه أبو طالب يوم علم تصميم رسول الله ﷺ على المضي بالدعوة، وقال له قولته المشهورة في صدق ورجولة وإصرار : (يا ابن أخي قل ما شئت، فلن أسلمك لهم حتى أوسد في التراب دفينا).

نعم ثبت أبو طالب وثبتت خديجة إلى أن سلط الله الأرضة على الصحيفة المعلقة في الكعبة، ولم يبق إلا اسم الله، وعلم رسول الله ﷺ ذلك عن طريق الوحي، ومزقت الصحيفة وانتهت المقاطعة . . وتوفي أبو طالب وكان حدث وفاته شديداً على رسول الله بسبب مواقفه العظيمة من النبي، واشتد الأذى على رسول الله ﷺ، وجاءت وفاة السيدة خديجة أم المؤمنين في نفس العام . . هذه السيدة التي كانت سكناً وأنساً ورأفة ومودة، فكانت وفاتها مصيبة كبرى بعد وفاة أبي طالب، وأصبحت الدار خالية والجو مكفهرا، وغدت مكة موحشة، فكان عام الحزن ذلك العام، ولم تنل قريش من رسول الله ﷺ إلا بعد وفاة هذين السندين الصادقين المحبين، فكانت وفاتهما حزناً وألماً وضياع سند، وفقدان نصير، ولكن كان الله معه، يؤيده وينصره، وتعلم الدنيا كلها كيف صبر رسول الله ﷺ، وتحمل مع أن الله سبحانه وتعالى قادر على أن ينصره ويظهره بدون كل هذه المتاعب، لكنه الدرس الذي يعلم فيه الأمة الإسلامية كلها، فهو القدوة وهو الأسوة، ويصرح القرآن

الكريم : ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[1].

ومع كل ذلك يدعوه عز وجل لأن يخاطب هؤلاء ا لناس بالحكمة والموعظة وأن يجادلهم بالتي هي أحسن : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾[2].

وبقي رسول الله ﷺ محافظاً على ود هذه السيدة الحبيبة وحبها وتقديرها واحترامها . . فقد ظل يذكرها ويتذكرها دائماً . . وحفظ لها ذلك الود . . وأبقى على الحب الكبير في قلبه . . والتقدير العظيم لما صنعت معه . . فقد كانت حقاً نعم الزوجة ونعم الرفيق والعضد والناصح الأمين .

وقفت معه . . وأعطته عندما حرمه الناس . . ونصرته عندما خذله الناس . . وصدقته يوم كذبه الناس . . وآمنت به عندما كفر أكثر الناس . . وأغدقت عليه من ودها وعطفها وحنانها ولهذا فقد ظل يذكرها ويتذكرها . . ويدعو لها ويكرم صديقاتها، ويصل قرابتها . . ومن ينظر في حياة السيدة خديجة يدرك أبعاد ذلك الدور المشرق الذي قامت به في حياة رسول الله ﷺ وفي مسيرة الدعوة الإسلامية . . ويتجلى أثر هذا الدور في الحزن الذي أصابه ﷺ على فراقها، ولكن عنايـة الله ورعايته كانت فوق تلك المحنة فما إن رحلت هذه السيدة حتى أكرمه الله بمزيد من التأييد والنصر، وتوالت عليه البشائر، وأقبل من الإنس والجن على الإسلام، فأسلم نفر من الجن وأسلم عداس . . ثم جاءت حادثه الإسراء والمعراج لتكون دعماً وتأييداً وتبشيراً وتطميناً له ﷺ .

---

(١) سورة الرعد الآية: ٣١

(٢) سورة النحل الآية: ١٢٥

وشاءت إرادة الله أن يلقى النبي ﷺ جماعة من الخزرج كانوا قد قدموا من المدينة للحج، فدخلوا في الإسلام فأصبحوا له أنصاراً، وتوالت أحداث النصر وبشائر الفرج، فجاء الإذن بالهجرة. . ثم كانت الهجرة. . ووصل إلى المدينة المنورة. . وخرج من مكة وهو متألم يخاطبها : «لولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت» ويجأر إلى الله عز وجل بالدعاء : «اللهم وقد أخرجتني من أحب البقاع إلي فأسكني في أحب البقاع إليك».

وتوالت أحداث النصر. . وكان الفتح. . وكان النصر. . واظهر الله سبحانه وتعالى دينه. . ونصر نبيه وحبيبه. . ودخل مكة فاتحاً منصوراً. . وعاد إلى مكة. . وما إن وصلها حتى تذكر الحبيبة الوفية خديجة بنت خويلد. . فضرب خيمته بجوارها بالأبطح على مقربة من قبرها في المعلاة. . وراح يدعو لها ويستغفر ويتذكر فضل هذه الإنسانة ويعتز بمواقفها معه. . ووفائها له. . وكأن لسان حاله يقول : ما شعرت بضيق أو كرب وأتيت خديجة إلا فرجت عني. . وأزالت كربتي. . فقد كانت تعضدني وتصدقني وتؤمن بي، وتضع كل ما تملك في سبيل هذه الدعوة الإسلامية. . وكنت كلما رجعت إليها تشد أزري إذا هاجمني القوم. . وتصدقني إذا كذبوني. . وتهون علي رضي الله عنها وأرضاها.

ولهذا فقد حلت هذه السيدة في قلب رسول الله ﷺ وأحبها كما لم يحب أحداً من الناس. . وكرمها وأكرمها دائماً. . بل وكرمها رب العالمين من فوق سبع سموات عندما جاءتها البشارة بواسطة جبريل عليه السلام وهو يقول لرسول الله ﷺ عندما رآها تأتي من أسفل الجبل: «يا محمد هذه خديجة قد جاءتك ومعها إدام وطعام فإذا أتتك أبلغها من

ربها السلام ومني السلام» رضي الله عنها وأرضاها وجزاها عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

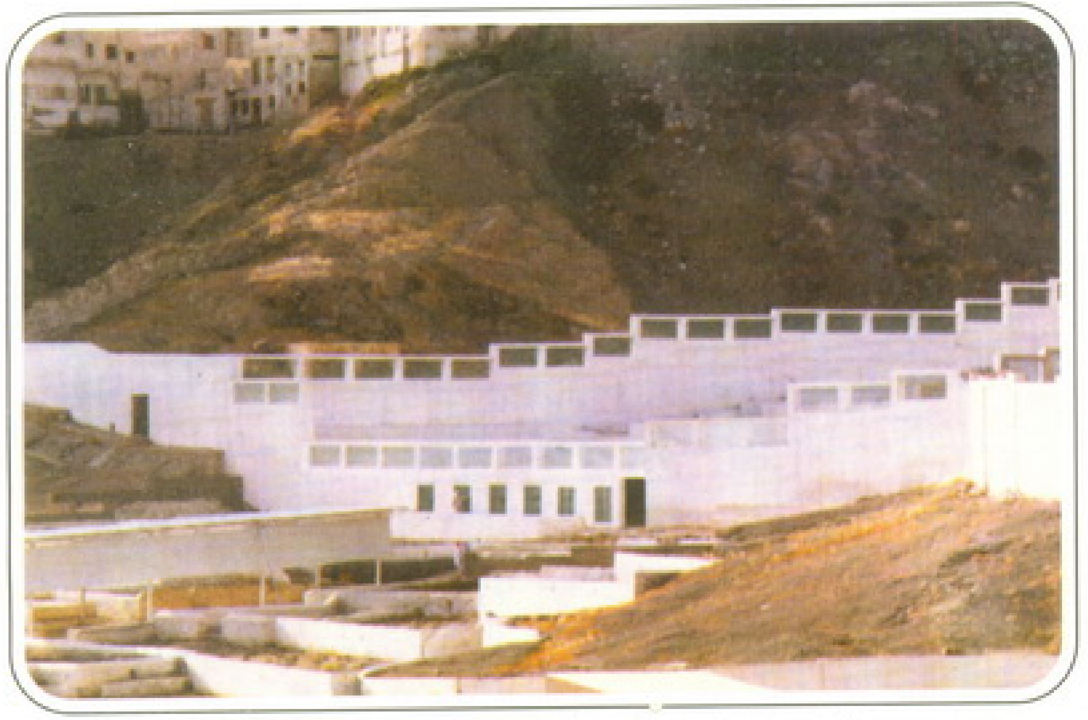
وقد حافظ رسول الله ﷺ على حبها، وحفظ لها مكانتها في قلبه ولهذا كان يصرح دائما وأمام زوجاته جميعاً، بل أمام السيدة التي أحبها بصورة خاصة.. السيدة عائشة بنت أبي بكر الصديق.. فكان يقول: «والله ما أبدلني الله خيراً من خديجة».. لقد كانت ذات مواقف مشرفة.. وأفعال حميدة.. وحتى عندما غارت السيدة عائشة وهي ترى ذلك الحب الكبير للسيدة خديجة من رسول الله ﷺ، فقالت له قولتها: كأن لم يكن في الدنيا من امرأة سواها. ولم يتردد عليه الصلاة والسلام في الدفاع عنها، بل أيد موقفه وعزز حبه واحترامه وأكد لهن جميعاً بل للعالم أجمع أن خديجة سيدة في قلب المصطفى ﷺ.

ولهذا عندما نزل في قبرها وأودعها التراب شعر بألم شديد، وأخذ يدعو لها بالرحمة، وحفظ لها ذلك الحب في قلبه وعقله ووجدانه، لقد كانت صورة صادقة للإنسانة الفاضلة، والرفيقة الكريمة، والزوجة المخلصة، والمؤمنة الصادقة، ولهذا فقد ظلت سيرتها مشرقة وستظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

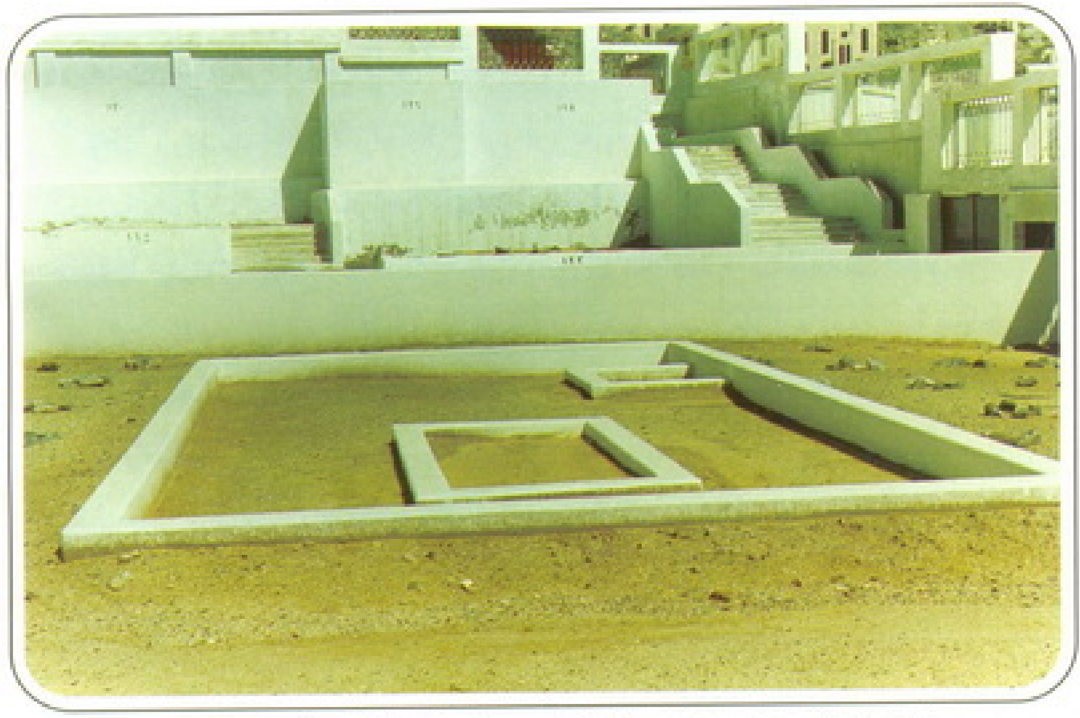
وقد وجدت خلال رحلاتي في أوربا بعض الناس الذين أسلموا في الغرب يقولون بكل صراحة أنهم أسلموا بعد أن قرأوا عن حياة السيدة خديجة بنت خويلد، وموقفها من رسول الله ﷺ، وقد أدى هذا الأمر إلى احترامهم لهذه السيدة لنبلها وصدقها وسلامة موقفها، وصدق تعبيرها وأمانتها وشجاعتها، ولهذا فقد آمنوا برسول الله ﷺ ودخلوا في دين الإسلام.

رحم الله السيدة خديجة وتغمدها برحمته وأسكنها فسيح جناته

وجزاها عنا وعن المسلمين كل خير وطابت هذه الحبيبة وطابت سيرتها رضي الله عنها وأرضاها .



جانب من مقبرة المعلاة ويظهر فيها قبر السيدة خديجة رضي الله عنها



مكان قبر السيدة خديجة رضي الله عنها .. وبجوارها ابنها القاسم في ركن المكان.



صورة لمكان قبر السيدة خديجة رضي الله عنها عندما كان عليها بعض القباب قبل إزالتها ... وبجوارها قبر القاسم ابنها رضي الله عنه
وكان لهذا المقام سدنة يأذنون للناس بالدخول والسلام على السيدة خديجة في قبرها وابنها

القلادة . . وذكرى عطرة

كان أبو العاص بن الربيع من أبرز شباب مكة وأنبلهم، وأكرمهم شيماً وخلقاً، وأعرقهم أرومة ونسباً، فهو الى جانب أنه قرشي في صميم قريش وأشرافها، فانه يلتقي مع رسول الله ﷺ من جهة أبيه في الجد الثالث، عبد مناف بن قصي، وحسبك بذلك نسباً وشرفاً، ثم هو يلتقي به أيضا من جهة أمه بهذا النسب الشريف.

فأمه هي هالة بنت خويلد أخت سيدتنا خديجة، التي تلتقي في النسب مع رسول الله ﷺ في الجد الرابع قصي بن كلاب بن مرة، لأن جدها لأبيها هو أسد بن عبد العزى بن قصي . . وأم خديجة ينتهي نسبها الى الجد الثامن لرسول الله ﷺ لؤي ابن غالب بن فهر، وهي فاطمة بنت زائدة، وأم فاطمة أيضا هي هالة بنت عبد مناف بن قصي.

وقد كانت سيدتنا وسيدة نساء العالمين خديجة وهي خالته تؤثره بحبها ورعايتها، وتعتبره بمثابة ابن لها.

وقد شب كريم الخصال، زكي النفس، محببا الى قومه، معروفا بينهم بالشرف والمروءة والرجولة والشهامة والصدق والأمانة، لهذا كان موضع ثقتهم وتقديرهم، يأتمنونه على أموالهم وتجاراتهم، يسافر فيها إلى الآفاق تاجراً، ثم يعود إليهم بالربح الوفير، فيملؤون بطاح مكة بالثناء العاطر عليه في يمنه وحسن سعيه، وطهارة يده وأمانته.

وقد كانت هذه الصفات الكاملة، والمكانة العالية التي بلغها بين شباب مكة ورجالاتها، مع قرابته لرسول الله ﷺ نسباً وصهراً، مما جعله يتقدم لخطبة بنت خالته زينب الحبيبة من أبيها الصادق الأمين،

وبكر في خطبته لها قبل أن يسبقه إليها بعض فتيان قريش وأشرافها ممن يطمحون إلى هذا النسب العالي الكريم.

وبدون شك.. نحسب أن خالته الكريمة السيدة خديجة قد مهدت له ودعمته ويسرت عليه الأمر عند زوجها الحبيب سيدنا محمد ﷺ، وما كان لمحمد الصادق الأمين الذي يعرف للأمانة قدرها، وللصدق حقه ومكانته أن يتردد في قبول هذه الخطبة وبخاصة وهو يرى قرب هذا الخاطب منه ومن خالته الحبيبة نسباً وشيماً، وتقريبها له وداً وحناناً كأنه ولدها.

وسرعان ماتم هذا الزواج الميمون، وزفت فتاة مكة، وزهرة هاشم، وابنة الطاهرة سيدة مكة من أشرف رجالاتها -محمد الأمين- إلى أبي العاص بن الربيع فتى مكة، وأكرم شبابها.

وماكان أسعد السيدة خديجة وهي تنتقي طرف هذا العرس، وما يطلب في مثل هذه المناسبات، وكم كانت فرحتها غامرة وهي تخلع على ابنتها العروس في ليلة زفافها، قلادة عزيزة عليها، هي عقد نفيس، من حجر كريم، كانت خديجة تتزين به، فخلعته في حبور غامر، وطوقت به عنق ابنتها العروس زينب إعزازاً وحباً، وكأنها تتذكر وهي تفعل ذلك لحظات هنائها يوم زفت هي به إلى زوجها الحبيب منذ سنين في عرسها السعيد.

وعاشت زينب العروس الهانئة مع زوجها وابن خالتها أبي العاص بن الربيع حياة ملؤها السعادة والهناء، تنعم بحبه الصادق، وحب أبويها الكريمين لها ولزوجها.

ومرت الأيام هادئة هانئة، تزيد العروسين السعيدين كل يوم قرباً وحباً، واستيقظت مكة ذات يوم على نبأ عجيب، إن محمداً بن عبد الله

الصادق الأمين يعلن أنه نبي، ويدعو إلى ملة إبراهيم، ويعيب الأوثان وعبادتها والذين يعبدونها، ويأمر الناس بخلع هذه الأوثان، وإفراد العبادة لله الواحد الديان.

واهتزت أرجاء مكة لهذا الأمر الجديد الخطير، وأبى الصناديد من أهلها أن يستجيبوا لهذه الدعوة، رغم ترقب الكثير من بينهم لظهورها، وكثرة ماردده من أقوال عرافهم وكهانهم وعقلائهم عن قرب زمانها، وأوصاف وعلامات صاحبها!!

ولجوا في عنادهم لجاجاً عنيفاً، وحاولوا حجب نورها عن مجتمعهم بل عن الدنيا كلها، لاتكذيباً لحاملها، بل حسداً له أن يختص بها، وخوفاً من أن تضيع مكانتهم، وينحسر سلطانهم في مكة والحرم الذي يفخرون به على كل العرب، ويملكون الصدارة عليهم، وكان من أشد الحانقين والمناوئين للرسول الكريم في دعوته أبو لهب عمه، وزوجه الحاقدة على خديجة ـ أم جميل ـ يدعمهم في ذلك عتاة جفاة من أمثال أبي جهل وعصبته، وكانت دعواهم الضالة وحجتهم الباطلة هي قولهم: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴾[1].

وكان من كيدهم أن جعلوا عتبة وعتيبة ابني أبي لهب يطلقان رقية وأم كلثوم بنتي رسول الله ﷺ من خديجة، ليشغلاه ببناته ومشكلات بيته عن أمر الدعوة الجديدة!!

واستجاب الولدان لأمر أبيهما أبي لهب، وكيد أمهما أم جميل، وتحريض العتاة من قريش، فطلقا الزهرتين الطاهرتين.

واتجه الكيد من هؤلاء المتآمرين إلى أبي العاص ليطلق هو الآخر زوجه زينب الطاهرة، وأغروه بأن يزوجوه أي امرأة سواها يختارها من

---

(١) سورة الزخرف ـ الآية: ٣١

أشرف بيوتات قريش، لكنه ردهم في إباء، وصدهم في استعلاء على كل وعيد أو إغراء، فقال لهم: لا والله إني لا أفارق صاحبتي، وما أحب لي بامرأتي امرأة من قريش.

قال ذلك وأصر عليه.. مع أنه لم يدخل بعد في دين صهره النبي الكريم، ولعل مما أخره عن أن يسلم في ذلك الحين أنفته من أن يقولوا: غلبته امرأته وحبه لها فأدخلته في دين أبيها.

ومرت السنون.. ورزق منها بطفلين.. «أمامة» و«علي». وكانت الهجرة.. وذلك بعد وفاة السيدة خديجة.. وأقام النبي ﷺ بالمدينة. وبقيت زينب مع زوجها الذي لم يسلم بعد وطفليهما في مكة.. وبدأت المناوشات والسرايا بين المسلمين وكفار مكة حتى جاءت غزوة بدر.. واستكرهت قريش أبا العاص كما استكرهت العباس ابن عبد المطلب على الخروج لحرب المسلمين.

خرج أبو العاص.. حياء من أن يقولوا حبسته امرأته أن يخرج مع قومه في استنقاذ عيرهم وأموالهم.

وكانت المعركة.. معركة بدر الكبرى.. ونصر الله رسوله والمؤمنين، وقتل صناديد الكفر وأسر من أسر، وكان من بين الأسرى أبو العاص بن الربيع زوج الحبيبة زينب، وابن أخت الحبيبة الراحلة خديجة الطاهرة.

وسيق الأسرى من بدر إلى المدينة المنورة.. واستعرضهم الرسول ﷺ.. ثم وزعهم على أصحابه ليقوموا بشأنهم حتى يقضي في أمرهم بما يقضي وكان من بين من ضمهم إليه صهره أبو العاص فأحسن نزله و أكرمه وقد أوصى أصحابه بالأسرى خيراً.

وظل أبو العاص عند النبي ﷺ حتى أرسلت قريش في فداء أسراها.

وبلغ أعلى فداء قدمته قريش أربعة آلاف درهم في كل أسير. وقدم عمر بن الربيع أخو أبي العاص ـ في فداء أخيه. وتقدم إلى النبي ﷺ: بعثتني زينب بنت محمد بهذا في فداء زوجها أخي ـ أبي العاص بن الربيع[1] وقدم إلى الرسول ﷺ صرة أخرجها من ثيابه، وحل النبي ﷺ وكاء الصرة ونظر فيها. فاهتز للمفاجأة !!! لقد وجد في الصرة قلادة.. قلادة عزيزة لم يكد يراها حتى اغرورقت عيناه. وهاجته الذكريات وقد رق رقة شديدة لم يستطع أن يستخفى بها.

إنها قلادة خديجة التي كانت هديتها إلى ابنتهما زينب ليلة عرسها، خلعتها من عنقها وألبستها إياها في يوم زفافها، أرسلتها إلى أبيها الحبيب تفدى بها الزوج ابن الخالة الحبيب.

وساد الحاضرين من الصحابة الكرام صمت جليل وترقب ولهفة، يكتنفه احترام ووقور لمشاعر هذا النبي العظيم الذى يفدونه بالمهج والأرواح. ثم قطع هذا الصمت الجليل صوت رحيم جليل، لقد سمعوا الرسول ﷺ يقول فى رحمة وحنان لأصحابه المتلهفين المترقبين: «إن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها، وتردوا عليها مالها فافعلوا»[2] مع أن الله فوضه فى القرآن فى هذا الأمر أن يقبل الفداء من الأسير أو يمن عليه بلا فداء ﴿فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً﴾[3].

وكان جواب الصحابة جميعاً في حماس يهدئه جلال الموقف: نعم يارسول الله.. نفعل.. نفعل ما أحببت.

أليسوا هم الصحابة الكرام والأنصار العظام الذين قام خطيبهم

---

(١) السيرة ٢- ص: ٣١٦-٣١٧. والطبري ٢-٤٦٨

(٢) رواه أبو داود (٢٦٨٥) من طبعة دار القبلة، وأحمد ٦: ٢٧٦ وإسناده صحيح.

(٣) سورة محمد الآية: ٤

بالأمس القريب قبيل المعركة حين قال لهم ﷺ : «أشيروا علي أيها الناس» فقام سعد بن معاذ ـ رضي الله عن سعد بن معاذ ـ قام فقال: يارسول الله آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا. فسالم بنا من شئت، وحارب بنا من شئت، وخذ من أموالنا ما شئت، ودع منها ما شئت، وما أخذت منها أحب إلينا مما تركت.

تفويض مطلق. ولكنه كمال النبوة في العرض، وكمال الصحبة وصدق النية فى العطاء والعرض.

وقبل أن نسترسل في قصة القلادة هذه لابد من الإشارة الى أن حادثة رد القلادة من النبي ﷺ لابنته السيدة زينب عندما بعثتها لتفدي زوجها الذي كان في الأسر بعد معركة بدر، هذه الحادثة تشير الى عظمة الرسول ﷺ حيث علم الأمة قيمة التشاور، حيث شاور المسلمين قبل رد القلادة رغم أنه صاحب الأمر والنهي يستطيع أن يردها دون مشاورة لكن الله تعالى قال له﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ ﴾[1] فالرسول ينفذ أمر الله تعالى.

وفي الحادثة قمة الوفاء من النبي ﷺ لزوجته السيدة خديجة وهي في قبرها وذلك حيث تذكرها برؤية القلادة، التي قدمتها السيدة خديجة لإبنتها السيدة زينب عند زواجها من أبي العاص رضي الله عنهم، لقد تأثر النبي ﷺ عندما رأى القلادة وقد نزعتها ابنته من يدها، لتفدي زوجها من الأسر.

إن تصرف النبي ﷺ لم يكن عن هوى ذاتي، أو على حساب الأمة فهو ﷺ شاور القوم أولاً فرأوا ما رأى، وثانياً، فإن النبي ﷺ لا يتصرف

---

(١) سورة آل عمران الآية: ١٥٩

إلا من خلال الوحي فقد كان رد القلادة سبباً في إسلام أبي العاص فيما بعد.

ثم استدنى رسول الله ﷺ صهره الأسير الذي مَنَّ عليه بلا فداء، أبا العاص بن الربيع.. استدناه، وأسر إليه حديثاً لم يعلم فحواه إلا الله، إلا أنهم رأوا أبا العاص يحني رأسه ويهزه علامة الموافقة على ما قيل له، ثم انطلق إلى مكة حرّاً موفوراً ومعه القلادة العزيزة.

فلما خرج من المجلس وابتعد التفت النبي ﷺ إلى أصحابه وأثنى عليه خيراً وكان مما قال عن أبي العاص: «والله ماذممناه صهراً» ووصل إلى مكة ودخل على زوجته الحبيبة، ابنة الخالة الحبيبة وابنة الصهر الكريم الحبيب الذى أكرم ومنَّ. واستقبلته زينب بفرحة من عاد إليها الحبيب الغائب من شدة مؤلمة وأزمة مرهقة، وأسرٍ بغيض، لكنها لمحت وجوماً يغشى فرحة اللقاء، وحيرة تبدو من حركاته فى ساعة ظنتها تمحو عنه كل آثار البعد والأسى.

وسألته: مابك أيها الحبيب؟

وظل واجماً لا يجيب!

وألحت تسأل!! وازداد الصمت ثقلاً والوجوم كآبة!!!

وظلت تتساءل وتلح..

وأخيراً انفرجت شفتاه عن إجابة كان لها وقع الصاعقة عليها!!

لقد أجاب عن تساؤلها الملحاح بكلمات خرجت من فمه كالهمس متعسرة متعثرة مستسلمة يائسة.

إنّه الفراق يا بنت الخالة.. أجل إنّه الفراق المر.. وإنما جئتك مودعاً فأجهشت ببكاء وألم.. وهي تقول من بين الدموع الحرى: أو قد هنت عليك.. وخضعت أخيراً لكيد قريش.. وأطعتهم في فراقي

فصمت حائراً . . ذاهلاً . .

ولما ألحت دموعها وكلماتها المختنقة بالعتاب . .

قال لها: لا والله ما أطعت فيك قريشاً . . وما كنت لأطيعها مهما ألحت ووعدت أو توعدت . .

فقالت فى عجب: ففيم إذن الوداع والفراق !!

فقال فى حسرة وألم: لقد وعدته بذلك . . ولا بد من الوفاء بما وعدت . فقالت: وعدته . . من هو هذا الذي وعدته !!

فقال: إنه أبوك الكريم . . شرط عليّ أن أردك إليه . . وقال لي: إن الإسلام فرق بيننا، ولا يجوز فى دينه أن تبقي عندي .

قالت: وما يضيرك ان تسلم ونبقى معاً . . ونرحل إلى أبي فنقيم معه . فقال: ما أيسر ذلك عندك وما أشده علي . .

تريدين أن تتحدث قريش أنى إنما أسلمت لأستبقيك . . أو لأني جزعت للأسر . . أوشمت بهم في الهزيمة . . أترضين هذا لي . . لو كان الحال غير الحال لفعلت ولكن ليس عندي إلا الصبر فتجهزي للرحيل .

وتهالكت زينب الوفية يائسة . .

كان أملها أن يسلم هذا الزوج الشهم النبيل . . فكل ما فيه من خلق ومروءة يرشحه ليكون خير من يسلم طواعية . . ولكن ما كل مايتمنى المرء يدركه وبعد فترة صمت واستسلام سمعته يقول:

إن أباك أرسل اثنين من أصحابه لمرافقتك فى سفرك إليه، إنهما: زيد بن حارثة، ورفيق معه من الأنصار ينتظران عند بطن يأجج[1] فاستعدي لترحلي معهما . .

فقالت: ألا ترافقني إلى دار الهجرة؟

---

(١) مكان على بعد ثمانية أميال من مكة.

فقال: لا يا ابنة الخالة.. هكذا رسم أبوك.. وسأنفذ كل ما طلب وخرج من البيت مودعاً حزيناً يحبس دموعه ولا يكاد.

وأخذت تتهيأ للسفر، وحان الموعد، وودعت زينب أبا العاص بن الربيع وداعاً مؤلماً، وداع محبة، لا سيما أن في أحشائها جنيناً منه، ولم يشأ أن يرافقها إلى حيث ينتظر زيد وصاحبه، خاف أن تخونه عواطفه ومشاعره، فأرسل معها أخاه كنانة بن الربيع.

وانطلق كنانة يقود بعيرها نهاراً على مسمع ومرأى من قريش، وهال قريشاً أن تخرج بنت محمد ﷺ هكذا في تحد سافر لهم ولمشاعرهم، وخاصة بعد مصابهم في معركة بدر. فخرج رجال منهم في أثر المهاجرة وأغذوا السير حتى أدركوها في مكان يقال له «ذو طوى»[1] وكان أسبقهم هبارُ بن الأسود. وروع هذا الكافر الحاقد الفاقد لكل معاني الإنسانية، روع المؤمنة المهاجرة بالرمح، ثم نخس البعير الذي ألقى براكبته على صخرة هناك، فوقعت على ظهرها وهنا وقف «كنانة بن الربيع» ونثر أسهمه وهو يزأر: والله لا يدنو مني رجل إلا وضعت فيه سهما. فرجع الجبناء المطاردون، ووقف أبو سفيان بعيداً يقول لكنانة: كف عنا نبلك حتى نكلمك.

فكف كنانة، وتقدم أبو سفيان حتى دنا منه وقال: إنك لم تصب يا ابن الربيع، خرجت بالمرأة على رؤوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية من بين أظهرنا أن ذلك عن ذل أصابنا من مصيبتنا، ونكبتنا التي كانت، وأن ذلك منا ضعف ووهن، لعمري مالنا حاجة في حبسها عن أبيها، ومالنا في ذلك من ثأرة، ولكن أرجع المرأة، فإذا هدأ

---

(١) سكان في ضواحي مكة المكرمة.

الصوت، وتحدث الناس أنا قد رددناها فسر بها سراً فألحقها بأبيها.[1]

وكبر على كنانه أن يردها ليعود فيتسلل بها سراً بعد أن ذاع في الناس أن قريشا قد ردتها، لولا أن سمع توجعها وتألمها، والتفت إليها فراعه أن رآها تنزف دماً، وقد طرحت على إثر وقوعها جنينها على أديم الصحراء. وعاد بها إلى مكة مرة أخرى حيث كان أبو العاص بن الربيع إلى جانبها بضعة أيام لا يفارقها حتى استردت بعض قواها، فخرج بها كنانة مرة أخرى حتى أسلمها إلى زيد بن حارثة وهي تعاني من الإعياء بسبب الإجهاض الذي حدث لها.

ولم يتبعها أحد من الكفار المشركين الذين جن جنونهم بالأمس القريب بسبب خروجها، فقد عيرتهم هند بنت عتبة بكلام مثل السهام، قرعت به أسماعهم، وسخرت منهم به فقالت: أمعركة مع أنثى عزلاء، فهلا كانت هذه الشجاعة يوم بدر؟ وأنشدت تقول:

أفي السلم أعياراً جفاء وغلظة وفي الحرب أشباه النساء العوارك

وعاد كنانة إلى أخيه أبي العاص بعد أن أطمأن عليها في صحبة زيد ابن حارثة وصاحبه.

واتجهت زينب إلى المدينة المنورة، واستقبلها أبوها ﷺ وأهلها، وغضب حين علم بما جرى لها غضباً شديداً، وأمر بعض أصحابه أن ينطلقوا إلى مكة ويحرقوا الرجلين الذين قاما بهذا العمل الدنيء الجبان، ثم في صباح اليوم التالي وبعد أن هدأت نفسه، عادﷺ وطلب منهم أن يكتفوا بالقتل فقط، لأنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا الله تعالى.

ثم يشاء الله أن تقع قافلة لأبي العاص بيد سرية من المسلمين بقيادة زيد بن حارثة، ويستولوا على ما فيها من أموال، ويهرب أبو العاص

---

(١) الطبري ٢/ ٤٧٠

متخفياً خائفاً ويلتجيء إلى زينب في المدينة مستجيراً.

وألقى إليها بالنبأ، وأدارت الأمر بفكرها، ثم انتظرت حتى الفجر، ثم دخلت المسجد وحين بدأ الرسول ﷺ بتكبيرة الإحرام ودخل في الصلاة نادت: أيها الناس إني أجرت أبا العاص بن الربيع!! وحينما سلم الرسول ﷺ من الصلاة أقبل على الناس وقال: أيها الناس هل سمعتم ما سمعت؟ قالوا نعم يا رسول الله. قال أما والذي نفس محمد بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت ما سمعتم، ثم أضاف (بعد وقت يسير): أنه يجير على المسلمين أدناهم وقد أجرنا من أجارت.

ثم انصرف من المسجد، ودخل على ابنته زينب، وطلب منها أن تستوصي به خيراً ولا تدعه يقربها لأنها لا تحل له.

وفي النهار بعث النبي ﷺ من يصحبه إلى المسجد حيث كان الرسول مع أصحابه ثم خاطبهم قائلا:

إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم، وقد أصبتم له مالاً فإن تحسنوا وتردوه عليه، فإنا نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم، فأنتم أحق به، فأجابوا: يا رسول الله: بل نرد عليه أمواله كلها حتى التافه واليسير.

وعاد أبو العاص إلى مكة ومعه أموال الناس التي كان يتاجر بها لهم، وحينما وصل وعرفوا أن أموالهم سالمة، وقد رد إلى كل ذي حق حقه، وقف في جمع منهم ونادى:

يا معشر قريش هل بقي لأحد منكم عندي مال لم يأخذه؟.

أجابوا: لا، فجزاك الله خيراً فقد وجدناك وفياً كريماً.

فقال: فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله.. والله ما منعني من الإسلام إلا تخوف أن تظنوا أني إنما أردت أن آكل أموالكم،

فلما أداها الله إليكم وفرغت منها، أسلمت.

ثم لم يلبث أن توجه إلى المدينة المنورة حيث الزوجة الحبيبة المنتظرة، توجه إلى المسجد النبوي الشريف، وبايع الرسول ﷺ: فرد الرسول إليه زينب على النكاح الأول.

ومع أنه بعد هذا الفراق اجتمع الشمل من جديد لكنه لم يدم إلا عاماً واحداً، حيث توفيت الزوجة الحبيبة، وتركت للزوج الملتاع علياً وأمامه.

أما علي فتوفي قبل أن يراهق.

وأما أمامة فقد عاشت مع أبيها ومع جدها ﷺ تؤنس وحشتهما بفراق الراحلة، وبعد وفاة خالتها فاطمة تزوجها علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبقيت عنده حتى استشهد.

هذا هو أبو العاص.. الرجل الوفي.. والصهر الكريم.. والصحابي الجليل.. أحبه رسول الله.. وكّرمه وأكرمه.. وأحبته أم المؤمنين خديجة وفرحت به ورحبت.. وأحبته السيدة زينب زوجاً وفياً.. ورفيق درب محترم.. وإنساناً على خلق وأدب.. ورجلاً ذا أصل وشهامة ونسب كريم.. واحترمته قريش.. واحترمه كل من خالطه أو عامله.. وقدره كل من عرفه.. فقد كان صادقاً أميناً ذا مروءة.. أكرمه الله بالإسلام.. وشرح صدره للايمان.. وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.. وتوج الله كل تلك الصفات بتاج الإيمان.. بعد أن شهد له رسول الله ﷺ بأنه: «والله ما ذممناه صهراً».

رحم الله أبا العاص.. ورضي الله عنه صحابياً جليلاً.. وصهراً كريماً لسيدنا محمد ﷺ.. وزوجاً للحبيبة زينب بنت رسول الله ﷺ.

احتفاء أهل مكة بذكرى السيدة خديجة

يحتفي أهل مكة بذكرى السيدة خديجة بنت خويلد، ويتتبعون حياتها وعشرتها مع رسول الله ﷺ ثم وفاتها، ويأتي ذلك في إطار تعويد الناشئة على الاحتفاء بجوانب السيرة النبوية، ولهذا فهم يتتبعون سيرة السيدة خديجة وحياتها ويتذكرون فضائلها، وقد عرفت أماكن كثيرة في مكة المكرمة، ومنازل تخصص أهلها في الاحتفاء بحياة السيدة خديجة، ولقد لبيت دعوات كثيرة من هذه المناسبات، فوجدت أنها احتفاءات مشروعة تقتصر على قراءة القرآن الكريم وبعض جوانب سيرة السيدة خديجة وحياتها مع رسول الله ﷺ .. وفي بعض بيوت أهل مكة يقيمون احتفاءاً مماثلاً للسيدة فاطمة الزهراء، ولاشك أن هذه المناسبات، يستفاد منها كمناسبات تاريخية تذكر الناس عامة، والناشئة بصورة خاصة، وتجذب اهتمامهم إلى أمجاد الإسلام، وأحداثه، وتاريخ الأمة الإسلامية، مما يساعد على ترسيخ القيم والمثل في نفوسهم عن طريق استعراض تلك الأمجاد، وعرض أمثال هذه السيرة العطرة أمام أعينهم، وتبسيط الأحداث حتى تصل إلى قلوب الناشئة وعقولهم، وتعرفهم على جوانب من سيرة هذه السيدة، وابنتها السيدة فاطمة، وبقية بنات رسول الله ﷺ.

وقد أسهمت هذه المجالس - في رأيي - في ربط الناس بجوانب من السيرة النبوية، ولاسيما الأطفال والناشئة، وأجمل ما فيها مجالس علم وأدب تروى فيها جوانب من السيرة، ويستمع الناس إلى ألوان من الشعر والنثر الجميل.

وفي مجالس سيرة السيدة خديجة يبدأ المجلس بقراءة القرآن، ويتناوب مجموعة من القراء بأصوات مختلفة، وتلاوات متعددة، وقراءات متنوعة ، ثم تبدأ مجموعة من المنشدين بقراءة قصائد مختارة في مناقب أم المؤمنين الطيبة الطاهرة . كما جاءت في بعض الكتب وأشهر تلك الكتب، هو كتاب (البشرى) في مناقب السيدة خديجة الكبرى لمؤلفه الدكتور السيد محمد علوي المالكي. وهو عالم من علماء مكة الأجلاء، ومن أسرة علم كريمة، ووالده وأجداده من علماء المسجد الحرام، ويحرص على تربية كثير من الطلاب وتعليمهم وإعادتهم إلى بلادهم وبخاصة طلاب دول شرقي آسيا وأندونيسيا، وله كثير من المؤلفات في الدعوة الإسلامية والفقه وجوانب من السيرة النبوية.

وهذه لقطات من السيرة التي تتلى حيث تقرأ مثل هذه النماذج فيقولون: وخديجة التي تشرفت بعشرته وصحبته ، وفازت بخدمته، وشهدت يوم بعثته، وقامت بتأييده في دعوته، ومؤازرته ونصرته، . . وبعد ذلك ينتقلون إلى إسمها ونسبها ولقبها: سيدتنا خديجة بنت خويلد بن أسد بن عبد العزى بن قصي، الأسدية.

وأمها فاطمة بنت زائدة بن الأصم من بني غالب بن لؤي.

وقد حفظها الله تعالى من أرجاس الجاهلية، فأحاط عرض هذه السيدة الزكية وصانه من كل أذية وبليه، برعايته، ولذلك كانت تلقب بالسيدة الطاهرة.

ثم ينتقلون إلى مولدها:

وقد ولدت رضي الله عنها قبل ولادته بنحو خمس عشرة سنة، فنشأت في بيت طاهر طيب الأعراق..

فكانت رضي الله عنها متكاملة، حسناً، وعقلاً، وجمالاً، وفضلاً، حازمة في جميع أمورها.

وظهرت أسرار تلك الأخلاق المرضية والأوصاف الحسنة الزكية، فيما بلغته بين قومها في الجاهلية، من مكانة علية، ورتبة سنية.

ثم يذكرون بداية ارتباطها بالرسول ﷺ:

وقد أراد الله تعالى لهذه السيدة الطاهرة أن تجمع بين شرف الدنيا وعز الآخرة، حين وصلت إليها أخبار سيد المرسلين، بأنه التقي النقي الأمين، فما كان منها إلا أن بعثت إليه وعرضت عليه أن يتجر لها في مالها.. فقبل عليه الصلاة والسلام، وخرج بتجارتها مع غلامها ميسرة، الذي حدثها بما شاهد من بعض علامات النبوة.

وينتقلون بعدها إلى قصة زواجها من الحبيب المصطفى:

ولما أراد الله تعالى لها السعادة الأبدية، والشرف والفضل على نساء البرية.. فاختارت لنفسها سيد ولد آدم أجمعين، الذي تكاملت فيه خصال الكمال والجلال.. فما كان منها إلا أن أرسلت له نفيسة بنت منية، وسيطاً إليه فقالت له: ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما في يدي شيء، فقالت: فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة؟ قال: ومن؟.. قالت: خديجة، وألهمه الله الجواب الموفق، فكانت خطوة مباركة موفقة، فشاور أعمامه، فتقدم حمزة فكلم عمها، ثم ذاع الخبر واشتهر الأمر، وحضر رؤساء قريش يتقدمهم أبو طالب.

وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين بكرة[1]، وقيل: اثنتي عشرة أوقية من ذهب ونصف.

---

(١) الفتية من الإبل.

وتزوج نبينا الأمين سيدتنا أم المؤمنين خديجة، وقد أتم خمساً وعشرين وأتمت هي الأربعين.

وبعد ذلك يذكرون أزواجها قبل الرسول ﷺ وأولادها منهم ، ثم ينتقلون إلى حياتها مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، بادئين بإرهاصات النبوة التي أشهرها الرؤيا الصادقة، إذ كان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حبب إليه الخلاء، فكان يجاور في كل سنة شهراً في غار حراء، مشتغلاً بالعبادة والتفكر في ملكوت الأرض والسماء.

وكان إذا خرج إلى حراء، تتكفل خديجة بكل حاجاته، وتحقق له كافة رغباته، وتهيء له الطعام والشراب، وتيسر له ما تستطيع من الأسباب، فينقطع لمقصوده ويقبل على معبوده .

كانت على ثقة من أنه سيكون له شأن عظيم، يتحدث عنه المسافر والمقيم.. فما أكمل الأربعين حتى جاء اليوم الذي هيأته القدرة الربانية، لإبلاغ الرسالة السماوية، حين فاجأه الوحي في غار حراء..

فرجع إلى زوجته.. وفؤاده يرجف وقال: زملوني، زملوني.. فزملته.

ثم يأتي الكلام عن موقفها مع الرسول ﷺ في دعمه وتأييده، وأن الذي جاءه هو الحق، وأن الله لا يخزيه أبداً، لأنه يصل الرحم، ويحمل الكل ويكسب المعدوم.

ويأتي بعد ذلك الحديث عن ذهابها به إلى ورقة.

ثم اختبارها للملك حين طلبت من الرسول أن يجلس عن يمينها وعن يسارها ثم في حجرها ثم كشفت عن رأسها حتى تأكدت أنه ملك، وليس بشيطان.

ثم يأتي الحديث عن مزاياها وخصالها، وأنها أول من آمن على الإطلاق، وأنها وقفت معه تواسيه، وتهون عليه المشاق، وتبعث الطمأنينة في نفسه. وأنها.. وأنها أول من صلى معه قبل أن تفرض الصلوات الخمس. وأنها أفضل أزواج المصطفى عليه الصلاة والسلام. وأن (خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة) كما روى الشيخان عن سيدنا علي رضي الله عنه.

ومن خصائصها أن أولاده جميعاً منها ما عدا إبراهيم فهو من السيدة ماريه القبطية.

ويمضى الحديث بالتفصيل عن أولاده ﷺ، وأنهم كلهم ماتوا صغاراً، إلاّ بناته الأربع: زينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة الزهراء رضي الله عنهن. وأن نسله قد انحصر في ابنته فاطمة من الحسن والحسين، رضي الله عنهم أجمعين.

وبعد ذلك يذكرون مكانة السيدة خديجة في قلب المصطفى ﷺ. ووفاءه لها، وحفظه عهدها، حتى بعد وفاتها بدهر طويل.

ثم عندما يصلون إلى وفاتها يقرؤون هذا الجزء:

ولما تمت لها الكمالات الباهرة، وتوطنت الرتبة السامية العلية الفاخرة، وامتدت أنوارها وآياتها المتكاثرة، توفيت رضي الله عنها في اليوم الحادي عشر من رمضان، قبل هجرة سيد ولد عدنان بثلاث سنين على الأصح من الأقاويل، وقيل بأربع وقيل بسبع على ما قيل.

ولم يصل عليها ﷺ، لأنها لم تشرع الصلاة على الميت في ذلك الأوان، ونزل النبي ﷺ في قبرها، وسوى عليها التراب، وأحسن نزلها، وهي فضيلة لها دون غيرها من أمهات المؤمنين رضي الله تعالى عنهن أجمعين إلى يوم الدين، وكان لها من العمر خمس وستون،

ودفنت بمقبرة المعلاة المعروفة بالحجون وهذا وإن كان ثبت بطريق الآحاد، إلا أنه اشتهر كل الاشتهار بين كافة العباد.

وحين يصلون إلى هذا الموقف يدعون الله أن يجزيها خيراً عن المسلمين، لما قدمته لرسول الله ﷺ.

ثم يدعون بهذا الدعاء:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

اللهم أنت أحق من ذكر، وأحق من عبد، وأرأف من ملك، وأجود من سئل، وأوسع من أعطى، أنت الملك لا شريك لك، والفرد لاندَّ لك، كل شيء هالك إلا وجهك، لا تطاع إلا بإذنك، ولا تعصى إلا بعلمك، تطاع فتشكر، وتعصى فتغفر، أقرب شهيد وأدنى حفيظ، حلت دون النفوس وأخذت بالنواصي، وكتبت الآثار، ونسخت الآجال، القلوب بك مفضية، والسر عندك علانية، الحلال ما أحللت، والحرام ما حرمت. والأمر ما قضيت، والخلق خلقك، والعبد عبدك، وأنت الله الغفور الرحيم، نسألك بنور وجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وبكل حق هو لك، وبحق السائلين عليك، أن تقيلنا وتجيرنا من النار بقدرتك يا أرحم الراحمين.

اللهم نحمدك على ما هديت، ونشكرك على جزيل ما أسديت، ونستعينك على رعاية ما أسبغت من النعم، ونستهديك الشكر على ما كفيت من النقم، ونعوذ بك من عثرات اللسان، وغفلات الجنان، ومن غدرات الزمان، ونسألك اللطف فيما قضيت. وقدرت، والمعونة على ما أمضيت، ونستغفرك من قول يعقبه الندم، أو فعل تزل به القدم، فأنت الثقة لمن توكل عليك، والعصمة لمن فوض أمره إليك، ﴿ وَأُفَوِّضُ

أَمۡرِيٓ إِلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ﴾[1] ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير. اللهم افتح مسامع قلوبنا لذكرك، وارزقنا طاعتك وطاعة نبيك سيدنا محمد ﷺ، وعملاً بكتابك، واتباعاً لسنة نبيك محمد ﷺ.

اللهم اجعلنا نخشاك وكأنا نراك أبدا حتى نلقاك، وأسعدنا بتقواك، ولا تشقنا بمعصيتك.

اللهم إنا نسألك الهدى والتقى، والعفاف والغنى، وحسن الظن وحسن الخلق.

اللهم أغننا بحلالك عن حرامك، وبطاعتك عن معصيتك، وبفضلك عمن سواك.

اللهم إنا نعوذ بك من جهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، وعضال الداء، وخيبة الرجاء.

اللهم طهر قلوبنا من النفاق، وأعمالنا من الرياء، وألسنتنا من الكذب، وأعيننا من الخيانة، إنك تعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

اللهم جمل أمورنا ما أحييتنا، وعافنا ما أبقيتنا، وبارك لنا فيما خولتنا، واحفظ علينا ما أوليتنا، وارحمنا إذا توفيتنا، وسامحنا إذا حاسبتنا، ولا تسلبنا الإيمان وقد هديتنا.

اللهم إنا نسألك رحمة من عندك تهدي بها قلوبنا، وتجمع بها شملنا، وتلم بها شعثنا، وترد بها الفتن عنا، وتصلح بها حالنا، وتحفظ بها غائبنا، وترفع بها شاهدنا، وتبيض بها وجوهنا، وتزكي بها أعمالنا، وتلهمنا بها رشدنا، وتعصمنا بها من كل سوء.

---

(١) سورة غافر الآية: ٤٤

اللهم أعطنا إيماناً صادقاً، ويقيناً ليس بعده كفر، ورحمة ننال بها شرف كرامتك.

اللهم إنا نسألك الفوز عند القضاء، ونزل الشهداء، ومرافقة الأنبياء، والنصر على الأعداء.

اللهم خذ بأيدينا في المضائق، واكشف لنا وجوه الحقائق، ووفقنا لما تحب وترضى، واعصمنا من الزلل، ولا تسلبنا ستر إحسانك، وقنا مصارع السوء، واكفنا كيد الخائنين، وشماتة الأضداد، والطف بنا في سائر تصرفاتنا، واكفنا من جميع جهاتنا يا أرحم الراحمين.

اللهم اعطنا من الدنيا ما تقينا به فتنتها، وتغنينا به عن أهلها، ويكون بلاغا لنا إلى ما هو خير منها، فانه لا حول ولا قوة إلا بك.

اللهم إنا نسألك نعمة تامة، ورحمة شاملة، وعافية دائمة، وعيشاً رغيداً، وعمراً سعيداً، وإحساناً تاماً، وإنعاماً عاماً، وعملاً صالحاً، وعلماً نافعاً، ورزقاً واسعاً.

اللهم كن لنا ولا تكن علينا، واختم بالسعادة آجالنا، وحقق بالزيادة أعمالنا، واقرن بالعافية غدونا وآصالنا، واجعل إلى رحمتك مصيرنا ومآلنا، وأصبب سجال عفوك على ذنوبنا، ومنَّ علينا بإصلاح أعمالنا، واستر عيوبنا، واجعل التقوى زادنا، وفي دينك اجتهادنا، وعليك توكلنا، واعتمادنا.

اللهم ثبتنا على نهج الاستقامة، وأعذنا من موجبات الندامة يوم القيامة، وخفف عنا ثقل الأوزار، وارزقنا عيشة الأبرار، واكفنا واصرف عنا شر الأشرار، واعتق رقابنا ورقاب آبائنا وأمهاتنا من النار، يا عزيز يا غفار يا كريم يا ستار يا حليم يا جبار برحمتك يا أرحم الراحمين.

اللهم كما مننت على السيدة خديجة بتمام التصديق والإيمان بنبيك سيدنا محمد ﷺ، فمن علينا بذلك يا قديم الإحسان وكما تفضلت عليها بتعظيم حرمته، وحفظ عهده وذمته، ونصر حزبه ودعوته، ومتابعة سبيله وسنته، وتأييد كلمته وحجته، فتفضل علينا بذلك، واكتب لنا من ذلك الحظ الأوفر، والنصيب الأكبر، ووفقنا للاستمساك بسنته، ولزوم ملته، حتى نموت عليها، واحشرنا في زمرته وتحت لوائه، واجعلنا من رفقائه، وأوردنا حوضه، واسقنا بكأسه، وانفعنا بمحبته، وتب علينا، واحفظنا من جميع البلاء والبلواء والفتن، ما ظهر منها وما بطن، واغفر لنا ولجميع المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات الأحياء منهم والأموات، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

ولما رأى هذه الرسالة شيخنا العلامة الشيخ محمد نور سيف أحد كبار العلماء المدرسين بالمسجد الحرام قال رحمه الله:

أيا مهدي البشرى سعدت لك البشرى بنيل الرضى من تلكم الجدة الكبرى
ودمت قرير العين يا من تحبها تفوز بما ترجو بدنياك والأخرى

ولقد تعاقبت الأجيال في مكة المكرمة، تحتفي وتعنى وتهتم بمولد السيدة خديجة.. وكان هذا الاحتفاء في الزمن الماضي يأخذ شكل الاحتفال.. فكان الناس يتجمعون في المسجد الحرام، في يوم مولد السيدة خديجة، ثم يخرجون إلى باب السلام.. ويقفون هناك وينتظرون حضور الحاكم أو الوالي أو الأمير.. ثم يسيرون في اتجاه مقابر المعلاة في موكب مهيب.. يهللون ويكبرون فيه، وينشدون الأناشيد.. ثم إذا وصلوا إلى المعلاة، يتجهون إلى ناحية قبر السيدة خديجة.. وعندها يخرج سدنة مقام السيدة خديجة ـ وهم آل الباروم ـ فيستقبلون الموكب، ويقف الجميع يقرأ الفاتحة ويس، ثم يدعون

للسيدة خديجة، ويسألون الله أن يجزيها خيراً على كل ما فعلته مع رسول الله ﷺ ثم يعودون إلى الحرم . . أو إلى منازلهم .

وقد تم إيقاف كل هذه الاحتفالات منذ زمن طويل، وأزيلت القباب والمباني التي كانت مقامة على قبر السيدة خديجة أو حولها للسدنة . . وما يزال القبر الشريف محفوظا ومعتنى به في نفس المكان، يزوره الناس ممن يرغب، ويسلمون عليها رضي الله عنها وأرضاها .

دور الشعر في تكريم السيدة خديجة

أحاول في هذا الفصل أن ألقي الضوء على نماذج من الشعر الذي قيل في سيدتنا خديجة بنت خويلد.. رضي الله عنها وأرضاها. هذه السيدة التى أحبها الله.. وحببها إلى سيدنا محمد ﷺ، وحببه إليها.. حتى خلّد الله هذا الحب السامي بحكمته فاختارها لتكون رفيقة دربه.. وسند جهاده، وعونه وعتاده.. زملته، ودثرته، ووقفت إلى جانبه، وكانت الصديقة الأولى.. والزوجة الأولى.. والمؤمنة الأولى.. والحبيبة الأولى.. وحظيت منه بحب كبير.

على أن الحب الذي حظيت به سيدة النساء خديجة، طراز فريد لم تحظ به امرأة أخرى في أي زمان!.

فلقد فازت بحب مجتمعها الذي عاصرته جاهلية وإسلاماً، وفازت بحب خاتم النبيين فى حياتها معه، وبعد رحيلها عن دنيانا، حتى قال عنها: «إني قد رزقت حبها»[1] بل امتد حبه لها إلى أن جعله يحب كل من يحبها فقال: «إني لأحب حبيبها»[2].

وبلغ من عمق هذا الحب أن لم تستطع امرأة أخرى أن تملأ الفراغ الذي تركته في حياته، أو تنسيه حبه لها.. «لا والله ما أبدلني الله خيراً منها». مع أن الله تعالى قد زوجه بعدها بزوجات فاضلات.. أمهات للمؤمنين عفيفات كريمات فاضلات.

وإلى جانب هذا الحب العظيم. فازت كذلك بحب المؤمنين جميعاً

---

(١) رواه مسلم وابن حبان عن عائشة.

(٢) حديث صحيح، رواه ابن حجر في الإصابة.

في عصرها، وفي كل العصور بعدها حتى اليوم في إجماع رائع وحب عظيم لها ولكل ولدها.

وقد تجسد هذا الحب وفاء كريماً دائماً عند حبيبها ﷺ، وتذكراً لها، وتخليداً لمواقفها ومناقبها ـ في حديثه المتجدد عنها كل يوم ـ وتكريمه وصلته لقرابتها وصديقاتها بعد وفاتها، وحفظه لعهدها بعد وفاتها، مما جعل لها ولكل من لاذ بها مكانة كبيرة في نفوس الصحابة رضوان الله عليهم حتى ذريتها من غير النبي ﷺ.

ولسائل أن يسأل، لماذا لم نسمع من شعراء النبي ﷺ شعراً فيها كما نسمع من شعراء اليوم؟.

والجواب: أن الشعراء لم يقولوا في ذلك العصر النبوي شعراً في غيرها من النساء، وذلك لأن المرحلة المكية التي استغرقت حياتها مع النبي ﷺ، وما فيها من أحداث وصراع تشغل الأذهان والألسن عن مثل هذه الأغراض، وكذلك لم يكن هناك شعراء مسلمون يشغلهم هذا الجانب، ولم يظهر دور الشعراء المسلمين إلا في المرحلة المدنية، حيث تميز المسلمون في مجتمع جديد، قيادته لنبيهم ﷺ. تفجر الأحداث فيه قرائح الشعراء بما فيها من غزوات وسرايا، ومواجهات جدلية مع قادة المشركين وشعرائهم وخطبائهم، فقالوا في ذلك ما قالوا استجابة لطبيعة المرحلة، خطابة وحواراً وشعراً، وكان السراج المنير الذي يجتذب كل المشاعر في تلك المرحلة هو الرسول ﷺ، وكانت خديجة الطاهرة رضي الله عنها ـ في ذلك الوقت ـ غائبة عن حياتهم، وإن لم تغب عن مشاعرهم وتكريمهم، بما حفظوا من مناقبها وأخبارها التي طالما رددها الرسول ﷺ، ويكفي لتأكيد ذلك غيرة أمنا الكريمة عائشة رضي الله عنها التي تذكر أنه ﷺ كان يكثر من ذكر خديجة إلى

درجة أثارت فيها الغيرة من الضرة ـ مع أن خديجة كانت تحت أطباق الثرى ـ وهي غيرة الزوجة التي تجد زوجها الحبيب يذكر أمامها في دخوله وخروجه الثناء العاطر على خديجة الراحلة ـ وهي غيرة لم يكن مصدرها الحقد على خديجة رضي الله عنها، ولكنها محاولة لنيل قدر أكبر من الاستئثار بحبه ـ في دلال الزوجة المحبة تطلب من زوجها المزيد من الاهتمام، وكأنها تقول له: وأنا أيضاً هنا، وتذكر السيدة عائشة فيما ترويه في هذا الشأن شدة تأثر النبي ﷺ من قولها، وتدعو الله تعالى في سرها أن يذهب غضبه منها، وتعاهد الله أن لاتعود إلى مثل ذلك أبدا، وهي تروي ماقاله في مناقب ضرتها خديجة، في اعتراف منها بأنها أخطأت حين قالت بأن الله قد أبدلك خيراً منها.. وفي هذا مافيه من الدلالة الواضحة على عظمة نفسها، واقرارها بفضل خديجة، وتفضيلها على نفسها، بل إنها تروي ذلك لإظهار هذا الفضل، ليكون لها شرف إذاعته في الناس إلى يوم القيامة، رغم مافيه من حرج عليها، وكانت تستطيع أن تسكت عن ذلك فلاتذيعه، ويبقى سراً مكتوماً إلى الأبد، ولكن هذا ليس من خلقها، وهي الصديقة بنت الصديق، والزوجة الأثيرة تعرف سمو منزلتها عند رسول الله ﷺ، وأنها أحب نسائه إليه بعد خديجة.

بل ولتسمع الدنيا كلها كمال خلق أزواج النبي ﷺ وكمال أخلاق الصحابة الذين كانوا أفضل خير أمة أخرجت للناس!!

ونلحظ فيما نرى من مؤلفات قديمة وحديثة، تسلسل هذا الاهتمام والتوقير والحب لهذه السيدة الجليلة الطاهرة، وكثرة ما كتب عنها في السير والتراجم والتواريخ وماكتب عنها من مؤلفات خاصة بها، ولو حاولنا احصاء هذه المؤلفات لبلغت العشرات فيما تصل إليه أيدينا،

وقد يغيب عن حصرنا عشرات أخرى، تجعل المحصلة النهائية تدخل في حساب المثين.

أما الشعر، فلو أحصينا ما ينشد على أسماعنا، أو ما كان يقرأ في دواوين الشعراء في عصور مختلفة لوجدنا من ذلك قدراً كبيراً، ما بين فصيح معرب، وعامي مطرب، ولعل أقدم ماقيل من رجز ذاك الذي تغنت به النساء في عرسها:

لا تزهدي خديج في محمد   نجم يضيء كشهاب الفرقد

ولكنني في هذه المحاولة المجتزأة سوف أحاول تقديم دراسة عجلى لقصائد من حصلت على أشعارهم في هذه الصديقة الأولى الطاهرة خديجة الكبرى.

ولقد أصبح كثير مما يقال فيها نوعاً من التراث، يروى وينشد ولايذكر قائله، بل لانكاد نعرف القائل في كثير مما سمعناه. وإن يكن بعضه مازال معروف القائل والمصدر، خاصة للشعراء المعاصرين مثل:

١ حدث عن الفضلى فأنت مصدق   فالفضل فيها ثابت ومحقق

للشاعر: بدوي طيب الأسماء.

٢ ومثل:

شرفاً قد بلغت من مولاك   يا خديج بالمصطفى قد حباك

للشاعر: طه بن حسن السقاف.

٣ ومثل:

قف بالحجون سويعة يا حادي   واقر السلام أهيل ذاك الوادي

للشاعر: السيد جعفر الميرغني.

٤ ومثل :

يا راحلاً إن جئت وادي المنحنى فاحطط به وأنزل على كنز المنى

للشاعر : السيد الحبيب عبد الله الحداد .

٥ ومثل :

كـرمـوا ذات العفـاف كـرمـوا بنـت خـويـلـد

للشاعر : السيد فؤاد أمين حمدي .

٦ وله أيضا :

جمال قريش قد تجلى بطلعة لجدة آل البيت بنت خويلد

٧ ومثل :

ياشعب أهل المعلا

للشاعر : السيد محمد بن علي المحضار .

٨ ومثل :

بشـراك سيـدتنـا بشـراك آل الـرسـول جميعهـم أبنـاك

٩ ومثل :

صـلاة بـالبكـور وبـالعشيـة على المختار والزهرا الرضية

للشاعر : السيد محمد بن علي المحضار .

١٠ ومثل :

بالله يا بدر التمام

للشاعر : السيد محمد أمين كتبي .

١١ ومثل : قصائد :

ياخدرها كم كنت معراج الهدى ياخدرها أوما اهتززت إلى الندا

للشيخ : السيد محمد بدر الدين .

١٢ وقصيدة:

سعيـــت إليـــك مبهـــوراً ودربـــي يـــورق النـــورا

١٣ وقصيدة:

يسمــو عــلاك وليــس أيــن فسمـــاك أعلـــى الجنتيـــن

١٤ وقصيدة:

يــازوجــة أحمــدنــا الهــادى وســراجــاً مــن خيــر ســراج

١٥ وقصيدة:

الشعر يزهر حين ينظم مدحها والقلب يطهر حين يلزم حبها

١٦ وقصيدة:

وحقك ما في القلب غير هواك ومــا تقــت إلا إلــى لقيــاك

١٧ وقصيدة:

شع السنــا فــي روضهــا لالاء وانظره في المعلا يفيض بهاء

١٨ وقصيدة:

بنفسي من سمت فوق الثريا ونــالــت أحمــد الــدنيــا العليا

وهذه من قصائد للشاعر محمد بدر الدين، وهناك قصائد كثيرة لايعرف أصحابها:

١٩ وقصيدة:

ســلام الله قــد سبــق الســلامــا لزوجة خير من صلى وصاما

٢٠ وقصيدة:

يــاواهــب العطــايــا بــأشــرف البــرايــا

وهناك قصائد فيها مدائح ومناجاة تضمنت كثيرا من مواقف الثناء على السيدة خديجة مثل:

٢١ يــا أهــل الإسعـــاد والعطـــا والإرفـــاد

٢٢ ومثل :

سعدنا في الدنيا وفوزنا في الأخرى

٢٣ ومثل :

ربي سألتك بحرمة سيدتنا خديجة زوجة المصطفى عجل لنا بالفريجه

٢٤ ومثل :

يا أم فاطمة البتول تشفعي لقرابة يسعون حول حماك

وهناك قصيدة جميلة للسيد عبد القادر جيلاني الخرد، يقول في مطلعها :

علوت فلم تدرك مقاماتك الكبرى

فغيرك لا تدعى - وإن عظمت - كبرى

وكم في نساء العالمين عظيمة

ولكنها إن قورنت بك فالصغرى

ثم يتحدث عن فراستها رضي الله عنها فيقول :

تفرست في وجه النبي فراسة

عرفت بها ما كان من أمره سرا

رأيت به نور النبوة ساطعا

فأسرعت نحو النور فزت به مهرا

بميسرة قد يسر الله كل ما

تريدينه فاليسر قادك لليسرى

ثم يعرج على الطريقة التى طمأنت السيدة خديجة بها رسول الله ﷺ عندما جاءه جبريل لأول مرة :

وأنت التي طمأنت طه بأنه

تلقى من الله الرسالة والذكرا

وزملته. دثرته، ولورقة

ذهبت به يتلو عليه الذي يقرأ

ولما أتى جبريل قمت بخلعك

النقاب فلم يمكث فأعلنتها بشرا

كتبت حروفا من حياة محمد

فأصبحت في أعلا صحائفها سطرا

وقد شكر المولى صنيعك إنه

الشكور. وهذا الفعل يستوجب الشكرا

فأهداك - مولاك السلام سلامه

وأعطاك في الفردوس من قصب قصرا

****

مراتب لايعلى عليها ورفعة

لكم خصصت فالله أعلاكمو قدرا

ترعرع هذا الدين في بيتكم كأنه

التوأم الروحي لفاطمة الزهرا

وسنحاول في إيجاز عرض مناهج الشعراء في مدح سيدتنا وأمنا العظيمة خديجة الكبرى والحديث عما تعرضوا له من شأنها، مع التمثيل لذلك بشيء من أشعارهم، والشاعر العربي قديماً كان يقف على الأطلال ويحيي الربوع والأماكن، ويذكر الأحبة، وكذلك يفعل كثير من شعرائنا اليوم وسنلاحظ أنهم تكلموا عن الحجون والمعلا وماحولهما من

الأماكن وحنوا إليها لوجود دارها بجوارها أو لوجود قبرها فيها . .
وخدرها كان هناك .

فنجد الشاعر : السيد جعفر الميرغني يقول :

قف بالحجون سويعة يا حادي واقر السلام أهيل ذاك الوادي
وأنخ ركاب الشوق في سوح العلا سوح الكرام السادة الأمجاد

والشاعر السيد عبد الله الحداد يقول :

يا راحلاً إن جئت وادي المنحنى فاحطط به وانزل على كنز المنى
واقر السلام لجيرة حلوا به وانشد فؤادا ضاع في ذلك الفنا

ويقول الشاعر السيد أحمد بن محمد بن علي المحضار :

يا أهل شعب المعلا والذي في أعلى
حيي بتلك المعلا سيدتنا الكبرى

أما الشاعر السيد مصطفى أحمد المحضار فيقول :

خديجة الصدق أم المؤمنين ومن حلو بشعب الحجون الطيب الأرج

وله أيضا :

وقد هبت نسيمات المعالي من المعلاة أرض الأبطحية
رياض الخير في حرم شريف هواطل جوده فيها مرية
أحب لها جياد وما يليه وزمزم والصفا فيها معيه
سقى الله الأباطح والمصلى ووادي الحي ما برقت سريه

ويقول الشاعر السيد عبد القادر الخرد ـ يصف عام الحزن بعد وفاتها :

ولكن صدر المصطفى لم يضق بها
فقابلها بالحلم وأدرع الصبرا
وظل وفيا سيد الرسل . ذاكراً
ودادك في الأصحاب حتى قضى العمرا

إذا ذكـرت يـومـا خـديجـة عنـده

تنهـد مشتـاقـا وأعجبـه الأطـرا

وعـائشـة لمـا ادعـت أفضليـة

تغيـر وجـه المصطفـى الطهـر واحمـرا

وشـاهـد فـي بـدر قـلادة زينـب

وقـد أرسلتهـا تفتدي الـزوج فـي الأسـرى

فـرق لهـا، سـالـت مـن الـدمـع عينـه

الشـريفـة لمـا حـركـت قلبـه الـذكـرى

فحبـك فـي قلـب النبـي ممكـن

هنيئـا فقـد حـزت السعـادة والفخـرا

ويقول الشاعر محمد بدر الدين:

بالمعلا قد جئت أناجي	كلهيف برحابك لاجي
قد جئت حماك بآثامي	لأعـود بغفـران النـاجـي

وفي أخرى يقول:

سعيـت إليـك مبهـورا	ودربـي يـورق النـورا
بروضك في ذرا المعلا	رأيـت النـور منظـورا
علـى جنبـاتـه شهـب	تـزف مـن السمـا حـورا
وصائف من جنان الخلد	قـد أغضيـن تـوقيـرا
يلذن بروضـك الميمون	درن بقـدسـه سـورا

وفي مقام آخر يقول:

ياقبرها ولديك أكرم زوجـة	أرضت شمائلهـا النبي محمدا
لو تملـك الافلاك في آفاقهـا	سعياً لجئن إلى رحابك سهدا

أما الشاعر السيد طه السقاف فيقول:

وأتينا إلى الحجون وفيه النور والطيب قد سرى من شذاك

ونجد معنى الوقوف عند الحجون والمعلا معنى مشتركاً بين كثير من الشعراء، وتمجيد من حلوا به وإقراءه السلام عليهم والتغني بشذاه ونسيمه، وتعلق القلوب به ـ ولمح السنا والنور في أرجائه ـ والإحساس بالحنين والحنان الدافق الذي لم يحبسه الموت ـ بل وتشخيص الطبيعة ـ فكل ما حول الضريح حشم يستقبلون الزائرين، وكأن كل شيء في مهرجان فالصخر مبتسم، والثرى متهلل والطير شاد، والغصن يميل بظله نحو الزوار ويحييهم، وهناك ترجى من الله المغفرة، وتمتلىء النفس سعادة بمكان يشرق منه النور، وتحف به الحور، وصائف من الجنة أغضين في سكون توقيرا كأنهن سور حول هذا الرمس الميمون الذي ضم أكرم زوجة أرضت النبي الكريم ـ حتى إن الأفلاك تتمنى أن تسعى إلى هذا المكان خاشعة إلى مكان التقى فيه النور والشذا والتقى.

فإذا انتقلنا إلى موضوع شرف السيدة خديجة، ومكانتها قبل الإسلام وقبل زواجها من النبي ﷺ، فسنجده أيضاً موضوعاً مشتركا بين كثير من الشعراء، تكلموا عن مكانتها وعقلها وطهرها وكرمها وغناها فنجد الشاعر: السيد طه السقاف يقول:

وقريش وهم حماة الأرض قد أكبروك في علياك

عرفوا أنك الحكيمة عقلا حرة برة يعم نداك

قد جمعت الخلال نبلاً وطهرا وسخاء والجود من يمناك

ونجد الشاعر السيد مصطفى أحمد المحضار يقول:

في الجاهلية قد علوت مكانة والله بالمال الكثير حباك

ويقول الشاعر السيد محمد بدر الدين :

كم سيد قد جاء يطلب ودها ... لكنها رضيت محمد سيداً

أما الشاعر : السيد فؤاد أمين حمدي فيقول :

إنها أصل تسامى ... إنها حسن تفرد

وفي قصيدة أخرى له يقول :

جمال قريش قد تجلى بطلعة ... لجدة آل البيت بنت خويلد

حوت كل آيات الجمال بوصفها ... وأخلاقها والأصل أكرم محتد

وأمجاد أصل كم رأينا ثماره ... تفرع من أصل النبي محمد

سبقت جميع الأمهات أصالة ... وحسناً وأخلاقاً وفزت بمقعد

ويقول الشاعر السيد بدوي طيب الأسماء :

حدث عن الفضلى فأنت مصدق ... فالفضل فيها ثابت ومحقق

والشاعر السيد جعفر الميرغني يقول :

حازت فضائل لم يحزها غيرها ... في عصرها من حاضر أو بادي

ويقول الشاعر السيد عبد القادر الخرد :

ربحت رسول الله حين خطبته ... فكنت له مأوى . شددت له أزرا

وأصبحت مهداً للرسالة حاضنا ... تلقيتها من حين ما نزلت إقرا

فهم متفقون على جمالها وكمالها وجودها وغناها ورغبة السادة فيها وإكبار قريش لها ـ وتفوقها على نساء عصرها بسعيها في ذلك .

وقد تكلموا عن فراستها ، وسفره في مالها ، وخطبتها له ، وذهابها إلى ورقة ، فقال السيد محمد أمين كتبي :

سعيت إليه من قبل ارتقابا ... ليوم نبوة تمحو الظلاما

وقال السيد محمد بدر الدين :

بنفسي من سمت فوق الثريا ... تطالع أحمد الدنيا الأبيا

شأنه في غد نبي عظيم فاحفظيه عشية وضحاك

فهنيئا بلغت مجداً كبيرا لم تنله من النساء سواك

فإذا نظرنا إلى تشرفها فوق شرفها بزواجها من الصادق الأمين ﷺ، فسنجد الشعراء قد أفاضوا في ذلك.

فالشاعر: السيد جعفر الميرغني يقول:

وأقصد هناك فريدة الحسن التي حوت الفخار بسيد العباد

وقل السلام عليك يا أم الهدى زوج الرسول الهاشمي الهادي

واستمع إلى الشاعر السيد فؤاد حمدي يقول:

قد حوت كل المزايا حين زفت لمحمد

ويقول أيضاً:

عليك سلام الله أكرم زوجة لأفضل مخلوق وأكرم سيد

جمعت صفات قد تعذر عدها وحسبك أن تحظي بحب محمد

والسيد أحمد المحضار يقول:

أنت العظيمة منزلاً ومكانة وجلالة جلت عن الادراك

وعلوت في الإسلام وحدك رتبة فاقت سموا رفعة الأفلاك

ويقول الشاعر أيضاً:

سلام الله قد سبق السلاما لزوجة خير من صلى وصاما

ويقول الشاعر السيد محمد أمين كتبي:

فلها من الفضل الذرا ولها من المجد السنام

والله شرفها وطهر عرضها من كل ذام

ويقول آخر:

سعيت إليه من قبل ارتقابا ليوم نبوة تمحو الظلاما

فحزت الخير والإسلام جمعا وأول من بما أمر التزاما

ويقول الشاعر السيد محمد بدر الدين :

ياخدرها وغدوت معراج الهدى لما استفاض النور فيك وغردا

ويقول أيضا :

سلاماً زوجة المختار مبعوثاً ومنصورا

وفي قصيدة أخرى له :

يسمو علاك وليس أين فسماك أعلى الجنتين

ويقول في غيرها :

يا زوجة أحمدنا الهادى وسراجاً من خير سراج
يا أماً شرفها ربي بمحمد في خير زواج
وشرفت به فوق نسا وحباك المنعم بالتاج

ويقول شاعر آخر :

بشراك باتصال بالمصطفى الرسول
بشراك بالمعية

ويقول السيد السقاف في هذا :

شرفاً قد بلغت من مولاك ياخديجاً بالمصطفى قد حباك
نلت ما نلت رفعة ومقاما منة منه ربنا أعطاك
وحباك الإله فضلاً عظيماً وبخير الأنام نلت مناك

ولعلك تدرك معي أنهم جميعا يؤكدون حقيقة أنها بلغت غاية الشرف بزواجها من الرسول ﷺ . فقد حازت الفخار بسيد العباد، وحوت كل المزايا حين زفت له، وحسبها من الفخر حبه لها، فلها ذروة الفضل وسنام المجد، وأصبح خدرها يستفيض فيه ومنه نور النبوة والوحي فهي زوجة الهادى سراج من خير سراج شرفها الله بحبيبه فى خير زواج ففاقت

بذلك كل النساء شرفاً.

ومن المعاني المشتركة التي تحدث عنها الشعراء في قصائدهم أن خديجة سيدة النساء وأفضلهن زوجاً ولاتقاس بغيرها فضلاً وطهراً اسمع معي قول الشاعر بدوي طيب الأسماء في ذلك:

هذي خديجة لاتقاس بغيرها　　إلا وكان لها المقام الأشهق

أما السيد طه السقاف فيقول:

أنت للطهر والفضيلة رمز　　وبعقل الحكيم فقت سواك

وفي آخرها يقول:

فهنيئا بلغت مجداً كبيراً　　لم تنله من النساء سواك

ويقول شاعر:

يا أفضل النساء　　حقاً بلا مراء

ويقول الشاعر: السيد محمد بدر الدين:

ما مثل خدرك ياخديجة رفعة　　طهراً وتشريفاً ومجدا معردا[1]

ويقول أيضاً:

حبيبة خير خلق الله　　قد أعطيت تعبيرا

فأنت وفاطم أعلى　　نساء الخلد تصديرا

ويقول السيد محمد أمين كتبي:

وخديجة الكبرى التي　　بالجود سابقت الغمام

فلها من الفضل الذرا　　ولها من المجد السنام

ويقول السيد أحمد المحضار:

أنت العظيمة رتبة ومكانة　　وجلالة جلت عن الإدراك

فبخ بخ يادرة قرشية　　ما في النسا من قد رقت مرقاك

---

(١) الصلب الشديد المنتصب.

اما السيد فؤاد أمين حمدي فيقول:

كرمـوا ذات العفــاف كـرمـوا بنـت خـويلـد
من سمت كل النســاء وعلـت عـن كـل فـرقـد

ويقول أيضاً:

وفأنتم منارات الهدى ورحابه اليكم تناهى كل عز وسؤدد

واسمع الشاعر بدوي طيب الأسماء يقول في قصيدته: حدث عن الفضلى:

وأدر حديث خديجة الكبرى أدر فحديثها بشذا الفضائل يعبق
مهما أفاض الواصفون لفضلها وتسابقوا بالمدح فيها أخفقوا
لاتحصر الألفاظ غر صفاتها بل لايفي التعبير مهما نمقوا
ياجدة الحسنين والأشراف من يعلو علاك وفي المفاخر يلحق؟

والشاعر السيد جعفر ميرغني يقول:

وعلت على هام السِّماك برتبة وسمت على الأمثال والأنداد
يا من كرامتها كشمس ظهيرة يا من إغاثتها كقدح زناد

أما عن كناها وأوصاف التكريم لها فما اكثرها في أشعارهم، فإذا كانوا فيما أسلفنا قالوا أنها لاتقاس بغيرها، وأنها رمز الطهر والعفاف والفضيلة، وأنها بلغت مالم تبلغه سواها وأنها وابنتها أعلى نساء الجنة مكاناً، وأن الألفاظ لاتحصر صفاتها، فاسمع معنا ما أطلقوه عليها من الكنى وعبارات التكريم:

يقول السيد جعفر الميرغني: إنها أم الورى وأم البتول وذات التقى وجدة الحسنين، وجدة السبطين وبحر الندى والجود.

وقل السلام عليك يا أم الورى زوج الرسول الهاشمي الهادي
أم البتول خديجة ذات التقى من بشرت بالفوز والاسعاد

يا جدة الحسنين والسبطين يا بحر الندى والجود والإمداد

وعند السيد بدوي طيب الأسماء: هي أم فاطمة البتول وأم من ولدهم الرسول وجدة الحسنين والأشراف:

يا أم فاطمة البتول وأم من ولد الرسول الهاشمي المعرق

يا جدة الحسنين والاشراف من يعلو علاك وفي المفاخر يلحق؟

وهي عند السيد مصطفى المحضار أم المؤمنين، وأم من حلوا بشعب الحجون العطر، وأم فاطمة البتول، وجدة السبطين، وخير النساء، وأم آل البيت والنساك.

خديجة أم المؤمنين ومن حلوا بشعب الحجون الطيب الأرج

ويقول:

يا أم فاطمة البتول تشفعي لقرابة يسعون حول حماك

يا جدة السبطين يا خير النساء يا أم آل البيت والنساك

أما السيد محمد أمين كتبي فهي عنده خديجة الكبرى، وأم البتول واخوتها، وأم المؤمنين فيقول:

وخديجة الكبرى التي بالجود سابقت الغمام

أم البتول وأم اخوتها كدر في نظام

بالله أم المؤمنين تذكري هذا الغلام

أما السيد فؤاد حمدي فهي عنده أم المؤمنين وزوج محمد وكفى بهذا شرفاً:

فهي أم المؤمنينا إنها زوج محمد

وهي جدة آل البيت وجمال قريش:

جمال قريش قد تجلى بطلعة لجدة آل البيت بنت خويلد

وهى الدوحة الكبرى، وجدة الآل، وأم زهراء الوجود، وجدّة نسلها:

هي الدوحة الكبرى تمد غصونها على خير أهل الأرض أحفاد أحمد
فيا جدة الآل الكرام تحية من القلب أهديها بحب مجدد
أيا أم زهراء الوجود تفضلي علينا بفيض من حنانك مسعد
أيا أم فاطمة وجدة نسلها زهوراً على هذا الأديم الممهد

أما الشاعر السيد محمد بدر الدين فيقول هي أم الآل ـ والعترة كلهم من نسلها، وهي أم فاطمة، وهي أمنا، وزوج خير الأمتين، وحب النبي ووزيره، ودفء عمره، وأوفى النساء فيقول:

والعترة الغر الكرام جميعهم من نسلها أعلام صدق للهدي

ويقول:

سلام أم آل البيت مبذولا ومنثورا
سلام أم فاطمة على مثواك منشورا
سلام أمنا الغراء لا أحصيه تقديرا

أما ما سبقت اليه غيرها فكانت الأولى فيه فاسمع ما قالوه فى ذلك:
السيد السقاف يقول في ذلك: أنها أول من آمن، وأول من ثبت، وأول من جاءته البشرى:

أنت من أنت. أنت أول شخص صدق النور إذ دعا يا هناك
عندما قال عائدا من حراء زملوني زملته بكساك
كنت نعم الحنون خففت عنه كلما جاء منه نحوك شاك
لا تخف سيدى حبيبي كلا.. كيف تخزى وأنت فوق السماك
كنت تولي الجميل تصنع عرفا أنت تحنو على اليتيم الباكي
أنت تقري الضيوف أنت كريم صادق القول طاهر كالملاك
لست تخزى وأنت خير أمين لن تجازى بشقوة وهلاك

وأمين السماء جاء ببشرى وسلام يهديه من مولاك
والبشارات جمة وكثير وببيت في جنة قد حباك

وقال شاعر آخر:

قد فزت بالسلام من ربنا الرحيم

وله أيضاً:

وجنة النعيم في غرفة بهيه
غرفتها عظيمة من قصب كريمة
وهبتها كرامه بشراك بالعطيه
آمنت بالبشير والناس في كفور
رزقت بالذراري فاحظي بهم سنيه

اما الشاعر محمد بدر الدين فيتكلم عن تفردها بالتثبيت والتدثير وعدم الزواج عليها وأنه لم يَشْكُ منها يوماً ـ وأنها أول من جاء جبريل إليه في خدرها ـ وأول من جاءته البشرى والسلام من الله، والبيت من القصب خصوصية لها ـ وكانت أول من صبر معه من نسائه، وجاهدت بالنفس والمال فيقول عن خدرها:

فى كل يوم غدوة أو روحة للروح إذ يلقى لديك محمدا
لولا حراء لكان منزلك الذي أهدى إلى الدنيا الرسالة والهدى

وعن تأييدها وتفردها معه:

أما البطولة إذ رأته مفزعا يرجو الدثار فما أجل وأمجدا
وحديثها والله لن تخزى سرى فى نفسه كالري في أثر الصدى
والحب تبذله كريماً طيباً وتعينه بالمال حتى يصمدا
كانت لديه وحدها وكفى بها ينضو لدى أحضانها ما أجهدا
لم يَشْكُ منها مرة أو تجفه يوماً وكان هناؤها أن يسعدا

ويجيء جبريل الأمين محيياً من ربه يحكي السلام مرددا
ومبشرا بالبيت من قصب لها في قمة الفردوس ربي شيدا

ويقول:

سلام ساقه جبريل من مولاه مأمورا
يزجى البيت من قصب بدار الخلد معمورا

ويقول:

قد كنت درع جهاده ومعينه في الأزمتين

وخديجة من جاءها جبريل يحمل بشريين
بشرى السلام من السلام مبرأ من كل غين
والبيت من قصب بلا نصب وإقرارا لعين

أما السيد أحمد المحضار فيقول في ذلك:

بادرت من دون النساء ببيعة لم ترض بالأوثان والإشراك

ويقول شاعر آخر:

سلام الله قد سبق السلاما لزوجة خير من صلى وصاما
وقصر في الجنان لذات حسن يفوق جبينها البدر التماما
فكم جاء الحبيب إليك يسعى فكنت له السكينة والسلاما
حلفت لشد عزمته يمينا بأن الله لايخزي الكراما
وصدقت النبوة في بكور وفي الإيمان لم تخشَيْ ملاما

أما السيد مصطفى المحضار فيقول:

وكمال هذا السعد ما قد نلته في جنة المأوى بها مأواك
والقصر من قصب ساج بلاصخب هان بلا نصب رب السما أعطاك

والسيد محمد أمين كتبي يقول:

والله بشـــرهـــا بمـــا ترجو من الرتب السوام

وبمنـــزل قصـــب بجنتـــه علـى طـرف التمـــام

قصـب هـو الـدر المجوف مـــن يتيـم أو تـــؤام

والسيد فؤاد حمدي يشارك في هذه المعاني فيقول :

زملتـــه دثـــرتـــه صدقت قول الرسالة

حينمـــا عـــاد إليهـــا خائفا مما جرى لـه

لاتخـــف أنـــت نبـــي مرسل من ذي الجلالـه

أول النـــاس جميعـــا صدقت بشرى محمـد

قبلهـــا مـــا قـــام إنـــس خلـف طـٰه للصـــلاة

بشـــرت دون ســـواهـــا ان بيتـــا مـــن قصـــب

بيـــن جنـــات نعيـــم وخلـــود مـــرتقـــب

وهـــي شـــدت أزر طـٰـه حينما اشتدت مواقـــف

في حصار الشعب قامت لا تبالي بالعواصـــف

ويقول :

وقد أرسـل الله العليم سـلامـه إليك فيـا مرحـى بهذا التفـرد

وفي قمـة الفردوس فزت بمنزل سـعـدت به بين النعيم المخلد

وكنـت بهـذا المجد أول فائـز بما نلت من حب النبي المؤيـد

واسمع الشاعر بدوي طيب الأسماء يقول :

في السابقين إلى الهداية فذة في رأس قائمـة الهداة تحلـق

كم هونت صعباً وحلت معضلا لتثبـت المختـار فيمـا يقلـق

لم تدخـر وسعـاً لدفـع ملمـة عنه وترأم بالحنـان وتغـدق

قد صـدقته وآمنـت وتـرفقـت والناس عنه تباعدوا وتفرقوا

ويقول:

جبريل ينزل بالسلام مبلغاً   عن ذي الجلال وبالتحية ينطق
ومبشراً لك في الجنان بمنزل   قصب دعائمه تضيء وتشرق

وهذا السيد جعفر ميرغني يقول:

فخر بقصر أي قصر مثله . .   في جنة جلت عن التعداد
جادت على خير الأنام بمالها   فأنالها الحسنى وخير مراد
نصرت حبيب الله في أعدائه   ظفرت بكل جميلة وأيادي
شرفت بتصديق وصدق طاهر   سبقت باسلام على الأجواد
وتزمل المختار حتى يسكن   الروع المثار بإذن مولى هادي
وتثبت المحمود في عزماته   بمقالة تدنى من الإسعاد

أما أخلاقها - وحسنها وتقواها وصبرها - وصفات التكريم التي عرضوها لها فهي دوحة للدين - سراج هاد - باب الهادى - قمر وكوكب وشمس - حورية اختارها الله لنصر دينه:

فى هذه المعاني نسمع الشاعر السيد طه السقاف يقول:

أنت حورية ورمز فخار   أنت طهر والطهر من أسماك
قمر للوجود أشرق نورا   كوكب قد أضاء من علياك

ويقول الشاعر محمد بدر الدين:

ياصبرها والناس حول حبيبها   رصد يذيب الشامخ المتشددا
يا آية الإخلاص كيف رضاؤها   بذهابه للغار كي يتعبدا
ياللبطولة فى الزمان تفردا   والصبر والإخلاص فيك تجسدا

ويقول:

فهوى الحبيب هو الذي   تسعين فيه وتغرمين[1]

---

(١) تغرمين: تتحملين شيئاً عظيماً.

وبذا الوفاء بلغت أرفع   من سماء الفرقدين

أحبيبة أحمد وسراجا   يهديني في الليل الداجي
يا باب الهادي وحنانا   يتلقى المحزون الشاجي

يقول الشاعر السيد أحمد بن محمد المحضار :

لما بدت في برجها شمس الضحى   وتبلجت بجمالها عيناك

ويقول السيد مصطفى المحضار :

خديجة الصدق أم المؤمنين ومن   حلوا بشعب الحجون الطيب الأرج

ويقول السيد محمد أمين كتبي :

وخديجة الكبرى التي   بالجود سابقت الغمام

أما السيد فؤاد حمدي فيقول :

حوت كل آيات الجمال بحسنها   وأخلاقها والأصل أكرم محتد
اذا أسفرت عن وجهها كان حسنها   يغيب نور النيرين بمرصد
هي الدوحة الكبرى تمد غصونها   على خير أهل الأرض أحفاد أحمد
فأنتم منارات الهدى ورحابه   إليكم تناهى كل عز وسؤدد

واستمع إلى الشاعر بدوي طيب الأسماء يقول :

لاتحصر الألفاظ غر صفاتها   بل لايفي التعبير مهما نمقوا
اختارها الله الحكيم لنصرة   الدين الحنيف تحوطه وتصدق

ويقول الشاعر السيد جعفر الميرغني :

يامن لها الجاه العريض ومن لها   الفيض المفيض لكل قلب صادي

اما قضية الحب حب المؤمنين جميعاً لها وحبها للنبي ﷺ وحبه العظيم لها فاسمع ما قالوه فيه وما أكثر ما قالوا :

وارع الذمام لجيرة حلوا به   وانشد فؤادا ضاع في ذاك الفنا
واقر السلام أهيله عني وصف   ماحل بي بعد البعاد من الضنى

واستعطف الأحباب كيما يعطفوا فهمو همو أهل المكارم والثنا
وابدأ لهم بالله ألا يقطعوا حب المحب المستهام وإن جنى
وأرى الحياة اذا خلت من وصلكم أن الممات أسر منها والفنا
أنتم مرادي لا أبالي بعدما ترضون عني من أحب ومن شنا
بودادكم تحيا القلوب وحبكم نور السرائر خير شيء يقتنى
وبقربكم ووصالكم تنعم الأرواح في روض المسرة والهنا

وهذا بدوي الطيب الأسماء يقول:

أنى لمثلي أن يقوم بمدحها وبضاعتي في سوقها لاتنفق
إني لأخجل أن أقوم ببابها وصحائفي سود وفعلي موبق
لولا المحبة ثم أني مؤمن وهي الرؤوم - ومن سواها يشفق
لثنيت عزمي عن زيارة قبرها خجلا - وقلبي مستهام يخفق
لكنها أمي أحن لبيتها مهما حييت فبابها لا يغلق

وهذا شاعر آخر يقول:

فيا أم البتول أتيت أسعى وقلبي عند روضكمو أقاما
وكيف يضام من وفدوا إليكم ومن فيكم - على البعد استهاما

أما الشاعر فؤاد حمدي فحبه متجدد..

فيا جدة الآل الكرام تحية من القلب أهديها بحب مجدد
وكل قلوب المؤمنين تشوقت لتنعم بالرضوان في طهر مشهد

ثم يعبر عن الحب المتبادل بينها وبين النبي ﷺ فيقول:

بقلب حبيب الله ما حاز مثله ولا قال عن أخرى كبنت خويلد

والشاعر محمد بدر الدين يصور حبها له قبل أن تخطبه:

سبحت خديجة في خواطر أمسها والشوق في طي الضلوع توقدا
من ذا يبلغه بأن فؤادها أرق الخواطر قد أحب محمدا

ويصور حبه ﷺ وحزنه على فراقها وسعيها في رضاه:

عام من الأحزان عام فراقها لاشيء ينسيه وإن يك قد بدا
كانت لديه وحدها وكفى بها ينضو لدى أحضانها ما أجهدا
لم يشك منها مرة أو تجفه يوماً وكان هناؤها أن يسعدا
ولئن تعددت الحلائل بعدها فلقد تذكرها على طول المدى
ويحن إذ يلقى صواحبها كما لو كان يلقاها ويشجيه الصدى
«لآهم هالة» ياحناناً دافقاً من قلبه يحكي الوفاء مجردا
وحديث عائشة وغيرتها وما قال النبي، معالم لن تجحدا
ينهل والدمعات ملء حديثه أن ليس أكرم من خديجة محتدا
آوت وأهدت مالها وتحملت والشر في الوادي عليه تمردا

أما حبها الذي كان دفء عمره، ومحرك سلوكها فيقول فيه:

يا حب أحمد في الورى ووزيره في الأبطحين
يا دفء عمر محمد أوفى نساء العالمين

فوهبته القلب الرؤوم مبرأ من كل رين
تسعين في مرضاته لا عتب لاشكوى لبين
واذا أوى للغار قمت لعونه بكلا اليدين
فهوى الحبيب هو الذي تسعين فيه بغير مين

وحب الشاعر لها يكاد يعجزه عن التعبير، وهو يطهر القلب وأنيس القبر:

حبيبة خير خلق الله قد أعييت تعبيرا
يطهر حبكم والآل قلب المرء تطهيرا
وحبكمو أنيس القبر يملأ جوفه نورا
رأيت هواكمو في الآي متلوا ومذكورا

وحبكمـو شفـاعتنـا رواه الكـل مسطـورا

ويعبر طه السقاف عن حبها للرسول ﷺ وحبه ووفائه لها فيقول :

احتضنت الرسول أعظم هاد حبه حل في صميم حشاك

لك منه الحب العظيم وود دائم الفيض لم تنله سواك

أنت للمصطفى الحبيبة حقاً وأتاه البنون من أحشاك

حفظ الود في صحابك أما جئت أذري الدموع فى ذكراك

وخديجة واحدة من النساء الكوامل الأربع - يقول في ذلك فؤاد حمدى :

وهـى احـدى سيـدات كـامـلات فـاضـلات

فـاطـم ثـم خـديـج تـاج كـل الصـالحـات

مـريـم منهـن تـاج ثـم آسيـة لـدات

قـد أتـى عنهـن نـص قـالـه الهـادى محمـد

ويقول عن حزن الرسول عليها ونزوله فى قبرها :

بعـد ستيـن وخمـس ودعـت ختـم الـرسـل

كـم بكـى طـه عليهـا ثـم فـى القبـر نـزل

هـذه احـدى المـزايا بعـدمـا وافـى الأجـل

خصهـا الله بهـذا بيـن زوجـات محمـد

ويقول بدوي طيب الأسماء عن مقامها بين الكوامل الأربع :

يا أخت آسية ومريم في العلا وبصحبة المختار فضلك أسبق

ما زال يمدحها ويذكر فضلها وعلى قرابتها يحن وينفق

وهذه قصيدة فيها بشرى بالتيسير والشفاعة يوم القيامة من قصيدة للشاعر محمد بدر الدين :

الشعر يشرف حين ينظم مدحها والقلب يطهر حين يلزم حبها

أما اللسان فقد نجا من لغوه   لما حكى عنها وردد ذكرها
من حب ربي قد حبينا حبها   وبفضل ربي قد منحنا قربها

ومما قاله البوصيري في همزيته عن أمنا العظيمة خديجة الكبرى :

واستبانت خديجة أنه   الكنز الذي حاولته والكيمياء
ورأته خديجة والتقى والزهد   فيه سجية والحياء
وأتاها أن الغمامة والسرح   أظلته منهما أفياء
وأحاديث أن وعد رسول الله   بالبعث حان منه الوفاء
فدعته إلى الزواج وما أحسن   ما تبلغ المنى الأذكياء
وأتاه في بيتها جبريل   ولذي اللب في الأمور ارتياء
فأماطت عنها الخمار لتدري   أهو الوحي أم هو الإغماء
فاختفى عند كشفها الرأس جبريل   فما عاد أو أعيد الغطاء

ونختم بقصيدة لشاعر من آل البيت . . في ريعان شبابه ، وهي تميزت بعبارات صادقة تعبر عن حب وشوق تنطق بلسان كل محب للسيدة خديجة وآل بيت رسول الله ﷺ :

دخلتُ بالجاه!

منك البشائرُ يا أمّاه فاستلمي   هذا القصيدَ . . فإنِّي صِرتُ في الخَدَمِ
ما كنتُ أكتبُهُ . . بل كان يكتُبني   هذا القريضُ . . مرايا الجُودِ والكرمِ

* * *

يا ربِّ صلِّ على الهادي وعترتِهِ   عدَّ الخلائق مِنْ عُربٍ ومِنْ عَجَمِ
يا ربِّ صلِّ عليهم دائماً أبداً   واغفرْ خطايا مُحِبٍ مُذْنِبٍ سَقِمِ

* * *

نورٌ من الغيبِ بينَ اللوحِ والقلمِ   طوى الزمانَ فألقَى الرّحْلَ بالحرمِ
مُذْ حلّتِ الشمسُ في دارٍ لكمْ طَهُرتْ   وأنتَ في الوجدِ حالَ الظاميءِ النَهِمِ
فالعقلُ ينشُدُ حظاً لا مثيلَ له   والقلبُ يرْقُبُ نورَ الشمس من أمَمِ
والسّر يجمعُ حباً لا حدودَ لهُ   مقامَ قلبٍ تقيٍ عارفٍ فَهِمِ

وكان ذا السّر يا أمّاه أن سَلِمَت … منكِ السريرةُ بالتسليم.. لم تَجِمِ
أبصَرْتِ مِعراجَ قُربٍ لا نظيرَ لهُ … فَبِعْتِ من أجله الدنيا بلا ندمِ
وكُنْتِ خيرَ محبٍ عاشقٍ وَلِهٍ … ختمتِ بالبدءِ معنى البدءِ بالخَتَمِ
بادرتِ بالحبِّ يا خيرَ النساءِ هوىً … فكُنتِ قُدوةَ منْ يهوى ومنْ يَهِمِ
والحبُّ كالزرعِ إن ترويه تَحْصُدَهُ … والذكرُ للحبِّ حُكْمُ الماءِ فاغْتَنِمِ
يممْ خديجاً وقاربْ في معيّتِها … لعلَّ شوقَكَ بالإخلاصِ يشتَعِمِ

* * *

يارب صلّ على الهادي وعترتهِ … عدَّ الخلائق مِنْ عُربٍ ومِنْ عَجَمِ
يارب صلّ عليهم دائماً أبداً … واغفر خطايا مُحِبٍ مُذْنِبٍ سَقِمِ

* * *

أمّ البتولِ ويا كنزَ الوراثةِ يا … خيرَ الشقائقِ مِنْ عُرْبٍ ومِنْ عجم
ياصِنْوَ مريمَ يا صدِّيقةً شَرُفَتْ … بالحِلم والطُهْرِ والإيثارِ والكَرَمِ
يا أسبقَ الناسِ إذ صلّى محمّدُنا … فكنتِ أولَ منْ في الخَلْقِ يأتمِ
يا أعظم الناسِ يومَ الشعبِ تضحيةً … حاشاكِ.. ما ضِقت من شكوى ولا برمِ
بُشراكِ لما وصلتِ المصطفى وصلتْ … إليكِ رحمةُ ربٍ واصلِ الرحمِ
بشراكِ أمّاهُ أن أهداكِ سيّدُه … سلامَ جبريلَ وصلاً غيرَ مُنْفَصِمِ
أهدى إليكِ سلاماً منه متصلاً … أنعمْ بمُسْتَلَمٍ منهُ ومُسْتَلِمِ

* * *

دخلتُ بالجاهِ يا أمّاه مُلْتَمِساً … يا بابَ أحمدَ إكراماً لملتزمِ
نَفسي فِداكِ وأهلي والحياةُ معي … هَلاّ شَفَعْتِ لدى المختارِ في القِسَمِ

هذه نماذج من الشعر الذي قيل في هذه السيدة الجليلة التي أحبها الناس في الجاهلية وفي الاسلام، وقدروها ووقروها، وبعد زواجها من رسول الله ﷺ تعمق حبها في قلوب المسلمين، وشكروا لها صنيعها مع سيدنا محمد ﷺ وعبروا عن حبهم وتقديرهم شعراً ونثراً أو نشيداً أو غير ذلك من ألوان التعبير وذهبت خديجة بنت خويلد ولقيت ربها وبقي حبها خالداً في نفوس الناس.

رحم الله خديجة وأكرمها وجزاها عن المسلمين خير الجزاء .

الأحاديث الواردة في مناقب السيدة خديجة

* عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «خير نسائها مريم بنت عمران، وخير نسائها خديجة بنت خويلد» متفق عليه.

رواه البخاري: كتاب مناقب الأنصار: باب تزويج النبي ﷺ خديجة. وفضلها رضي الله عنها، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة: باب فضائل خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها رقم (٦٩).

* عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أتى جبريل النبي ﷺ فقال: «يارسول الله هذه خديجة. قد أتتك، معها إناء فيه إدام -أو طعام، أو شراب- فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها عزل وجل، ومني. وبشرها ببيت في الجنة من قصب لاصخب فيه ولا نصب» متفق عليه.

صحيح البخاري: كتاب مناقب الأنصار: الباب السابق، وفي غيرهما. وصحيح مسلم: في الكتاب والباب السابقين رقم (٧١).

* وعن إسماعيل بن أبي خالد رحمه الله قال: قلت لعبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه: أكان رسول الله ﷺ بشر خديجة ببيت في الجنة؟ قال: نعم. بشرها ببيت في الجنة من قصب، لاصخب فيه ولا نصب. متفق عليه.

صحيح البخاري: في الكتاب والباب السابقين، وصحيح مسلم: في الكتاب والباب السابقين رقم (٧٢).

* وعن عائشة رضي الله عنها قالت: ماغرت على أحد من نساء النبي ﷺ ماغرت على خديجة، ومارأيتها، ولكن كان النبي ﷺ يكثر ذكرها، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء، ثم يبعثها في صدائق خديجة، فربما قلت له: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة؟ فيقول: «أنها كانت، وكانت، وكان لي منها ولد» لفظ البخاري:

صحيح البخاري: في الكتاب والباب السابقين، ومسلم: في الكتاب والباب

السابقين رقم (٧٦).

* وعنها رضي الله عنها قالت: ماغرت على امرأة ماغرت على خديجة، ولقد هلكت قبل أن يتزوجني بثلاث سنين، لما كنت أسمعه يذكرها. ولقد أمره ربه عز وجل أن يبشرها ببيت من قصب في الجنة، وأنه كان ليذبح الشاة ثم يبعث بها إلى خلايلها. متفق عليه.

صحيح البخاري: في الكتاب والباب السابقين. وصحيح مسلم: في الكتاب والباب السابقين، رقم (٧٤).

* وفي رواية لمسلم عنها رضي الله عنها قالت: وكان رسول الله ﷺ إذا ذبح الشاة فيقول: «أرسلوا بها إلى أصدقاء خديجة».

قالت: فأغضبته يوماً فقلت: خديجة؟ فقال رسول الله ﷺ: «إني قد رزقت حبها» صحيح مسلم: في الكتاب والباب السابقين، رقم (٧٥).

* وعنها رضي الله عنها قالت: استأذنت هالة بنت خويلد - أخت خديجة - على رسول الله ﷺ، فعرف استئذان خديجة، فارتاع[1] لذلك فقال: «اللهم هالة» قالت: فغرت، فقلت: ماتذكر من عجوز من عجائز قريش، حمراء الشدقين، هلكت في الدهر، قد أبدلك الله خيراً منها. متفق عليه.

صحيح البخاري والطبراني في الكتاب والباب السابقين رقم (٧٨).

* زاد أحمد والطبراني: فقال ﷺ: «ما أبدلني الله عز وجل خيراً منها، قد آمنت بي إذ كفر بي الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله عز وجل ولدها إذ حرمني أولاد النساء».

---

(١) رواه أحمد (١/ ٢٩٣) والفضائل له رقم (٢٥٠، ٢٥٢، ٢٥٩) والطحاوي في مشكل الآثار (١/ ٥٠) والنسائي في السنن الكبرى (٥/ ٩٣، ٩٥) وفضائل الصحابة (١٩٦، ١٩٧-٢٠٠) وأبو يعلى رقم ٢٧٢٢ والطبراني في المعجم الكبير (٢٢/ ٤٠٧) (٢٣/ ٧) والحاكم في المستدرك (٢/ ٥٩٤) (٣/ ١٦٠، ١٨٥) وابن حبان (١٥/ ٤٧) وصححه الحاكم ووافقه الذهبي وعزاه في مجمع الزوائد (٩/ ٢٢٣) لأحمد برجال الصحيح. أنظر فتح الباري (٧/ ١٣٤).

مسند أحمد (٦ : ١١٧-١١٨) والمعجم الكبير (٢٣، ١٣ رقم٢١، ٢٢٧) وفي مجمع الزوائد (٩ : ٢٢٤) تحسينه.

❊ وعن أنس رضي الله عنه، أن النبي ﷺ قال: «حسبك من نساء العالمين: مريم بنت عمران، وخديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، وآسية امرأة فرعون» رواه أحمد (٣: ١٧٥) وفضائل الصحابة رقم (١٣٢٥، ١٣٣١، ١٣٣٧، ١٣٣٨) وعبد الرزاق (برقم ٢٠٩١٩) والترمذي: كتاب المناقب: باب فضل خديجة رضي الله عنها، رقم (٣٨٧٨) وابن حيان (١٥ : ٤٦٤) والحاكم (٣: ١٥٧، ١٥٨)وصححوه وأقره الذهبي والطحاوي فى مشكل الأثار (١ : ٥٠) وشرح السنة (رقم ٣٩٥٥) والطبراني في المعجم الكبير (٢٢ : ٤٠٢)(٢٣ : ٧).

❊ وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خط رسول الله ﷺ في الأرض خطوطا أربعة، قال: «أتدرون ما هذا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله ﷺ: «أفضل نساء أهل الجنة: خديجة بنت خويلد، وفاطمة بنت محمد، ومريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون».

❊ وعن أنس رضي الله عنه قال: جاء جبريل إلى النبي ﷺ: وعنده خديجة، قال: «إن الله يقرىء خديجة السلام» فقالت: إن الله هو السلام، وعلى جبريل السلام، وعليك السلام ورحمة الله وبركاته.

رواه النسائي في الكبرى- (٥ : ٩٤) وفضائل الصحابة (١٩٧، ١٩٨ رقم ٢٥٣)فى عمل اليوم والليلة (٣٠١ رقم ٣٧٤) والحاكم فى المستدرك (٣: ١٨٦) وصححه وسكت عنه الذهبي.

❊ وعن عفيف الكندي رضي الله عنه قال: كنت امرأ تاجراً، فقدمت الحج، فأتيت العباس بن عبد المطلب، لأبتاع منه بعض التجارة، وكان امرأ تاجراً، فوالله إني لعنده بمنى، إذ خرج رجل من خباء قريب منه، فنظر الى الشمس، فلما رآها مالت، بمنى قام يصلي، قال: ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذي خرج منه ذلك الرجل، فقامت خلفه تصلي، ثم خرج غلام حين راهق

الحلم من ذلك الخباء فقام معه يصلي، قال: فقلت للعباس: من هذا يا عباس؟ قال: هذا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، ابن أخي قال: قلت: من هذه المرأة؟ قال هذه امرأته خديجة بنت خويلد، قلت: من هذا الفتى؟ قال: هذا علي ابن أبي طالب، ابن عمه، قال: فقلت: ماهذا الذي يصنع؟ قال يصلي، وهو يزعم أنه نبي، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى، وهو يزعم أنه سيفتح عليه كنوز كسرى وقيصر.

قال: فكان عفيف- وهو ابن عم الأشعث بن قيس، يقول: وأسلم بعد ذلك فحسن إسلامه -: لو كان الله رزقني الإسلام يومئذ، فأكون ثالثاً مع علي بن أبي طالب رواه احمد في المسند (١ : ٢٠٩-٢١٠) والنسائي في خصائص علي (رقم ٦) والبخاري في تاريخه (٧ : ٧٤-٧٥) وأبو يعلى في مسنده (٣ : ١١٧-١١٨) والطبراني في الكبير (١٨ : ١٠٠-١٠٢) من طريقين) والحاكم في المستدرك (٣ : ١٨٣) وصححه وأقره الذهبي والبيهقي في الدلائل (٢ : ١٦٢-١٦٣) وابن سعد (٨ : ١٧ -١٨) وعزاه في مجمع الزوائد (٩ : ١٠٣) لأحمد برجال ثقات، وأبي يعلى والطبراني. وله شاهد من حديث ابن مسعود (٩ : ٢٢٢) مجموع طرقه حسن.

الخاتمـــة

يا أم المؤمنين ويا أول المسلمين يتساءل كاتب هذه الكلمات في ختام هذا الحديث عنك هل يستطيع قلمه أن يرتقي ليخط بمداده بعض مآثرك العظمى على الأمة الإسلامية؟ وعلى تاريخ الحضارة الإنسانية كلها؟

وهل يستطيع بيان الحرف ـ ولو غمس بالضياء ـ أن يسمو إلى منازل علياتك، فيقدم ـ متواضعاً ـ بضاعة مزجاة إلى مقامك السامي؟

وكيف يستطيع؟

فأنت أول من آمن حين كفر الناس.

وأنت أول من أعطى.. حين منع الناس.

وأول من صدق.. حين كذَّب الناس.

وأنت أول من واسى حين اشتد أذى الكفار.

وأنت أول وأسخى من بذل حين حرم الناس.

وأنت أول من وقف مع المصطفى ﷺ تشدين من أزره.

وأول من دثَّر..

وأول من زمَّل..

وهل يمكن لمؤمن أن ينسى موقفك العظيم؟

حين فاجأ الوحي سيد المرسلين.

وجاءك الحبيب المصطفى صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله

ترجف بوادره ويخفق فؤاده وهو يقول:

زملوني.. زملوني..

دثروني . . دثروني . .

فكنت سكنه المطمئن، وكنت المهدىء لروعه، وكنت الزوجة الصالحة، والرفيقة الفالحة .

أم كيف ينسى مؤمن يوم جاءك الحبيب قائلا :

لقد خشيت على نفسي

فكان جوابك : كلا والله لن يخزيك الله أبداً

إنك لتصل الرحم

وتحمل الكل

وتكسب المعدوم

وتعين على نوائب الحق

ابشر ياابن عم واثبت فوالذي نفس خديجة بيده إني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة .

فما أروع مواساتك

ثم موقفك العظيم يا أم المؤمنين الذي يدل على رجاحة العقل

يوم ذهبت بالمصطفى صلى الله عليه وآله وسلم

إلى ابن عمك ورقة

تريدين التثبت مما جاء من خبر السماء

فأي عقل راجح وأية حكمة منحك رب السمٰوات

وحينما جاءه الملك في بيتك

وأردت أن تعرفي حقيقته

فطلبت من الرسول الأعظم

أن يجلس بجانبك ثم يتحول إلى يمينك ثم إلى يسارك ثم إلى حجرك، ثم كشفت عن رأسك

وهذا فقه، وايم الله أي فقه . .

فما أعمق الفقه الذي خصتك به العناية الإلٰهية!

يا أم المؤمنين

لقد علمنا سيدنا ﷺ

الحب والإخلاص والوفاء

بإخلاصه ووفائه لك

وظللت في أعماق مشاعره

لا يفتأ يذكر الزوجة الحانية والأم الرؤوم

بعد سنوات وسنوات

كان يذبح الشاة ويقسمها ويقول: ارسلوا إلى صديقات خديجة

فما أروع الإخلاص!

وتزوره إحدى صويحباتك فيهش إليها ويكرمها ويفرح بقدومها

وهو يقول: كانت تغشانا أيام خديجة

ويعلمنا أن حسن العهد من الإيمان

ومهما ننسى فلن ننسى ما قرأناه في السيرة العطره

حين استأذنت أختك هالة على المصطفى ﷺ

فعرف فيه استئذان خديجة، ففرح وقال اللهم هالة . . وذكر حب خديجة . . ووفاء خديجة . . وأيام خديجة . .

فما أعظم مكانتك في فؤاد المصطفى الوفي الأمين

لقد حللت من قلب الرسول الكريم محلاً لم يبلغه أحد

حتى أخذت الغيرة أمنا عائشة رضي الله عنها فقالت: كأنه لم يكن في الدنيا امرأة إلا خديجة

يا أول أمهات المؤمنين

لقد جمعت أنبل السجايا وأعظم الصفات
وجاء تكريمك من رب السماوات
جاءتك التحية من رب العرش العظيم
يحملها الروح الأمين إلى الرسول الكريم
يا رسول الله هذه خديجة قد أتت
معها إناء فيه إدام أو طعام أو شراب
فإذا هي أتتك فاقرأ عليها السلام من ربها ومني . .
فكان جوابك : إن الله هو السلام
وعلى جبريل السلام
وعليك يا رسول الله السلام ورحمة الله وبركاته
فما أعمق ما حباك الله من الفقه الذي سبقت به
أجلة الفقهاء
وزادك ربك تكريما بالبشارة العظمى
يحملها جبريل أيضا من رب السماء إلى رسول الله
«بشّر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب»
ثم بعدها تكريم وأي تكريم
يحمل البشرى العظيمة
من الرسول العظيم ﷺ
خير نسائها مريم، وخير نسائها خديجة
فهنيئا لك يا أم المؤمنين
ببشارة رب السمٰوات والأرضين
وهنيئا لك حب المصطفى ﷺ وتكريمه ووفاؤه وحبه . .
وكاتب هذه الكلمات

يستأذن معتذراً عن التقصير والعجز

أن يسطر بقلمه العاجز عن توفيتك حقك

صفحات للشباب الغض من أبناء هذه الأمة بنين وبنات.

لتكون مناراً لهم في دياجي هذا العصر

تحمل في ثناياها مواقف تهيب بالمسلمين أن يأخذوا منها العبرة والأسوة وان يتخلقوا بالسجايا التي حملتها صاحبة الذكرى.

وسجايا حملتها عسى أن تتحلى ببعضها كل النساء المسلمات

ومواقف عظيمة.. تنحني لها الهامات

وأرجو أن يكون عملاً خالصاً لله

كما أطمح وأسمو أن يشرفني الله بحبك

وأكون ابناً لك باراً بك

فإن لك في أعناقنا جميعاً منة.. وحقاً.. فقد وقفت إلى جوار المصطفى ﷺ.. وكأنك تنوبين عنا جميعاً.. تؤدين الواجب عن كل هذه الأمة.. فكان الحب.. وكانت التضحية.. وكان الوفاء.. وكان العطاء..

رضي الله عنك.. وأرضاك أحسن الرضى

وجزاك عنا وعن المسلمين خير الجزاء.

أماه.. رحمك الله.. ورحم آل بيت رسول الله.. وأمة سيدنا محمد ﷺ.

محمد عبده يماني

١ ذي الحجة ١٤١٩هـ

المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم
٢- صحيح الإمام البخاري
٣- صحيح الإمام مسلم
٤- سنن النسائي
٥- سنن أبي داود
٦- سنن ابن ماجه
٧- سنن الترمذي
٨- الموطأ للإمام مالك
٩- مسند الإمام أحمد بن حنبل
١٠- المصنف لابن أبي شيبة
١١- المصنف لعبد الرزاق الصنعاني
١٢- السيرة النبوية لابن هشام
١٣- الروض الأنف للسهيلي
١٤- السيرة الحلبية
١٥- سبل الهدى والرشاد المعروف بالسيرة الشامية
١٦- تاريخ الأمم والملوك لابن جرير الطبري
١٧- الطبقات الكبرى لابن سعد
١٨- الشفا للقاضي عياض
١٩- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس لحسين بن محمد الديار بكري
٢٠- أخبار مكة للأزرقي
٢١- الاستيعاب في أسماء الأصحاب لابن عبد البر
٢٢- أسد الغابة في معرفة الصحابة لابن الأثير الجزري
٢٣- الاصابة في تمييز الصحابة
٢٤- أعلام النساء لعمر رضا كحالة
٢٥- البداية والنهاية لابن كثير

٢٦- تاج العروس للزبيدي
٢٧- تاريخ الإسلام للذهبي
٢٨- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (تفسير القرطبي)
٢٩- تهذيب الأسماء واللغات للنووي
٣٠- فتح الباري لابن حجر العسقلاني
٣١- جمهرة أنساب العرب لابن حزم
٣٢- جوامع السيرة لابن حزم
٣٣- سير أعلام النبلاء للذهبي
٣٤- شفاء الغرم بأخبار البلد الحرام للفاسي
٣٥- العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين لتقي الدين الفاسي
٣٦- الكامل لابن كثير
٣٧- كشف الظنون لحاجي خليفة
٣٨- لسان العرب لابن منظور
٣٩- المحبر لابن حبيب
٤٠ الدر المنثور في طبقات ربات الخدور لزينب فواز
٤١- المعارف لابن قتيبة
٤٢- نسب قريش للمصعب الزبيري
٤٣- وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى للسمهودي
٤٤- السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين لمحب الطبري
٤٥- السيدة خديجة أم المؤمنين لعبد الحميد طهماز
٤٦- المرأة العصرية وأمهات المؤمنين (السيدة خديجة) لحديوي حلاوة
٤٧- مثلهن الأعلى (السيدة خديجة) للشيخ عبد الله العلايلي
٤٩- كتاب الأربعين في مناقب أمهات المؤمنين لأبي منصور بن عساكر
٤٩- نساء حول الرسول ﷺ لمحمود طعمة حلبي
٥٠- خديجة أم المؤمنين لعبد المنعم محمد عمر
٥١- امتاع الأسماع للمقريزي
٥٢- حياة محمّد للأستاذ محمد حسين هيكل

٥٣- حقائق الإسلام وأباطيل خصومه للعقاد
٥٤- عبقرية محمد للعقاد
٥٥- تراجم سيدات بيت النبوة للدكتورة بنت الشاطىء
٥٦- إنها فاطمة الزهراء للمؤلف
٥٧- أمهات المؤمنين لوداد سكاكيني
٥٨- محمد في حياته الخاصة للدكتور نظمي لوقا
٥٩- السيرة النبوية لأبي الحسن الندوي
٦٠- دلائل النبوة للبيهقي
٦١- عيون الأثر لابن سيد الناس
٦٢- سيرة نبي الهدى والرحمة لعبد السلام حافظ
٦٣- حياة الصحابة للكاندهلوي
٦٤- الاعلام لخير الدين الزركلي
٦٥- أم المؤمنين خديجة بنت خويلد المثل الأعلى لنساء العالمين لابراهيم محمد حسن الجمل
٦٦- السيرة النبوية لابن اسحاق بتحقيق محمد حميد الله
٦٧- أنساب الأشراف للبلاذري بتحقيق محمد حميد الله
٦٨- السيرة النبوية لدحلان
٦٩- اتحاف الورى بأخبار أم القرى لابن فهد
٧٠- سيرة ابن اسحاق بتحقيق محمد حميد الله
٧١- المواهب للدينة للقسطلاني
٧٢- ذخائر العقبي في مناقب ذوي القربى لمحب الدين الطبري
٧٣- الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي
٧٤- نور اليقين للشيخ محمد الخضري
٧٥- زوجات النبي ﷺ وأسرار الحكمة في تعددهن لابراهيم حسن الجمل
٧٦- القلادة وأبو العاص بن الربيع
٧٧- غيرة السيدة عائشة
٧٨- ورقة بن نوفل للدكتور عويد المطرفي

صدر للمؤلف

١ـ علموا أولادكم محبة رسول الله ﷺ
٢ ـ علموا أولادكم محبة آل بيت النبي ﷺ
٣ـ بأبي أنت وأمي يا رسول الله ﷺ
٤ـ إنها فاطمة الزهراء
٥ـ هكذا صام رسول الله ﷺ
٦ـ هكذا حج رسول الله ﷺ
٧ـ بدر الكبرى (المدينة والغزوة)
٨ ـ المعادلة الحرجة في حياة الأمة الإسلامية
٩ـ حوار مع البهائيين
١٠ـ البابية
١١ـ أفريقيا لماذا؟ لا تضيعوا أفريقيا كما ضاعت الأندلس
١٢ـ للعقلاء فقط ١-٢
١٣ـ قادم من بكين: الإسلام بخير
١٤ـ وكشفت أزمة الخليج عوراتنا
١٥ـ نظرات علمية حول غزو الفضاء
١٦ـ الأطباق الطائرة حقيقة أم خيال
١٧ـ أقمار الفضاء غزو جديد
١٨ـ الجيولوجيا الاقتصادية
١٩ـ وداعاً هالي
٢٠ـ مشرد بلا خطيئة

سيصدر قريباً للمؤلف

١ـ علموا أولادكم محبة صحابة رسول الله ﷺ
٢ـ قضايا تعليمية
٣ـ الأقليات المسلمة في العالم . . وإسلاماه
٤ـ روسيا والمسلمون ومحنة الانفتاح الجديد
٥ـ الخليفة الخامس
٦ـ THE MEANING OF ISLAM

الفهرس

أُمَّاهُ ..

يا خيرة الله لنبيه، وهديته إلى صفيه.
يا أمّ القاسم والطاهر .. وزينب ورُقية وأمّ كلثوم ..
وأمّ أبيها البتول، وناظمة عقد السلالة الطاهر الباهر.
شغلت بكمالك وفعالك أهل السماء، وبالسلام عليك
من الله جبريل جاء.

أُمَّاهُ ..

ماذا أقول والبيان - مهما سما وعلا - يعجز عن إظهار قدرك
والشعر يحار أمام جلالك وطهرك، وماذا يبلغ بيان
الناس كلهم أمام دمعة الحبيب عند ذكرك دمعة هي
أغلى وأعلى من كل بيان، وماذا يملكون من المدح أمام
قوله: والله ما أبدلني الله خيراً منها. وأصدق من كل ما ينطق
به لسان، فسلام عليك يا أول وأكمل أمهات المؤمنين اقتراناً
به، وأكملهن وفاء له، وأكثرهن تضحية لأجله، ومعذرة منكن
أيتها الأمهات الطاهرات الكاملات المكملات
وسلام عليكن مجتمعات من كل أبنائكن المؤمنين.
إلى يوم الدين .. ورضي الله عنكم آل بيت رسول الله أجمعين

- من مقدمة المؤلف.